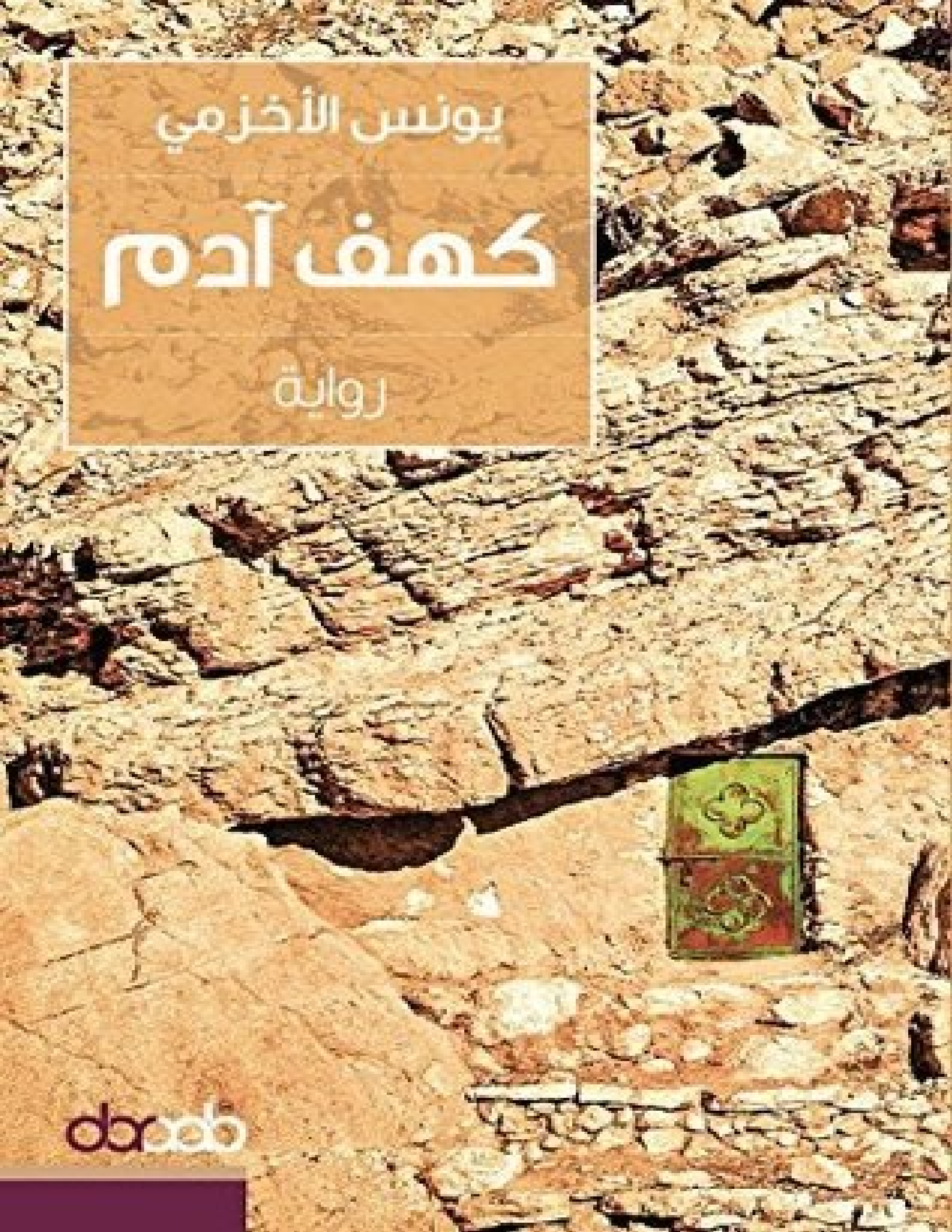
يونس الأخزمي
كهف آدم
رواية

يونس الأخزمي

كهف آدم

رواية

دار عرب للنشر والترجمة
DAR ARAB FOR PUBLISHING & TRANSLATION

2017

يونس الأخزمي

كهف آدم (رواية)

Younis Alakhzami

Adam's Cave (Novel)

الطبعة الأولى 2017

ISBN 978-1-78671-000-8

حقوق الطبع محفوظة ©

دار عرب للنشر والترجمة

DAR ARAB FOR PUBLISHING & TRANSLATION

Info@dararab.co.uk

www.dararab.co.uk

Copyright © dararab 2017

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى، بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

التدقيق اللغوي: **وليد النبهاني**

صورة الغلاف: **الفوتوغرافي إبراهيم البوسعيدي**

تصميم الغلاف: **محمد النبهان**

تنويه..

الأحداث في هذه الرواية هي من وحي خيال المؤلف وليس لها علاقة بأية أحداث حقيقية على أرض الواقع. كما أن الفترات الزمنية الواردة بالرواية لا تعكس بالضرورة التسلسل الزمني الحقيقي أو الفعلي لها، فالتداخل المتعمّد فيها زمنياً وجد لخدمة الأهداف الفنية للرواية، وفقط. مع ملاحظة أن أسماء الشخصيات هي من صنع مخيلة المؤلف ولا تمت لا من قريب ولا من بعيد بشخصيات طبيعية على أرض الواقع، وإن حصل تشابه في الأسماء فإن الأمر حدث مصادفة.

تـهيئـة...

هل تمادى، وبشكل صارخ، في المباح من الحديث فيما كتبه وغرّد به؟ هل خانه جهله فاعتقد بأنه قادر على البوح بما في رأسه بحرية «أكثر من اللازم» وسط مجتمع من العقول التي لا تقبل سوى ما ورثته وما يُملى عليها؟ ربما كان ذلك هو السبب الأكبر في أن يرى نفسه معزولاً لا يقف بجانبه أحد، فمن يتجرأ ويغرد خارج السرب، لن ينال سوى العقاب. كان عليه أن يتبع القطيع مهما اختلف معهم في الرأي.

ستكون إحدى زلّاته، بلا شك، والتي لا تضاهيها خطيئة؛ أنه تجرأ في الوصول إلى آدم وإلى تلك الرفات الراقدة بهدوء في تلك الغرفة الصخرية منذ ملايين السنين. ذلك الكهف المحاط بالأسرار، والذي لم يكن جائزاً لأحد الاقتراب منه، فمن هو حتى يمنح نفسه حق الدخول وملامسة تلك العظام المقدّسة الطاهرة وهو الذي قضى سنيَّ عمره في الغي والرذيلة؟ آدم ولا سواه هو سبب ما يقبع فيه من ضياع، هو السبب لكل تلك الأحداث التي وقعت عليه ولكل تلك النوائب التي ألمت به. هي لعنة ذلك الكهف الذي عرف عنه سليمان قبله، وحذّر بقية البشر منه، لكنه بغباء صدّق نفسه وولج أسوار المحظور. أعماه غرور العالِم، ولم يستمع بقلبه قبل أذنه ما كان «يُخزِّف» به ذلك الفقير المسكين الذي كان أول الضحايا. سليمان مات حتى قبل أن يحكي شيئاً، أبقى الأمر سرًّا بينه وبين نفسه لأيام وربما لشهور. وحين لم يستطع تحمّل ثقل السرّ بنفسه، وقرر البوح به لزوجته؛ تردّى وسقط مهشماً. أما هو فقد تجاوز كل الحدود المسموحة له، ولم يكتفِ بما كتبه، بل كان قاب قوسين أو أدنى من أن يطلع على ذلك السرّ فتاة لا تعرف الله ولا تؤمن بالأنبياء ولا الأديان، فكان لزاماً أن ينال العقاب الذي يستحقه. ليته لم يزر آدم في قبره، ليته سمِع نصيحة سليمان، ولم يقترب من ذلك الكهف المشؤوم.

«آدم عليه السلام هبط على سطح الجبل الأخضر، حقيقة لا يمكن لأحد تكذيبها، الجبل الأخضر ولا عداه كان أول مكان في الأرض لمسته قدم بشر». يطبع جملته الأولى على جهازه المحمول.

يهزُّ كتفيه زهواً وهو يؤكد لنفسه قناعته الجديدة.

«سيكون حديث العالم من أقصاه إلى أقصاه» يقول لنفسه وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه. يقشعّر بدنه، وتلمع عيناه. هل اهتزّ رأسه نشوةً وهو يزهو بذكائه؟ نعم اهتزّ.

للتو كان يلمح آدم وهو يهبطُ عاريا من جنته ليستقيم واقفاً على صخرة صلدة من صخور بلدة «سيق» بالجبل الأخضر، وقد ملأت وجهه علامات الدهشة والحيرة مما يراه؛ غير مصدقٍ على ما يبدو أن ينتهي به المطاف على تلك الساحة الجرداء القاحلة التي لا تمنح الناظر في فضائها سوى إحساس بالفراغ الصخري السرمدي الشاسع، وهو الذي كان يرتع قبل لحظات وسط جنّة من بساتين خضراء عرضها السماواتُ والأرض.

لم يلبثْ أن فركَ عينيه وهو يجول ببصرهِ يميناً ويساراً ريثما يتيقن بأن ما يراه ليس كابوساً، وإنما واقِع أليم مُرّ أصبح غير قابلٍ للتغيير. لقد فاته، وفاتَ حوّاء التي بجانبه، أوان الندم بعد أن تجاوزا تلك الحدود المسموح لهما بها، وقضما، متعمديْن، من ثمار الشجرة المحرّمة رغم التحذيرات الربّانية المتكررة.

كانَ، علاوة على أنه حتى لحظتها لم يكن واثقاً كل الثقة من أن ما يشاهده واقع حقيقي وليس كابوساً؛ لا يعرف الكثير عن تلك المناظر التي أمامه. كانت جديدة عليه، رغم أنه كان يدرك مسمياتها، فقد علّمه ربُّه الأسماء كلّها. لكنه لم يكن ليستوعب كيف ظهرت، ولا كيف تشكّلت بتلك التقاسيم والألوان التي لم يُشاهد مثلها من قبل.

لم يرَ آدم جبلاً من قبل تتلوّن صخوره بين البنيّ والرمادي والأسود والأبيض. مشاهد حياته الماضية ازدحمت بمناظر محددّة. أرضٌ خضراء باردة رطبة تجري أنهار اللبن والعسل والعنب في أرجائها، وتنتشر في ربوعها أشجارٌ ضخمة تُغطي بفروعها المساحات، وتتدّلى منها ثمار التين، والخوخ، والمشمش، والسفرجل، والكُمثرى الصفراء اللّينة الطرّية، وبلح الخلاص الهش، والكرز الأحمر القاني ذو الطعم السُّكّري اللذيذ. وفي المساحات المنبسطة تنبطحُ أشجار أخرى، وتزحف مكتظة بثمار البطيخ الضخمة المتلوّنة بين الأخضر والأصفر، والتي تزاحمها فوقها شجيرات العنب اليانعة الحمراء، والفستقية. وفي وسط كل ذلك الجمال الربّاني الفريد الآسر؛ قبعتْ تلك الشجرة التي لا يماثلها شيء في العلو والضخامة؛ الشجرة المحرّمة.

أما قدماه الناعمتان اللتان تعودتا على المشي فوق الحشائش اللينة والمياه الباردة؛ فلم تطآ من قبل أرضاً صلبة بمثل صلابة الصخور التي يقفُ عليها الآن.

لكن آدم ما لبث إلا قليلاً حتى بدأ في استيعاب المشهد الجديد عليه. تقرفَصَ على صخرةٍ صمّاء وسط العديد من صخور مشابهة تبعثرت شرازم في الأرجاء الممتدة، وطفق يفكر في خطوته القادمة، وبجانبه جلست حواء، وقد هاجم جسدها رعشة خوف.

ندمٌ يعصرهما على ما اقترفاه من خطيئة لم يتوقعا أن يكون لها مثل تلك التبعات. نظراتهما مشتّتة في الأرجاء، ينقّلانها بين سماءٍ، وصخورٍ، وجبلٍ، ووادٍ سحيقٍ مخيف. آدم يحدقُ باستغراب في الصخرة السوداء أسفل منه، والتي انتشرت في أرجائها الخطوط البيضاء المستقيمة والمتقاطعة، وبرز على زوايا سطحها بعضٌ من أحافير لبقايا قواقع بحرية، وعظام أسماك مختلفة الأحجام والأشكال. مسح بيده الملساء الناعمة على الصخرة التي بجانبه، ليُميط الغُبار المتراكمَ عن هيكل عظمي متحجر لسمكة طويلة الظهر. تشكيل فقرات عظام ظهرها بارزٌ بوضوح، على الرغم من التصاق الأتربة والغبار بها.

انتبها بعدها أنهما عاريان، لا يغطي جسديهما شيءٌ، فطفقا يخصفان عليهما من أوراق أشجار

الرُّمان المتناثرة بكثرة ليسترا عوراتهما. كانت أشجار الرمان هائلة حينذاك، وأوراقها العريضة قادرة على حجب أشعة الشمس عنهما، وثمرة الرمان الواحدة بحجم كرة السلّة.

آدم نزل على الجبل الأخضر. لقد أصبح الآن قاب قوسين أو أدنى من أن يصل إلى تلك الحقيقة الصاخبة، الحقيقة التي أفنى سنين من عمره في البحث عنها. صخور الجبل الأخضر، بل صخور «غابة المرجان» في بلدة «سيق» بالذات، وليس عداها، هي التي هبط عليها ذلك الإنسان الأول من الجنة، آدم وزوجه.

- الآنسة (مروة) بمكتبي.

برح مكتبه، فانكشفت أمامه ممرات الأنترلوك الحمراء، والمساحات الإسمنتية الرمادية المتبعثرة في كل مكان، في حين تناثرت أشجار النخيل والسدر والغاف في الأرجاء بشكل لا يوحي بتنظيم.

يعشقُ تلك الطرقات، وتلك المناظر، بما فيها من فوضوية توّزع الأشجار، وتباين أطوالها وأنواعها. تعيده تلك بالذاكرة إلى سنواتٍ بعيدة مضت، يوم أن أنهى تعليمه الثانوي في هذه المدرسة، حينما كانت مدرسة، وقد غدت الآن بقدرة قادر، بين عشية وضحاها، جامعة.

كان ينوي، حين رنَّ جرسُ الهاتف في مكتبه، وصورة آدم الجالس بدهشته على الصخرة الصلدة، الانتهاء من كتابةِ الفقرات الأولى من سطور مسودة ورقته العلمية الجديدة عن أصل الإنسان العُماني الأول؛ من أين خرج، وكيف تكاثر، وتزايدت أعداده بعد ذلك؟ ثم كيف ساهمت الثورات البركانية القديمة، وتكسّر الجبال في أن يُحشر مجموعات بين الأنهار التي جفت، وأصبحت أودية منذ عصور تقادمت؟ ليصل بالحجج والبراهين إلى أن نزول الإنسان الأول على سطح الأرض لم يكن سوى فوق صخور الجبل الأخضر، منشأ الحياة الأولى حيث لا تزال آثار تلك الحياة السحيقة الضاربة في القِدم شاهدة، قِدم الصخور نفسها التي نشأت قبل أكثر من 800 مليون عام. تلك الصخور التي غمرتها المياه بما حوته من كائنات حية ذات عهد، ثم انبثقت مجدداً إلى السطح. بعدها ببرهة نزل آدم، بطولهِ الشامخ الذي شارف الأربعين متراً، والذي لا يمكن لإنسان اليوم تخيله.

تلك العظام المندسّة في أحد كهوف جبال سيق؛ ليست سوى عظام آدم الذي قرر بعد فترة من نزوله من جنته، وبعد أن قتل قابيل هابيل؛ الاعتكاف في كهفه - الذي لم يعرف عنه أحدٌ من البشر لملايين السنين إلى أن عثر عليه (سليمان النبهاني) - وقضاء جلّ وقته بين صلاة وعبادة واستغفار، في سعي أخير يائس منه لأن يسامحه ربُّه، ويرضى عنه، ويعيده إلى بيته الأول. آدم كان قد لقّن ما تعلمه لابنه شيث -وكان الوحيد الذي يشبهه تماماً في الطول وفي لون الجلد من أبنائه- قبل أن يموت مستلقياً على الأرض في ذات الكهف، وقد تركه شيث في مكانه غيرَ مدرك لما يجب عليه القيام به تجاه الجسد المشمول بالهدوء السرمدي، فقد كان يجهلُ طقوس غسل الميت، ومسحه بالمسك والعنبر، وتكفينه قبل الصلاة عليه، ودفنه على جانبه الأيمن، وإهالة القطع الصخرية والتراب عليه.

آدم مات في كهفه في سيق، وليس في أحد جبال مكة أو الهند كما يشاع، وقد أسرَّ لابنه، والحياة تنطفئ في مقلتيه، وبعد أن أوصاه بالتناكح والتكاثر، بأنه يشعرُ أن جنته تلك التي أُبعدَ منها قريبة جداً من سيق، فرحلة خروجه منها إلى الجبل كانت قصيرة جداً. قال أيضاً لابنه: الله سيعيدني إلى جنتي حين أموت، أرى ذلك كل يوم في المنام.

انتشله صوتُ الهاتف المباغت من عُمق تخيلاته وتحاليله، وقد شرعت القناعة بالتشكّل بقوة في ذهنه، ولولا الخشية من الهجوم المفرط الذي سيجابهه من مختلف زوايا العالم، وخصوصاً من رجال الدين فيه؛ لظهر في وسائل الإعَلام من صحف ومجلات وتلفاز وإذاعة وغيرها، ليسوِّق للعالم بأسره اكتشافه الجديد الذي سيُغيُّر وجه المئات من الحقائق المسلّم بها عن الحياة في السابق.

«الجبل الأخضر، ولا سواه، هو المكان الذي نزل فيه الإنسان الأول في الحياة، آدم وحوّاء، شاء من

شاء، وأبى من أبى».

يتمنى لو أنه يطلق عبارته تلك الآن على الملأ بصوت حازم جازم، لكنه سينتظر برهة ريثما يلملمُ ما تبقى من أدلّة وبراهين. حينئذ سيكملُ كتابة ورقته التي سيُدعمها بالصور، ليخرس بها كل الألسن المشككة في كلامه.

يبتسم وهو يتذكّر ردود الأفعال الصاخبة، التي تلقاها من قِبل ثلة من العلماء حين صرّح في أحد لقاءاته العلمية الأخيرة أنه في مرحلة التحقق النهائية لتحديد عمر الإنسان الحقيقي على ظهر الأرض بعد عثوره على عدد من البراهين الدامغة. وقد سبقها بورقة علمية أخرى أكد فيها بالأدلة، التي اعتبرها قاطعة أيضاً، أن الجبل الأخضر يحوي الصخور الجيولوجية الأقدم في العالم، وليس أي مكان آخر، وأنه واحد من ضمن مرتفعات صخرية قليلة على وجه الأرض، إن لم يكن الوحيد الذي لم يطمر تحت سطح الأرض في آخر مرة غرقت فيها الأرض في الماء قبل أكثر من 100 مليون سنة.

صوت الدكتور (منصور الرواحي) عميد كلية العلوم الطبيعية والدراسات الإنسانية كان على الطرف الآخر من الهاتف، يدعوه للحضور إلى مكتبه.

يكرهُ أن يُستدعى هكذا بشكل مفاجئ، ومن دون سابق إشعار. وفي العادة لا يصاحبُ ذلك الاستدعاء اعتذار لطيف، وكأنّه أمر طبيعي ينبغي التأقلم معه.

لم يعتد على ذلك عندما كان محاضراً في جامعة السلطان قابوس بمسقط، والتي تركها بمحض إرادته رغم إلحاح المسؤولين فيها عليه بالبقاء، وتأكيدهم لهُ بمنحهِ كل ما يشاءُ من امتيازات إذا ما تراجعَ عن قرارهِ. «أنا مستعد أن أبعث برسالة للديوان عشان يمنحوك وسام تكريم وأرض سكنية وأخرى تجارية. أنت تستحق الكثير بعد ما أعليت اسم عُمان في المحافل الدولية» يقول له رئيس الجامعة. لكن ذلك كان آخر همّه، فقد عقد العزم على العودة أدراجه إلى بلدته حال أن تأكد له بأنه في حقيقة الأمر إنما نشأ وترعرعَ على سطح الأرض التي نزل عليها آدم، الذي بفضل أبنائه من بعده امتلأت البسيطة كلها بالبشر الذين انتشروا وتوزعوا في البقاع. «هل يدري العالم أن عُمان أساس نشأة البشر؟ هل يفهم جميع من على الأرض أن أصولهم عُمانية؟ الأمريكي والأوروبي والصيني والتايلندي والياباني والبرازيلي والهندي والباكستاني».

الأرجنتيني كذلك. قرأ مرة «نكتة» بأن «الساحر مارادونا» أصله عُماني. من كتبها لم يفطن بأن تلك المعلومة صحيحة. مارادونا وبيليه وشكسبير وداروِن والجاحظ ونجيب محفوظ وفرعون والمتنبي ونبوخذ نصر وجلجامش ونيوتن وباراك أوباما وترامب وخالد بن الوليد وعمر بن الخطاب كلهم ينحدرون من أصول عُمانية. كلهم خرجوا من صلب شيث العُماني. الأنبياء والرُسل، الحكّام والأمراء، المشاهير، الممثلون، كل أولئك يرجعون إلى جدهم الأكبر، شيث العُماني النزواني.

حزم حقائبه، وعاد بها إلى منطقة «الجوف»، حيث تسكن مدينة «نزوى» القابعة كبيضة الرّخ في الوسط. تلك الأرض الرحبة الممتدة التي تتوسط عُمان، والتي تشهقُ بتاريخ طويل مرصع بالأساطير والحكايات والألغاز الملهمة والمثيرة للخيال، والتي أخرجت أفواج البشر الأوائل من صلب شيث؛ هي الأرض الذي اصطفاها ربّه وميّزها عن سواها، وكان ينبغي أن تكون قبلة للناس ومزاراً لا تنقطع الأرجل عن السعي إليها والتبرُّك بترابها المقدس الطاهر، كيف لا وقد كانت وما زالت العاصمة العربية الوحيدة التي لم تسقط في أيدي الأتراك.

عقد العزم على العودة رافضاً كل تلك الإغراءات. فالأرض التي سيكون عليها أهم لديه من أي شيء آخر. أرضٌ تحوي ما لا يساويه مالٌ مهما كثر، ولا منصب مهما كبر.

قرر أن يسخِّر ما تبقى له من جهدٍ وعمر في البحث عميقاً في تلك الحقيقة الهامة التي يطاردها بشغف. حقيقة لم يشأ أن يقترب من دهاليزها السحيقة أحد، على الرغم من وضوحها التام للأعين. هي

أوضح لديه من (جبل شمس) المهيب الواقف شاهقاً كملك الملوك وسط السلاسل الجبلية الضخمة الممتدة من دون نهاية في شمال عُمان، حقيقة الحياة الأولى البائنة للعيان، الحقيقة المنقوشة بجلاء على الصخور النارية الصلدة في سيق، الحقيقة التي لم يلتفت إليها أو يُفكر في سبر أغوارها أحدٌ من قبل، فبقيت عصيّة على العقل البشري، وكتيمة الصخور الهائلة المتراصة طبقات، وهي تصعد بالجبل الأخضر حتى يلامس السحب.

أما هناك، في أسفل الجبل الأخضر، في قاعدته المتوارية عن الأعين، فقد تراكمت طبقات صخور النشأة الأولى للأرض، الأقدم على الإطلاق. وعلى سطح تلك الصخور، نزل أب البشر، وسكن، وشاخ، ومات عليها بعد أن تجاوز عمره الألف سنة.

سيصبح قريبا من تلك الدلائل التي تؤيد فرضيته، وحينئذ، سيمنحهُ استدلاله ذاك سمعةً وصيتاً أكثر بكثير مما وصل إليه؛ ليس بين أقرانه من علماء الإنسان والجيولوجيا في عُمان والجزيرة العربية فحسب؛ بل على مستوى العالم ككل. سيُمكّنه ذلك من أن يصبح أحد المتنافسين على أكبر الجوائز العلمية لاحقا. بل والظفر بواحدة منها حتماً. ولِمَ لا أكثر؟! فلو كانت جائزة نوبل تُمنح للباحثين في أصول الإنسان والجيولوجيا لأصبحت بلا شك من نصيبه في المرة القادمة.

هل أومأ برأسه نافياً أن يكون من بين العلماء مَنْ يستحق تلك الجائزة أكثر منه؟ نعم أومأ برأسه.

سيصبح العالِم الأبرز بين العرب، وستفتخر به بلده، وربما سيقرر المسؤولون فيها تكريمه بالشكل الذي يليق بعظمة إنجازه الذي لا يضاهيه فيه أحد.

يخطو بهدوء وتؤدة، حاضناً بيده اليمنى جهاز الأيباد، وهو يمر بين الممرات والمباني والمكعبات الإسمنتية بالجامعة التي ظلّت كما هي لم تتغير منذ أن تركها منهياً تعليمه المدرسي قبل أكثر من ثلاثين عاماً. تلك المباني والمكعبات المصبوغة جدرانها حديثاً بقيت كما هي -مع القليل من الترميم- محافظةً على شكلها طوال تلك السنين. فلم يشأ من قام بتحويل مدرسة «السلط» تلك إلى جامعة «نزوى للعلوم الحديثة» أن ينشئ أبنية جديدة وحديثة فيها، تمنح الناظر شعوراً بأنه يتجوّل أو يحيا وسط مباني جامعية وليست مدرسية. صار أن أبقاها كما هي، مكتفيا بتغيير اسم الغرف المكعّبة من «فصول دراسية» إلى «قاعات محاضرات» و«مختبرات» و«ورش عمل». ومن «مبنى إدارة المدرسة» إلى «مبنى إدارة الجامعة». «مقصف المدرسة» الصغير هو الوحيد الذي تحوّل إلى «مقهى» للطلبة والطالبات بعد أن توّسع، واكتظّ بالطاولات والكراسي داخل القاعة المخصصة له، وفي الباحة الخارجية التابعة له.

لا يُزعجهُ ذلك. بل كان من بين الأمور التي حفّزته على العودة إلى الجامعة. فقد ارتبط حضور تلك المباني أمامه بأجمل فترات حياته، حين كان الطالب المفضل للأساتذة، المتفوق على بقية أقرانه، المرجع لهم حين يواجهون مسألة أو معضلة في مقرراتهم الدراسية، ويعجزون عن حلّها، خصوصاً مقرري الرياضيات والفيزياء.

الطالب الوحيد الذي كان يسابقه على التفوق يومها هو منصور الرواحي، وقد صار صديقاً له فيما بعد. تلك الصداقة كانت سبباً آخر لانتقاله إلى جامعة نزوى، بعد أن سبقه منصور إليها قادماً من كلية الزراعة بجامعة السلطان، ليصبح عميداً لكلية العلوم الطبيعية والدراسات الإنسانية -أو كلية العلوم والدراسات، كما يُسميها الكل اختصاراً- ورئيسه المباشر في العمل.

يمرُّ على تلك الغُرف، فتشغفهُ الذكرى القديمة الجميلة المطرّزة بالبراءة وصفاء البال. يهتزُّ قلبهُ حين يتذكّر أيامه تلك، والتي يشعرُ بحضورها أمامه الآن بقوةٍ، وكأنه عاشها بالأمس القريب فقط. يتمنى في عمقه لو أن تعود به السنون إلى الوراء قليلاً، ليعيش تفاصيل حياته المخمليةَ تلك كما عاشها حينذاك، ولو لفترة قصيرة لا تتجاوز شهراً، بل حتى ليوم واحد، أو لساعة يتيمة لا أكثر.

تعمّد أن يمرّ، وهو في طريقه إلى المبنى الرئيسي لكلية العلوم والدراسات، على الباحة الخارجية لمقهى الطلبة والطالبات، على أمل أن يسعفه حظّه، فيلمح للمرة الثانية هذا اليوم وجه (خضراء) البديع ذا العينين الخضراوين الواسعتين. يتمنى ذلك، على الرغم من إدراكه بأن ما يقوم به ليس إلا خطأ كبيراً يقع فيه المراهقون، وأن فتاة مثلُها، في سنتها الدراسية الثانية، في سن ابنه (محمد) لا تجوز له بأي حال من الأحوال، ولا يحق له حتى مجرد النظر إليها بغير نظرة المعلم لتلميذته، أو الأب لابنته. لكنه لم يستطع كبح جماح نفسه المتعطشة لحظتها لمحاولة التأكد، ولو لمرة أخرى إضافية، بأن تحديقاتها المستمرة إليه في قاعة المحاضرات وخارجها، وابتساماتها المتكررة له، كلما التقت عيناه بعينيها؛ ليست إلا متعمّدة، وأنها لا تحمل في طياتها إلا كل ما هو ليس ببريء.

لا يمكن أن يقنع نفسه بأن نظرتها إليه بتلك الطريقة ليس من ورائها قصد، وأن الابتسامة الساحرة التي ترسمُها على وجهها، كلما رأته أمامها، هي ابتسامة طالبة لأستاذها فقط!

لم يُكذّبه أملُه. كانت تقعدُ في كراسي الباحة على يسارِ ممشاه. وحين رأته مُقبلاً على مقربة منهنّ، وكانت لحظتها تتحدث وتضحك مع زميلاتها متوسطةً طاولة امتلأت بالطالبات المتشحات بالسواد؛ توقفتْ عن الحديث كمن أُخذَ على حين غِرّة. ظلت تلاحقه بعد ذلك بنظراتها إلى أن اختفى عن مجال رؤيتها. استطاع في تلك العُجالة أن يختلسَ النظرِ إليها بطرف عينه اليسرى، فلاحظ أن عينيها الخضراوين تبدوان أكثر اتساعاً وجمالاً، وأكثر لمعاناً تحت أشعة الشمس الصباحية.

هل صهل الدم في عروقه برؤيتها؟ بالتأكيد صهل.

«يا سبحان الله، العينان الخضراوان في الوجه العُماني أجمل بكثير من ذات العينين على وجه الأوروبيات» يقولها لنفسه.

شعر لحظتها بالارتباك أكثر من أي وقت مضى، وانتفى عنده الشك تماماً من أنها لا تقصد ما تمنّى أن تقصده. لقد خرجت حركتها تلك لتؤكد له صحة ما سرى في داخله. ولم يفت عليها كذلك، وكالمعتاد، أن تصحب نظرتها المركّزة تلك ابتسامة قصيرة وردية، تخيّلها مرتسمة على وجه ملاك صغير.

لقد خشي أن تكون الطالبات بجانبها قد لاحظن ارتباكه، ونظراتها المطاردة له. لاحظ كذلك تسابق نظراتهن إليه. يرتبك أكثر. شعر بأن خضراء كانت تحكي لهن عنه ساعة ظهوره المفاجئ. أحسَّ بأنها ربما قالت لهنَّ بأنها معجبة به، أو ربما دخلت في رهان معهن بأنها قادرة على إسقاطه في شباكها.

هل سمع وقع خطواتها خلفه؟ هل لاحقته، ولم تتمكن من الوصول إليه قبل أن يدلف إلى مبنى الكلية؟ لم يكن متأكداً من ذلك. لو كان فقط يملك المقدرة على الالتفات قليلاً إلى الوراء من أجل أن يطمئن فؤاده؟!

لن يتمكن بعد الذي رآه من أن يُعزو ما يحدث إلى المصادفة البريئة. لقد أوصلت رسالتها بوضوح تام إليه. وهو - بينه وبين نفسه - لا يمكن إلا أن يُقِرَّ بقدرة الفتاة، وهي في تلك السن المبكّرة؛ على تشتيته وبعثرة أفكاره. ذلك يحدث فقط من خلال استغلالها لجزء واحد من جسدها؛ عينيها.

ليس تشكيل العينين اللوزيتين الواسعتين البديعتين فقط ما يجعلها لافتة للنظر؛ بل الأكثر لونهما الأخضر الشفاف، الذي يُظهر بوضوح تام خطوط الشبكية البنية الفاتحة حول المقل، وتلك الشرايين الدموية الدقيقة التي تغذي البؤبؤ الصغير. تخيلهما مثل ماء «فلج دارس» العظيم، تلك المياه الخضراء التي تتدفق صافيةً مثل نهر، أصفى من زرقة سماءٍ خالية من السحب في منتصف النهار. ذاك هو سلاحها الذي تدرك بلا شك مدى قوته وتأثيره في مَنْ تختاره ليصبح فريستها. لقد اختارته هو هذه المرة، وقد فهم ذلك، وتأكد منه. وحتى الذي لا تختاره، يكفي أن يلمح نظرةً منها ليسيل لعابه خلفها. يعرف هو بعضهم، ويجهل معظمهم.

ثلاثون عاماً على الأقل فارق السنّ بينه وبينها. ثلاثون عاماً مليئة بالمعرفة والبحث والقراءة

وصناعة العقل، لكنها لا تبدو كافية لمنع تلك المشاعر التي نسيها منذ زمن من الخروج من تحت الرماد، لتتدفق في دمه بقوة من جديد، ولتجره معها إلى واحدة من أكثر المناطق خطورة وصعوبة عليه الآن، مناطق لم يتوقع أنه سيزورها، أو أنها ستبزغ له من جديد بعد كل تلك السنين. مشاعر خامدة، وقد آمن بأنها قبرت إلى الأبد، أو هكذا حسبها، بينما كان جمرها ما زال متوهجاً تحت الرماد، فغير زوجته (سميرة)، وكانت يومها طالبة في الجامعة، لم يهتف قلبه لأنثى بعدها.

كيف استطاعت خضراء، رغم حداثة سِنّها، سحبه نحوها هكذا بسرعة حتى قبل أن ينقضي الشهر الثاني من الفصل الدراسي الأول؟ لا يعرف لذلك من إجابة واضحة. بالمقابل يثق بأنه ما يزال يملك القدرة على لجم نفسه عمّا هي منجرفة إليه، قبل أن تقع في المحظور، ويخسر بذلك ما ليس في الحُسبان. تذكّر أنه سبق وأن عاهد نفسه مراراً بأنه سيُسخّر وقته وجهده و«مشاعره» للعلم والمعرفة والبحث والتقصي فقط. كان يعي كذلك، من واقع تجربته الطويلة في الحياة، ومن واقع ما درسه ويدرّسه، أن تلك ليست إلا نوازع منتصف العمر، وأنه لا يزال يملك المقدرة والعزيمة على إيقاف جنون رغباته وشهواته التي شرعت تشطحُ به نحو البعيد دون إرادة منه.

مروة التي وقفت مادةً كفها لمصافحته أول ما خطت قدماه إلى مكتب العميد منصور كانت تملكُ هي الأخرى وجهاً جميلاً. قوامها المتناسق، والسهولة التي تُرسل بها ابتسامتها للواقف أمامها أكثر ما يلفتُ الناظر إليها في لحظة التعارف الأولى تلك. وجهها يشبه إلى حدٍ كبير وجه «أنجلينا جولي»، الممثلة الأمريكية الرائعة المفضلة لديه، والتي يحرص على متابعة أفلامها منذ سنين طويلة، بل ويتابع أنشطتها الإنسانية المستمرة. شفتاها الممتلئتان -شفتها السفلى ممتلئة أكثر بقليل من أختها العليا- المنفرجتان في الوسط، أكثر ما يقربّها إلى أنجلينا. لون بشرتها أغمق بمقدار حبة من ذلك الذي تملكه الممثلة.

لاحظ بأنها تملك ابتسامتها أيضاً.

- هذه هي مروة الصُمادي أخيراً بيننا، وكما أخبرتك في السابق، هي هنا لإعداد رسالة الماجستير عن جيولوجية عُمان.

يبادر الدكتور منصور معرفاً بمروة، ثم معرفاً به:

- البروفيسور سالم الكندي، وهو البروفيسور الوحيد في العالم الذي يبحث في الأنثروبولوجيا والجيولوجيا معاً، وأعتقد أنه...

تقاطعه مروة:

- البروفسور سالم غني عن التعريف، لقد قرأت له العديد من الأوراق العلمية القيّمة والثريّة بالمعلومات.

ترتعش أساريره. يسعدهُ ما يسمعه منها، يطرب له، على الرغم من أنها ليست المرة الأولى التي يُصغي فيها لمثل ذلك الإطراء، غير أنه لا يتذكر أن سبق له سماعه من فتاة جميلة ومختلفة عن كل الفتيات اللواتي زاملهنَّ في عمله من قبل. بالتأكيد لم يسمعهُ من أنجلينا!

شعرها البني الفاتح الذي يتناسق تماما مع لون عينيها العسليتين وملابسها، بل ومع لون حذائها؛ أضاف عليها سحراً وبريقا، فجعلها تبدو وكأنها ليست من بنات العرب. كل شيء في وجهها يبدو جميلاً، شفتا أنجلينا زادتاها جمالاً. لو كان لون عينيها يميل أكثر إلى الاخضرار، لأقسم بأنها شقيقة أنجلينا الصغرى.

- البروفيسور سالم هو رئيس قسم علم الأنثروبولوجيا في الجامعة، وهو بكل تأكيد الشخص المناسب للإشراف على رسالتك.

ينتشله كلام العميد من وسط أفكاره.

- هو الأنسب على الإطلاق.

تُكمل مروة ما بدأه منصور، وتضيف:

- لا يمكن لعلمين أن يتكاملا كما يتكامل علم الجيولوجيا والأنثروبولوجيا، أنا واثقة من أنني سأتعلم الكثير الكثير من البروفيسور سالم، وبإذن الله سنكتشف معاً العديد من الأمور، سأستغل كل دقيقة لكي أتعلم منه.

تبتسم وهي تنظر إليه، على الرغم من التوتر الخفيف الواضح عليها من خلال حركة جسدها ويديها.

بالنسبة إليه، هي تحاول بما تملكه من قدرة أن تبيِّن لهما أن كلامها ذاك ليس إلا وليد اللحظة، وأنها لم تُعدّ له مسبقاً. لكنه، في مجال عمله، خبِرَ مثل تلك اللحظات في العديد من المرات. يعي ما تحاول مروة إخفاءه من توتر. في العادة يكون لحضور اسمه كعالم معروف أثرٌ في نفوس الطلبة الجدد، إذ يرتبكون في البداية، ولا يعتادون عليه إلا بعد فترة من الزمن قد تطول لأشهر. في سنوات دراسته، وهو في سنِّها، كان يهتزُّ من أعلاه إلى أسفله حين يقابل من سبقوه في حقل علمه بعقود من الزمن.

لاحظ كذلك بأنها تجيد الحديث باللغة العربية بكل طلاقة وانسيابية، كما لاحظ قدرتها على انتقاء الكلمات والتعابير حتى في مثل تلك المواقف.

بالنسبة إليه، ظلّ إيمانه ثابتاً لا يتزحزح بأن الطالب الذي يستطيع أن يفعل ذلك في أول لقاء مع أُستاذه هو طالب قادر على النجاح. لقد برهنت له الأيام صدق ما آمن به، وذلك بعد أن مر عليه العشرات من الطلبة والطالبات الذين صدق حدسه فيهم منذ الوهلة الأولى. بإمكان مروة إذن أن تضمن النجاح، وأن تعود في الحال من حيث أتت، وقد وقع على ورقة نجاحها، ووضع عليها ختم الجامعة، من دون أدنى تردد أو شك.

- أنا هنا لأتأكد مما يُصرُّ البروفيسور على التأكيد عليه في كتاباته الأخيرة من أن صخور عُمان هي الأقدم في العالم؟

تضحك مرة أخرى، في إشارة إلى أن ما قالته لا يتعدى أن يكون مزحة، وأنها لا تعني تماما ما تقول.

- الصخور في الجبل الأخضر وجبل (قهوان) هي الأقدم في العالم آنسة مروة، لا يستطيع أحد إثبات عكس ذلك.

يجيبها هو أيضا، راسماً على وجهه ابتسامة شبيهة بابتسامتها، كمن يقول لها أنا أيضاً لا أعني بالضرورة ما أقول.

لاحظ أنها تملك خفّة ظلّ، وخدوداً معجونة بالدم، تتفوق فيها على أنجلينا.

خرجا معاً من مكتب العميد باتجاه غرفة مكتبها الملاصق لمكتبه. انتبه وهي تمضي إلى جانبه الأيسر أن طولها، وهي ترتدي كعباً متوسط الارتفاع، قد تجاوز كتفه. ولكونه طويل القامة بالمقارنة مع متوسط أطوال بني جنسه، حيث ينقصه نصف مسطرة ليصبح مترين من الارتفاع، فلم يعتد أن يرى فتاة في بلده بمثل طولها. وحتى الشباب، قلة من هم في طولها. زوجته (سميرة) بالكاد يصل رأسها إلى منتصف صدره حين ترتدي كعباً عالياً.

أعاده لون عينيها إلى أيام دراسته في بريطانيا، وكان اللون العسلي للعيون أكثر ما يجذبه في الأنثى. كان لا يترك فتاة تملك عيونا بذلك اللون، دون أن يقفز أمامها، ليتعرف عليها غير عابئ بردّة فعلها.

- عيونك حلوة جدا، هل هي من أبيك؟ أم أمك؟ أكاد أجزم أنها من أمك، لا يمكن لأبيك أن يكون جميلاً مثلك.

يحدث بعد ذلك واحد من أمرين: إما أن تبتسم له وتستلطفه، وبالتالي يكون على موعد غرامي معها تلك الليلة والليالي التالية، أو أن تبتسم له، وتشكره، وتخبره بأنها مرتبطة، وأنها على علاقة بشخصٍ

آخر.

أكثر ما جذب الفتيات اللواتي أعجبن به حينها هو طوله، وهو العنصر الأقوى الذي أغوى سميرة، وأسقطها في شباكه.

- لو كان فيه أحد أطول منك في الجامعة، وكان دكتور كان ما شفت عليك.

تقول له زوجته مازحة.

«تصلح أن تلعب كرة سلة»

يقول له معلم الرياضة ذات مرة حين كان في الثانوية العامة، وهو يمارس رياضة كرة القدم في نفس الساحة التي يمر عليها الآن حين كانت ملعباً. لكنه يعترف أنه ليس من هواة لعب الكرة، بل لم تستهوه الرياضة بكل أنواعها.

في داخله سعادة بوجودها معه، وقد وضع لها، منذ أن عِرف بقدومها قبل أكثر من شهرين، برنامجاً للزيارات الحقلية لتلك الصخور التي جاءت للبحث في تاريخها. ولم ينس في المقابل أن يدُسّ في وسط ذلك البرنامج ما قد يساعده، من خلالها، على التأكد من بعض الحقائق التي لا تزال تنقُصها الأدلة الإضافية، والتي لا يمكن التأكد من صحتها إلا من خلال الجيولوجيين.

مروة جيولوجية. من أصول أردنية. متفوقة كما يبدو. درست علوم الأرض في جامعة كولومبيا العريقة بنيويورك، وتخرجت فيها محققة المركز الأول في دفعتها. منحتْها الجامعة بعثة متكاملة على نفقتها لدراسة الماجستير، وسهلت حصولها على الجنسية الأمريكية، لتصبح بعد ذلك باكورة التعاون العلمي بين جامعتها وجامعة نزوى للعلوم الحديثة، والذي من ضمنه الابتعاث المتبادل بين الجامعتين لطلبة الدراسات العليا. ذلك التعاون الذي سعت إليه الجامعة الأمريكية وليس العكس!

وهو، أنثروبولوجي في الأساس، لكنه درس عدّة مواد اختيارية في علوم الأرض البحتة، وعلوم الأرض الفيزيائية.

عند الآخرين، هو يقضي حياةً مملةً ليس لها معنى، يبحث في علم قُتل بحثاً وبلا نتيجة، فلا هو ولا من قبله من العلماء - وهم بالمئات - استطاعوا أن يصلوا إلى حقيقة أصل الإنسان؛ متى خُلق؟ وأين؟ وهل قبل أم بعد عصر الديناصورات؟ وهل قبل انبثاق سطح الأرض من باطن البحر أم بعده؟ وهل حدث ذلك قبل أكثر من 800 مليون سنة؟ أم قبل 8 ملايين سنة فقط؟ فكيف سيفرق هو عنهم؟

بالنسبة إليه، فإن العلماء الذي يحيطون دراية بتلك العلاقة الحتمية بين العلمين، يجهلون في المقابل ما يمكن لهم أن يشاهدوه حاضراً مرئياً وملتصقاً بصخور الجبل الأخضر الذي يرتفع عن البحر بأكثر من ألفي متر، وقد علقت على سطح صخوره المتصلبة بقايا أسماك وقوقعيات بحرية، وفي إحدى كهوفه التي يصعب الوصول إليها، تناثرتْ رفاتٌ بشرية، جمجمة وأضلاع وعظام سيقان طويلة يصل طولها إلى ستين ذراعاً، تماماً كما قرأ عن طول إنسان الحياة الأول؛ آدم وإدريس ونوح وهود وصالح ولوط وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق.

تلك البقايا والآثار، تلك الدلائل والبراهين القاطعة، لا يعرف عنها أحدٌ سواه. وغيره لن يتمكن من الوصول إليها، ولن يُمكِّن هو أحداً من الوصول إلى ما اكتشفه صدفةً حين كان في زيارة للجبل ذات مرة. لن يفشي السرّ الذي عرفه شخصٌ واحد قبله إلا لمَنْ يثق بأنه سيسانده، ويقف معه حين يجهر به.

لن يسمح إلا للصفّوة من القوم أن يطّلعوا على أحدث اكتشافاته العلمية، وسوف تكون مروة من بينهم على الأرجح، رغم أنه يجزم بما لا يقبل الشك أن مجيئها إلى نزوى ليس مصادفة، وأن مقترح البحث العلمي الذي بعثت به إليه، هو الآخر لم يُصَغْ إلا من قبل علماء ضالعين في علوم الجيولوجيا والأنثروبولوجيا في جامعتها. لكنها «فرصة وجات لحد عنده»، «فرصة ما تتفوّت». سيطلعها على

تلك الأسرار ليتسنى له رؤية تأثير الصدمة، ليس فيها فحسب، فهي مجرد أداة، بل في من بعثها إليه، حين يُذهلون من صحة ومصداقية ما «يدّعيه» ذلك البروفيسور العُماني «المجنون، فاقد البوصلة»؛ من اكتشافات ليس من السهل التصديق بها.

واثق هو أن مجيء مروة إلى نزوى ليس إلا مخططاً يخبئ وراءه الكثير من النوايا المبيّت لها، وإلا فكيف لواحدة من أرقى الجامعات وأعرقها في العالم أن تسعى من تلقاء نفسها إلى مدّ جسور التعاون العلمي مع جامعة لا يدل أي شيء فيها، عدا اسمها، أنها جامعة! كيف لجامعة كولومبيا الهائلة، التي يحلم أكثر الطلبة تفوقاً في العالم بارتيادها، أن تغامر وتربط اسمها الشهير -وقد اشتهرت على مدى عقود من الزمن بجودة التعليم فيها وقوة مخرجاتها العلمية- مع مؤسسة تعليمية لا تزال في طور التعّلم بأن تكون كلية أولاً قبل أن يصبح من حقها أن تصنف نفسها كجامعة!

لقد أُرسلت إليه هو، لا إلى الجامعة. يثق بأنه لو كان ما يزال في جامعة السلطان لما التفتت الجامعة الأمريكية إلى نزوى، ولا إلى أي جامعة أخرى مهما وصلت سمعتها. إن الأمر برمّته يتعلق به هو، البروفيسور سالم الكندي. يتعلق بما يكتبهُ، وما فتئ يُصرِّح به من أقوال بين الفينة والأخرى، والتي تثير الحنق والغيض والامتعاض عند الكثير من متابعيه والمهتمين بفكره.

منصور الرواحي الذي درس الماجستير والدكتوراه في الاقتصاد الزراعي في أمريكا، والذي استوعب أكثر منه ثقافة الأمريكان وكيف يفكرون؛ أكد له بأن لأبناء العم سام غاية وهدفا من وراء ذلك التعاون. لكنه شدد عليه كمن يُحذّره «انتبه جيدا بروفيسور» فهم لن يحصلوا منا على ما يشفي غليلهم طالما «بقينا حذرين ومنتبهين وفاتحين عيوننا عشر عشر على نواياهم».

متأكد من وجود نوايا وخبايا وراء مجيء مروة إلى نزوى، بل ويعلم أن جامعته لم ولن يكون لها خيار عدا أن يكون هو ولا سواه من يشرف على رسالتها. لقد صيغ مقترح بحثها ليقول له «نريدك أن تثبت صحة ما تتشدق به» و«أننا مجموعة العلماء في جامعة كولومبيا، وربما في أمريكا ككل، سنثبت أن ما ذهب إليه ذلك البروفيسور القادم من الصحراء ما هو إلا هراء في هراء، وأن الجبال في عُمان ليست سوى واحدة من جبال قديمة شكّلت سطح الأرض في ذات الوقت الذي انبثقت منه الصخور من باطن البحر في كافة أنحاء العالم».

هو واثق بأنه حتى في حال تأكد لهم صحة ما يقولهُ وما يكتبهُ؛ فسيُكذِّبونه في كل الأحوال، وبكلِ الطرقِ الممكنة والمتاحة. سيحدث ذلك عَلَنا أمام الملأ. ستشّن عليه حروبٌ هائلة. ولكن في الخفاء، في السرّ، فلا ريب من أن بعثات الاستطلاع والاستكشاف لن تتوقف بعد ذلك عن زيارة عُمان. سيسعون بكل ما أوتوا من قوة وبأس، وسيبذلون الغالي والنفيس لطمس تلك الحقائق والبراهين مهما كانت أهميتها العلمية. سيستمرون في محاولاتهم اليائسة لإقناع العالم بأن صخور بلدانهم هي الأقدم جيولوجياً في العالم. تلك الصخور التي يدرك العالم كله بأن عمرها الحقيقي مائة ألف عام لا أكثر.

«يجب ألا تتهاونوا في تسجيل تاريخكم مهما كان حجم ذلك التاريخ» يعيد لطلبته دائماً، ويضيف «ستأتي أيام يطالبكم فيها الآخرون بالتنازل عن ممتلكاتكم التاريخية لأنهم سبقوكم إلى تسجيلها ضمن تاريخهم».

قال وهو يضربُ لهم المثل: «هناك دول بجوار عُمان تشتغل على تتبع الصخور النابت رأسها في بحارهم والممتدة أميالا أسفل المحيط. ذلك الامتداد الذي يسمّى بالجرف القاري قد يصل إلى بحارنا هنا. تلك الدول ستُسجِّل في تاريخها أن صخور القاع تلك هي اللسان الممتد من صخورها الأم، هو جرفها القاري الطبيعي، وبالتالي ستطالب بحقّها في الوصول إلى الخيرات الدفينة التي تزخر بها تلك الصخور وما حولها من كائنات، حتى وإن لامس ذلك الامتداد صخور ميناء مطرح».

قال: «حينئذ لن ينفعكم العويل ولا النحيب».

لم ينتبه أولئك «الغربيون» إلى ما كتبه وقاله في السابق على الرغم من كثرة ما نَشر له من أوراق وأقوال. لم يتفطّنوا له إلا قبل عهدٍ قريب. كان يشتغل على مخططه بهدوء وبدون ضجة إلى أن نشر ورقته الأخيرة عن إمكان احتواء صخور الجبل الأخضر المندسّة في لُبّ قاعدته النارية على كرستالة (الزيركون) التي يتجاوز عمرها عمر تلك الصخور الشبيهة في جبال «جاك هيلز» بغرب أستراليا. أثارت تلك الورقة حفيظة واستياء عددٍ كبيرٍ من علماء الجيولوجيا، فهاجموه حينها بكل الوسائل الممكنة، وسخر منه بعضهم الآخر ناعتين إياه بالواهم تارة، وبالمجنون تارة أخرى. بعدها ظلوا ملتفتين إليه، ومتابعين لكتاباته باهتمام وحقد.

«أنت مجنون وتبحث عن مشاكل أكبر منك».

«هل تعتقد أن ما تكتبه تقرأه على زوجتك وأولادك وأنت في البيت؟ نحن لسنا في حقل للتسلية».

«أعتقد أنك فقدت البوصلة وأصاب عقلك العطب».

هطلت عليه ردود أفعال كثيرة مُبطّنة بالتهديد والوعيد، لكنه لم يأبه بها.

إما ذاك، أو أنها جاءت لتبحث في الخفاء عن الأماكن الحقيقة لتكدّس صخور «البيريدوتيت» التي اكتشفها بكثرة في بطون جبال عُمان المتوزعة في الشمال والجنوب، والقادرة على امتصاص الاحتباس الحراري، وإنقاذ العالم من الهلاك الذي يتسارع يوماً بعد يوم باتجاه الأرض، ورتق فتحة الأوزون، وإعادة حياة الغابات المطيرة إلى طبيعتها التي كانت، وتقليل ذوبان مياه الجليد في القطب الشمالي من الأرض، ومنع غرق اليابسة. وقد تكون جاءت للبحث عن كل ذلك، وربما أكثر من ذلك.

لكنهم بكل تأكيد تقصّدوا الوصول إليه، والاقتراب من عوالمه أكثر فأكثر، من أجل الوقوف عن قرب على عقليته؛ كيف يُفكّر، وكيف يعمل، وما هو بالضبط الذي يسعى إلى تحقيقه، ومن ثم تبيان حقيقة ما يروِّج له من «إشاعات» علمية لا يقصد منها ذلك «العُماني المهبول» سوى «الشهرة الرخيصة المؤقتة» كما كتب عنه أحدهم ذات مرة، وصفق له الكثير من المطبلين، وبعدها طالبوا بسحب لقب الأستاذية وشهادة الدكتوراه منه.

يثق في حدسه الذي يؤكد له بأن مروة في نزوى لغرض آخر أكبر من مجرد إنجاز بحث علمي تنال به درجة الماجستير. لكنه يثق كذلك في نفسه وعلمه الذي مكث يبنيه طوال كل تلك السنين، طبقة فوق طبقة، تماماً كما بنى الله جبل شمس طبقة إثر طبقة خلال ملايين السنين التي مرت.

لذا قَبِل هو بالتحدي بكل فرحٍ وسرور، مصمماً على أن يقلب على مخططاتهم الطاولة، وأن يخرج من المعركة منتصراً، وبصخبٍ عالٍ يسمعه القاصي والداني، ويتردد صداه في الكون بأسره. لن يهزموه وقد جاؤوا بأقدامهم إلى حيث أرضه، وحيث مكمن قوته وشدة بأسه. لن يدعهم يصلون إلى ما يصبون إليه ويتمنونه. سيكون قادراً على أن يعيد تشكيل قناعات هذه الفتاة الصغيرة التي تمضي بجانبه فتصبح أداة له ضدهم لا العكس. سيعرف كيف يستغل وجودها معه في إثبات نظرياته واكتشافاته، «وسيجيب عاليها واطيها» على رؤوس المتربصين به والمشككين في قدراته.

يبتسم في سره، وهو يتخيّل منظر وجوه أولئك العلماء، الذين طالما احتقروا نظراءهم القادمين من بلدان العرب؛ وتحديدا من بلدان الصحراء التي يجزمون أن أهلها إنما ينامون فوق كثبان رملية لا منتهية الامتداد، تسبحُ تحتها بحار شاسعة من البترول؛ وذلك حين يفاجئهم باكتشافه الجديد عن أصل الإنسان الأول، وهم أثناء ذلك ما زالوا منشغلين بالتحقق من صحة حديثه السابق عن حقيقة قِدم الصخور في عُمان، بينما يكون قد تجاوزهم بمراحل بعيدة، وسبقهم إلى أمورٍ أخرى أشد تعقيداً.

يبتسم لنفسه، وهو يتخيّل وقع اكتشافه الجديد عليهم، وكيف أن ذاك سينزلُ عليهم كالضربة القاصمة التي لم يكونوا يتوقعونها.

سوف يستغل وجودها معه بكل ما أوتي من خبث ودهاء. سيستغل الدم العربي الذي يجري في

عروقها لكي تناصره في اكتشافاته. هي وليس هو من سوف يؤكد لأعدائه في أمريكا وغيرها من دول بأن ذلك البروفيسور العربي «الأشعث» هو الذي على حق وليس أنتم، وأنكم في الواقع، أحببتم ذلك أم كرهتموه؛ تقلون عنه درجة في العلم والمعرفة والذكاء.

سيبرهن لهم، وللعالم أجمع، أن الأستاذ سالم الكندي، الذي عانى الأمرّين في حياته وهو صغير، تعذب وسُجن والده في القلعة أكثر من عقدين من الزمن، حتى برحته روحه، هو أيقونة علم الأنثروبولوجيا، كما هو كذلك أيقونة علم الصخور.

لقد نجح الجيولوجيون في تقدير عمر الأرض، لكنهم لم يتمكّنوا من تحديد أماكن الصخور التي نزل عليها الإنسان الأول. كما أن علماء الأنثروبولوجيا أنفسهم عجزوا عن تقدير عمر البشر ومناطق التجمع الأول لهم على سطح البسيطة، وسيعجزون لا محالة عن المجيء بالدلائل والبراهين المناسبة لتكذيب اكتشافه الجديد. يثق تمام اليقين بما يقوم به، وما هو مقدم عليه من مغامرات علمية سيكون لها وقعٌ مدوٍّ في الكون.

يعرف ثغرات العلم الذي أشبعه بحثاً، واستنبط من أين تؤكل الكتف فيه. في علمه يستطيع عمل الكثير، ما يمكن أن يصدقوه، وما يمكن أن يثير موجات الاستهجان والغضب ضده. فهُمْ، وفقاً لاعتقاده، لا يؤمنون بأي وجود للبشر قبل أن يُرسم سطح الأرض بشكله الحالي بعد توقف الحركات التكتونية للقشرة الأرضية، وانغماس أجزاءٍ من البسيطة إلى جوف البحر، ثم خروجها ثانية. هو بالمقابل يؤمن بما لا يؤمنون به. ولديه شعور من أن إيمانهم ذلك سيتغير لا محالة إذا ما تأكدت له صحة اكتشافاته الأخيرة التي تشير إلى أن بعض صخور الأرض لم تنغمس حينها في الماء، كما يجزم علماء الجيولوجيا؛ بل بقيت على السطح. ولو أسعفهُ الوقت، فسوف يسعى بكل ما يملك من جهد وعرق كي يثبت أن البشر حينها كانوا موجودين، وأن بعضهم وجد نفسه بعد حدوث الهزات المتتالية على الأرض وانغماس أجزاء منها في قاع المحيطات، وحيداً في بيئته، فاضطر إلى التزاوج من القرود بالذات، ولذا تشكلت أشكال البشر، وتنوعت ألوانهم بعد ذلك.

الصخور في الجبل الأخضر وجبل شمس تحوي الأدلة اللازمة التي تبرهن على وجود حياة للبشر، ربما قبل أن تنغمس صخور الجبال، وتظهر من جديد بذلك الارتفاع الهائل. هو واثق من أن ما رآه عالقاً بتلك الصخور ليس سوى بقايا لكائنات حية من بينها الإنسان. لديه ما يبرهن بأن الأرض التي يحيا عليها تحوي في طياتها النارية والرسوبية على حدٍ سواء حقائق جديدة ومذهلة عن حياة الإنسان. لكن الأهم من ذلك أن تلك العظام، الموجودة في الكهف، والتي حفظها خالق آدم من العبث والضياع؛ هي لأبي البشر ولا أحد سواه.

واثق أيضاً أن الجبل الأخضر ما كان في مكانه الحالي حين نزل عليه آدم، بل فوق هضاب أفريقيا، وتحديداً، فوق أراضي كينيا وزنجبار، ثم تزحزحت الكتلة الأرضية العربية لتبتعد عن أفريقيا. كتب ذات مرة وتردد في النشر أن «علاقة آدم الذي في الجبل بعودة العُمانيين إلى أفريقيا في وقت لاحق من تاريخ الإنسانية لم يحدث مصادفة، فثمة أمر مرتبط بالجينات. عودة العُمانيين إلى ساحل أفريقيا كان خلفها محركٌ جيني».

وكتب مرة أخرى دون أن ينشر كذلك «إلى اليوم لم يفكر علماء الإنسان أن يستفيدوا من علماء الأرض لمساعدتهم في الإجابة على سؤالهم الأزلي عن تاريخ وجود الإنسان على كوكب الأرض والعكس صحيح، ولن يتمكن الجيولوجيون بالمقابل من الإجابة على ذلك السؤال أيضاً. لكن ما رأيته من حوافر بشرية في صخور الجبل الأخضر، وهي تندس بين صخورٍ (الأوفيوليت) النارية المنبثقة أصلا من ماجما الأرض الحارقة، ثم سكنت قاع المحيطات، قبل أن تشقَّ طريقها لتُغطّي جبال الحجر الشرقي الواسعة والمنتشرة على طول عُمان وعرضها، على نحو يشكل ظاهرة فريدة من نوعها لا

تتكرر؛ يدّل على وجود للحياة البشرية قبل غرق الأرض. يصعب الاعتقاد بغير ذلك، ويصعب ردّ مثل تلك المشاهدات لغير تلك الحقيقة؛ تاريخ البشرية على الأرض أقدم مما يقال».

وفي فقرة أخرى كتب «في الجبل الأخضر، انبثقت الصهارة من باطن الأرض إلى سطحه حاملة معها بقايا حوافر عديدة، من بينها بقايا للإنسان الذي سكع حياً وخرج ميتاً بعد مرور ملايين السنين. تلك البقايا لم تذب، ولم تنصهر بفعل الحرارة العالية، وكأن الله قدّر أن يحفظها لتقع بين يديه. كان الإنسان موجوداً على ظهر الأرض قبل 1000 مليون سنة من الآن، وربما أكثر، وليس 8 ملايين سنة كما أقنع علماء الإنسان أنفسهم به، بعد أن أصابهم اليأس والضجر وهم يبحثون عن بداية الحبل الذي سيقودهم إلى أُفق جديد ظلوا يجهلونه».

«للأسف، لم يتمكن العلماء من الخروج من الصندوق الذي تقوقعوا داخله طيلة العقود الماضية، ولم يستطيعوا بالتالي التفكير خارج ما آمن به مَنْ قبلهم».

وعلى الرغم من أن تلك الصخور التي يتحدث عنها ما هي إلا صخور نارية كانت في الأساس صهارة عالية السيلان في باطن الأرض الملتهب، إلا أنه يجزم بأن بقايا عظام الإنسان التي علقت بين طياتها تعود إلى ذرية آدم الأولى.

لكنه لا يزال يحتاج إلى مزيدٍ من الأدلة لبرهنة ما يقول، وقد تردد كثيراً في إرسال عينات من تلك العظام إلى المختبرات المتخصصة في بريطانيا، خشية أن يُكذّبوا تلك القناعات، أو أن يقولوا له بكل بساطة بأنه واهم، وأنها ليست عظاماً لإنسان، أو أنها ليست عظاماً في الأساس.

أجل، يمكنه اللعب في العديد من جوانب علمه الذي تغيب عنه الكثير من الحقائق المؤرخة، فما كان هناك من يكتب ويدوّن حين خُلق آدم، وهل كانت هناك من كتابة في الأساس حينها؟ حتى أن تاريخ حادثة سفينة نوح الشهيرة غير معروف. لم تدوّن تلك الحكاية كحادثة بقدر ما ذكرت كقصة، بل حكاية، ضمن الكتب السماوية المتتالية.

قناعته التي تشكلت مؤخراً بأن آدم نزل على صخور الجبل الأخضر بعد رؤيته لبقايا العظام تلك، والتي لا تحتمل الشك، جعلته يتراجع عن الخوض في تاريخ وجود البشر على الأرض في الوقت الحالي والتركيز على مسألة نزول آدم وزوجته من الجنة. الجبل الأخضر هو سكن أول البشر، أبي البشر.

للتو أوصلها إلى مكتبها، ليجدها بعد ذلك بدقائق معدودات واقفة على عتبة باب مكتبه تستأذنه بالدخول.

حين خرج من مكتب الدكتور منصور وهي بجواره، تعمّد مرة أخرى، لسببٍ يدركه هو -ويكره أن يذكره لنفسه- أن يسلك في طريق عودته ذات الممر الذي عبره وهو في طريقه إلى مكتب العميد. متخيرا المرور على نفس الباحة التي سكنتها خضراء قبل قليل، ربما ليغيظها، أو لأجل أن يلمح نظرة الغيرة في عينيها، والزعل وهو يرتسم على صفحة وجهها الرّيان، أو رغبته في أن يؤكد لها أنه، علاوة عليها، لديه معجبات أخريات، وجميلات، ولذا فالأحرى بها أن تُسرع بالاعتراف لهُ بإعجابها به كي تستبقهن. لكن خضراء كانت قد غادرت مكانها، فلم يتحقق له ما تمناه.

لو تبرعت خضراء بعينيها لمروة لغدت أنجلينا جولي «بحق وحقيق». لكن عينا خضراء أوسع بكثير.

اهتمامه بخضراء وما يمكن أن يعتري خافقها من غيرة عليه، وهي تلمح مروة بجواره؛ أمرٌ جديدٌ لم يألفه من قبل. فمثل تلك الأحاسيس غابت عنه منذ أكثر من عقدين من الزمن، بالتحديد منذ زواجه. لم تزره منذها. تلك الأحاسيس يشعر بها الآن تعود إليه فجأة من دون سابق تمهيد. يبتسم لنفسه ساخراً من مشاعر «المراهقة» تلك.

«يا لك من مراهق معتوه»، «بعد هذا العمر، وبعد أن شاب شعر رأسك!»

جلست على الكرسي الجانبي للطاولة، وقد ملأت وجهها بابتسامة عريضة، لتسأله:

- بروفيسور، أتمنى منك أن تأخذني إلى سوق نزوى القديم. نفسي يكون أول شيء أزوره في نزوى.

اعترته الحيرة لحظتها، ولم يدرِ بماذا يجيبها. لم يعتد على مرافقة امرأة من قبل غير زوجته إلى أي مكان. وحتى زوجته لم يتجرأ في السابق على مرافقتها إلى سوق نزوى، ستأكله الأعين والألسن، فكيف هو الحال مع فتاة صغيرة يانعة. لقد شاء له القدر أن ينحدِر من قبيلة محافظة، بل متزمتة حين يأتي الذِكرُ على النساء ومدى الحُرية التي يتمتعن بها أمام الرجال ومعهم، فكيف يكون معها لوحدهما؟ ما الذي سيقال عنه حين يراهما كبار السن وهو ابن الشيخ سعيد الكندي الذي يعرف عن سيرته القاصي والداني، الجن قبل الإنس!

لم يرافق حتى أمه إلى تلك الأماكن المفتوحة، أو بالأصح إلى الأسواق الشعبية التي تكتظ عادةً بالباعة والمشترين العُمانيين، وحين يخرج مع زوجته غالباً ما يتوجه بها إلى مراكز التسوق الكبيرة المنتشرة في مدينة مسقط بالذات، هناك يذوب وسط أكوام البشر فلا ينتبه إليه أحد.

لا ريب بأنهم سيتكلمون عنه حين يرونها بجواره، وسينعتونه بجملة من الصفات عن سوء تصرفه، وقلة احترامه لآداب المجتمع المحافظ، وضربه بعرض الحائط الأعراف والتقاليد المتبعة والمتوارثة أباً عن جد، وانزلاقه ناحية عصيان الخالق في خلوته «غير الشرعية» بامرأة أجنبية، وهو العالِم الشهير، يعرِف أكثر من غيره بأنها «هي، المرأة، سبب خروج آدم من الجنة، هي من وسوست لآدم أن يقطف من التفاحة المحرمة»، ويعرِفُ أن المرأة كانت، وما زالت، وراء الكثير من المشاكل التي ألمت بالبشر خلال تاريخهم الطويل، فأدخلتهم في حروب طويلة، ودمّرت حياتهم، وفرقت بين الأخ وأخيه، والابن وأبيه.

سينعتهُ بعضهم بأكثر من ذلك. لكنه لا يملك من خيار سوى الموافقة على رغبتها، فقد تملّكه شعور لحظتها بأنه في حاجة إلى أن يتعرف عليها جيداً في أقصر فترة ممكنة، خصوصاً بعد أن صدمته بساطتها وتلقائيتها، رغم جمالها الذي لا تخطئهُ عين. سيقدّم لها خدمة من أجل أن تُقدِّم له لاحقاً، في المقابل، العديد من الخدمات. عليه أن يتجاهل ما قد يُسفرَ عنه رؤيتهما معاً في السوق القديم من قيل وقال. سيغضُّ الطرف عن كل ذلك وسيرافقها مبتسماً. هي فرصة له أيضاً لزيارة السوق، بعد أن

انقطعت خطوات قدميه عنه لفترة طويلة.

***

ذكريات عديدة يضمها له السوق بين مداخله ومخارجه وسككه ومصاطبه وجدرانه. بعضها حلو زلال، وبعضها مرّ كالعلقم. في صباحات الأعياد كان ينطلق مزهواً بملابسه الجديدة ليشاهد ويستمتع بالألعاب والحلويات من هبطة «العيّود». وقبلها بليال يأخذه أبوه لينتقي له عصاً ومحزماً موشّى بالفضة. يفرح، يزهو بنفسه مثل ديك. تلك كانت ذكرياته الحلوة، وقد نسيها تماماً.

لكنه لا يمكن أن ينسى ذكرياته السوداء، بعد أن علّم بعضها على مناطق في جسده، وظلّت محفورة فيه حتى اليوم.

ضربه أبوه بقوة حين تجرأ على الأعراف والقيم، فخلع عن رأسه الكمّة ذات نهار، قدّام مجموعة المشايخ والرشداء والأعيان المقرفصة بعصيها ومحازمها وخناجرها اللاصفة في سبلة الرجال، وفي مرة أخرى علّمت «الخيزرانة» خطوطاً دامية على ظهره لمجرد أن أسقط فنجان القهوة من يده وهو «يُغنّم»[1] على الرجال وسط السوق.

لكن السوق «القديم» ذاك لم يعد قديماً في نظره، فلم يتبقَ ما يدُّل على قِدمه وعراقته سوى اسمه، ووجوه القليل من كبار السنّ الذين تجاوزوا العقد السابع من عمرهم، والهبطة التي تسبق الأعياد. اختفى العيّود، ووجوه الأطفال الفرحة، وأصوات الألعاب والحلويات. لكنه حدث وأن حضر هبطة العيود المشابهة في مسقط القديمة حين كان على أبيه المشاركة في الصلاة هناك ذات عيد، وتذكّر للتو أنه لعب «القمار» وهو صغير. يذكر أنه خسر صباحها 500 بيسة كان أبوه قد أعطاه إياها «عيدية». أغرته لعبة شعرة الساعة التي لم تتوقف في المرات الخمس على الأرقام التي اختارها. لو عرف أبوه يومها! لكن الله ستر. لقد جرّب حظه «العاثر» مرة أخرى حينما كان في بريطانيا على لعبة الروليت المشابهة للعبة الساعة، لكنه خسر في تلك الليلة 500 جنيه بدلاً من 500 بيسة.

تخيّر أن يسلك بسيارته اللاندكروزر البيضاء الطريق الفرعي البطيء الذي يمر ببلدة (بركة الموز) بدلاً من الشارع السريع. إحساسه بالحرج من الموقف لا يزال يصاحبه منذ أن اعتلتْ السيارة لتركب في المقعد الذي بجانبه، مقعد زوجته في العادة. وكان قد توقع منها أن تستأذنه بالصعود على المقعد الخلفي تفادياً للإحراج. لكن الأمر خرج من بين يديه، ومن في مثله، من هو في مرتبته العلمية لا ينبغي عليه أن يلتفت لمثل تلك الصغائر. عليه أن يترفّع عمّا يحسبهُ الآخرون من «الجهلاء» و«المتخلفين» عيبا وعارا.

انتبه فجأة إلى أنه ارتكب خطأً حين لم يهبَّ لفتح الباب لضيفته، وقد سبق وأن فعلها مراراً مع زوجته خصوصاً في بداية علاقتهما. لو أنه تذكّر ذلك لسبقها، وتعمّد فتح الباب الخلفي لها، ليضعها حينها أمام الأمر الواقع. لكن ذلك سيكون لا محالة تصرفاً سخيفاً لبروفيسور مشهور يعرفه القاصي والداني، البروفيسور الذي تجاوز عقده الخامس قبل أسابيع.

لكن الأمر لم يكن سهلاً كما تخيّله. ثمة خوفٌ ما غير مبرّر تلبّسه من أن يراهما أحدٌ من أقاربه أو معارفه وهو يقود بها السيارة. وفي الحال تذكّر سميرة. تساءل: كيف لها أن تستقبل الأمر لو أنها رأته في وضعيته تلك؟ هل ستتفهمه؟ ربما دخلت معه بعدها في حوار طويل، وأسئلة مكثفة، قبل أن يستطيع الاستلقاء على سريره، والنوم بسلام، تماماً مثلما ظلت تفعل بعد زواجهما مباشرة، ولأكثر من سنتين بعد ذلك. كانت نوبات القلق لا تفتأ تداهمها كلما باغتها الإحساس بأن زوجها قد يتعلق مرة أخرى بإحدى طالباته مثلما تعلق بها.

عبرت سيارته فوق إسفلت الشارع المملوء بالحفر المتوزّعة هنا وهناك على طول الشارع. أحس حينها بالحرج، وشعر بأنه من اللباقة بمكان أن يوضح لها ما تشاهده. قال مشيراً بيده إلى الشارع

أمامهما:

- هذا شارع فرعي قديم، وليس الشارع الرئيسي، لكنه يختصر الطريق، ويمر بجانب مدخل الجبل الأخضر الذي سنزوره في وقت لاحق من برنامجك.

قالت كمن يُجامل:

- أنا أكره الشوارع السريعة. أُفضِّل دائماً الشوارع التي تمر على القرى والبشر والحيوانات. أحب «الكنتري سايد»؛ أقصد القرى والريف.

بعدها مدت أصابع يدها اليسرى، وأدارت مذياع السيارة قبل أن تقول:

- نادراً ما سمعت لمطرب أو مطربة عُمانية، هل عندكم مطربين ومطربات مشهورين؟

أحس بحرج شديد. هو لم يعد يستمع إلى الموسيقى كثيراً. في فترة ما من حياته كان شغوفاً بها إلى درجة أنه لا يُمكن لأحد ممن يعرفه الآن أن يُصدّق أو يتخيّل مدى ولع «البروفيسور سالم» السابق بالموسيقى.

بعد زواجه، أو بالأدق بعد إنجابه لمحمد، قرر مقاطعتها، ولا يذكر أنه رجع لسماعها منذ ذلك الحين، على الأقل ليس بالشغف الذي كان عليه.

بالتأكيد لا يعرف أسماء المطربين العُمانيين الجدد الآن بعد انقضاء كل تلك الفترة، ولا حتى غير العُمانيين. كل ما يعلقُ بذاكرته الآن هو تلك الأسماء القديمة التي تربّى على سماعها منذ نعومة أظافره؛ أم كلثوم وعبدالحليم وأبو بكر وطلال ومحمد عبده وفيروز.

يذكرُ اسماً آخراً ظل يستمع إليه لفترة وهو في المرحلة الإعدادية من دراسته؛ فهد بلّان. أعجبه فهد بلّان ولونه الجبلي الفريد، «هذا صح رجّال، ما يتنغنغ[2] لمّا يغني» تقول له أمه يومها، وتكمل «صوت رجّال صح».

في كل عيد وطني يرفع سماعة الهاتف ليتصل بالإذاعة «أطلب أغنية فهد بلان، حنّا للسيف، حنّا للضيف، وأهديها لحضرة صاحب الجلالة، ولوالدي سعيد الكندي، ولأمي ولأخوتي وأخواتي، وكل أهلي، خصوصا جدي وجدتي في جبل شمس». كانت أمه تُجبره في أكثر من عيد على الاتصال وطلب تلك الأغنية تحديداً. قالت أبوك لو سمعك بيرتاح في حبسه.

لكن فهد بلّان وأم كلثوم وأبو بكر وغيرهم ليسوا عُمانيين.

- لا أعرف المطربين والمطربات العُمانيين أعتذر منك، لا أستمع كثيراً للموسيقى.

تفتح عينيها باندهاش، وهي تعقّب على ما سمعته منه للتو:

- كيف يا بروفيسور لا تسمع الموسيقى وأنت تُدِّرس الأنثروبولوجيا، أنت من يجب أن يقول لي من هو أول إنسان غنّى أو عزف على آلة موسيقية في عُمان وحتى في العالم كله؟

ثم تضحك لتوحي إليه مرة أخرى بأنها إنما تمزح. تُكمل بعد أن تُعدِّل من طبقة صوتها لتبدو أكثر جدية:

- أعتقد فعلاً أن الموسيقى غذاءٌ للروح، لا أنقلُ هذا الكلام عن آخرين بل من واقع تجربتي الشخصية. أنا أحسّ بالموسيقى جداً، تؤثر فيّ. ما يُقال صحيح؛ عندما تتشبع الروح بالموسيقى تصبح قادرة على تغذية العقل بشكل أكبر وإلهامه بالأفكار العظيمة. الموسيقى مهمة للروح مثلما هو الماء للجسد والعقل، فلو توقّف الشخص عن شرب الماء يموت عقله قبل جسده. أفلاطون يقول إن حب الطبيعة مشابه لحب الموسيقى، فكيف تبحث في الطبيعة دون أن تسمع موسيقى يا بروفيسور؟!

شعر بأنه وسط حوار جديد عليه. لا يدري بماذا يجيب عليها، وهو الذي لم يعتد على الأخذ والعطاء مع شخصٍ غريبٍ عليه في المسائل الشخصية بسرعة وقبل أن يعرفه حقّ المعرفة، أو قبل أن يشعر

معه بشيء من الطمأنينة التي تمنحه راحة في الحديث.

ظنّ أن تلميذته النجيبة إنما ترغب في كسر الموانع بينهما بسرعة، والتعرف على المناطق المفضّلة لدى أستاذها للحديث؛ خصوصاً وأنها ستتعامل معه لتسعة أشهر قادمة. هو أيضاً يرغبُ في أن تنكسر تلك الجدران سريعاً، ومرة واحدة. لكنه يشعر بوجود حاجز ما زال عصياً على التحطم؛ حاجز من قلق صغير لكنه غريب، يسكنه.

تبدو له الفتاة عفوية، ليست بمثل الصورة التي رسمها لها في ذهنه. تبدو مرحةً ومنطلقة بلا قيود وعُقد. ربما لم يعتد على ذلك بعد أن ظلّ لفترة طويلة محاطاً بعمله وعلمه وعدد محدود من الأصدقاء المقربين الذين قليلاً ما يلتقيهم عدا في المناسبات التي تفرضُ نفسها عليه، خصوصاً أيام الأعياد والتعازي.

تمنى ساعتها أن يخرج من قوقعته المعتادة، ويطرد ما يعتريه من قلق، وينطلق في الحديث معها بأريحية ويُسر، وأن يبدو خفيف الظلّ مثلها.

لقد أعدّ ذهنه قبيل وصولها لأن يكون منفتحاً على كل ما تأتي به من مواضيع وقضايا، بغض النظر عن وجهة نظره حيالها. وعد نفسه بالمشي معها أينما تشاء في ممرات الحديث، وأن يكون قريباً منها ومتفهماً لها خصوصاً وأنه يثق بأن تفكيرها يمثل تفكير جيلٍ مختلف عنه في المفاهيم والاهتمامات. في واقع الأمر هي وحدها تمثل ثقافة فريدة لا ينبغي أن يفوّت الفرصة للنهل منها قدر المستطاع، مزيجاً هي مما تربّت عليه في الأردن من معتقدات، مع ما تعيشه في أمريكا من حياة مترعة بالحرية. سيتعلّم منها الكثير كذلك. عليه أن يتخلّص من أمراضه القديمة، وأسماله النتنة العفنة التي لم تعد صالحة للعصر الحالي.

وعد نفسه أن يتعامل معها بأفقٍ مفتوح خارج قوقعته تلك، لكنه عجز عن الوفاء بما وعد. لم يكن واثقاً بما ينبغي عليه التفوه به. فَهل يفتحُ فمه ليقول لها إن الموسيقى حرام مثلاً؟! ليست الموسيقى واحدة من تلك المواضيع التي جهزّ له ذهنه. لم يعرف أنها تُحب الموسيقى. كيف له أن يعرف ذلك؟! هل قصّر في البحث والتقصي عنها وعن طريقة تفكيرها؟ لا، لم يُقصّر. لكنه لم يحظَ بشيء. هي لم تشرع بعد في الكتابة والنشر حتى يقرأ ما كتبته. بحث عنها في الإنترنت ولم يصل إلى نتيجة. لا شيء يُذكر عنها في جوجل، وكذلك في الياهو، ولا في غيرهما. ما زالت غامضة بالنسبة إليه، وفوق كل ذلك صغيرة، جميلة ولبقة. ليست فتاة عادية من تملك كل تلك الصفات.

«الموسيقى حرام؟!» ربما ليست حراماً؟ من قال إنها حرام؟؟ في كل الأحوال لم يعد ذلك الأمر من بين الأشياء التي تثير اهتمامه. قرر منذ زمن بعيد أن يبتعد عمّا اعتبره نوعاً من الهدر لوقت ثمين في الإمكان استثماره في أمور تعود بنفع أكبر على المرء. سيلوذ بالصمت الآن، إذ لم يحن الوقت بعد. لا ينبغي له أن يبين وفي الحال أنه ليس كما توقعته بذلك الانفتاح والثقافة حتى في أتفه الأمور، وهو أحد أعلام علم الإنسان! سيصمت الآن ريثما تذوب الحواجز التي بينهما أكثر، ويصبح بعدها قادراً على الحديث معها بحرية أوسع.

لاحظ أنه يتعاطى مع الأمر بطريقة جديدة عليه. لم يكن كذلك في السابق. سنوات تركيزه في البحث وعدم اكتراثه لعلاقاته بالآخرين أثرت فيه فعلاً. هو عالم الأنثروبولوجيا، القادر على فهم خبايا الأشخاص الذين أمامه بسرعة «ومن أول نظرة»، وبالتالي قادر على التعاطي معهم براحة؛ لا أن يجد نفسه متحفظاً وحذراً قدّامها، وهي ليست سوى واحدة من طالباته لا أكثر!

هل رسم لها صورة أكبر من سنّها وعلمها؟ أكبر مما هي عليه؟ لماذا لا يراها كأي طالبة يتعامل معها؟!

هل لأنها أمريكية؟ أو هل لأنه عرِف بذكائها، فتراجع قليلاً عن قراره بالانفتاح أمامها؟

هل لأنها جميلة؟ لقد تعامل مع فتيات فطنات وجميلات من قبل، ولم يكن لديه مثل هذا التحفظ. هل مستواها التحصيلي الواضح من درجاتها العلمية التي لا يُعكر سيطرة درجة «الامتياز» فيها «جيد جدا» يتيمة خلق فيه ذلك التردد؟

هل شعر بالندم بعد أن عرف بدرجاتها على إهماله أيام دراسته في الحصول على مثل درجاتها في الماجستير؟ نعم شعر. وهل قارن درجاته التي ظهرت فيها درجة «الامتياز» أربع مرات من بين اثنتي عشرة مرة بدرجاتها؟ فعلاً قارن.

تبادره مرة أخرى:

- هل هذا يعني أنه لا يوجد قناة أف أم في عُمان؟

وفي الحال تذكّر قناة لا تتوقف عن بث الأغاني، الـ (أف أم 890.00). أدار موجة التردد نحوها وهو يقول مبتسما كمن عثر على الكنز المفقود، أو كلمة السرّ السحرية:

- نعم تذكرت، هذه قناة تبث كل الأغاني، من هنا وهناك، ربما تبث في الوسط أغاني عُمانية، نعم أحيانا تبث أغاني عُمانية، لكن الإرسال هنا وفي أحيان كثيرة يكون غير واضح.

وفي اللحظة تذكّر الموسيقى التي تبثها تلك الإذاعة بالتحديد حين تأتي مواعيد الصلاة. الإذاعة تحجب المغني لكنها تُبقي على الموسيقى في تلك الأوقات. الموسيقى إذن ليست حراماً، الغناء هو الحرام، بشهادة الإذاعة!

تضحك مروة وهي تقول:

- لا يهم، سأبحث عن الأغاني العُمانية في اليوتيوب عندما أعود إلى السكن.

تصمتُ قليلا، وهي تحدِّق في مناظر البيوت والمحلات على يسارها، ثم تعود إلى الحديث:

- صحيح يا بروفيسور، لقد وضعوني داخل سكن طالبات البكالوريوس البعيد عن الجامعة بمسافة ليست بمريحة، وهذا ليس ما أريد، أرجو أن تساعدني في البحث عن شقة تكون قريبة من الجامعة أو قريبة من بيتك طالما سنقضي أوقاتا طويلة مع بعض.

هزّته جملتها، فشعر بكتلة من السخونة تنفذ إلى دمه، بدأت بقشعريرة هاجمت طبقة جلده الخارجي، ثم ما لبثت أن تسرّبت إلى داخل عروقه وعظامه، وانتهت بهزّة عنيفة انتشرت في سائر الجسد. أحسَّ بالحُبيبات تشتعل في سائر وجهه.

هل شعرتْ بما جرى له؟

أخذ نفساً عميقاً بعدها. «يبدو أنه فصل دراسي استثنائي منذ البداية»، «من أين جاءتني هذه البنت الغريبة العجيبة؟».

هزّ لها رأسه مبيناً بأنه سيفعل ما بوسعه ليجد لها سكناً أفضل.

ثمة ابتسامة طفيفة ترتسم على شفتيه حين عبر من قدّام اللافتة التي تشير إلى حصن (باب الرديدة) والجبل الأخضر معاً.

قالت له وهي تشير إلى تلك اللوحة:

- يبدو أن الجبل الأخضر يحوي الكثير من الأسرار وفقاً لما قرأته عنه خصوصا في كتاباتك.

فقط جملتها تلك استطاعت أن تحرك فيه نوعاً من الحماس لكي يجاذبها أطراف الحديث. ابتسم لها أولاً، ثم هزّ رأسه مبدياً موافقته على ما ذكرته. ثم كمن يؤكد لها صحة ما نطقت به:

- سترين ذلك بنفسك آنسة مروة، وسترين ما هو أكثر مما تتوقعينه.

وحين طلبت منه أن يشرح لها أكثر ما يعنيه بقوله ذاك، قال والابتسامة تزداد اتساعاً على فمه:

- لن أحرق لك ما يجب أن تكتشفيه بنفسك. سيكون ذلك إحدى مهام بحثك، ولكن سنتحدث مطولاً

وبإسهاب بكل تأكيد عندما نبدأ البرنامج الحقلي.

تمططت الابتسامة على وجهه أكثر، ولا يعرف هو إذا ما كانت المصادفة أو غيرها هي التي جاءت بصوت «سالم راشد الصوري» حينها وهو يغني «يا مركب الهند بو دجلين»، لم تفوت مروة الأمر حينها حين سألته، وقد شعرت بالتفاتته إلى الأغنية، عمّا إذا كانت تلك الأغنية عُمانية؟ قال:

- نعم، قديمة، من التراث.

هل هي فعلاً أغنية عُمانية؟ يتساءل مع نفسه. ليس دقيقاً في تلك المعلومة بما فيه الكفاية. سمع من أحد زملائه ذات مرة بأن سالم الصوري، الذي كان أول من أنشأ «ستديو تسجيل أغاني» في بحر الخليج وكان تحديداً في البحرين؛ كان يغني مما يعجبه من أغاني غيره، وكان من بينها تلك الأغنية.

لا يهم. لا يهتم.

***

خلال تجوالهما معاً بين أزقة السوق وسككه، لم تُبقِ مروة بائعاً داخل محل، أو على مصطبة، أو مفترشاً حصيرة على جانبي الممرات إلا وتحدثت معه، وتعرفت على ما يقوم به. كانت تضحكُ مع كل واحد منهم وكأنها تعرفهُ من قبل، لدرجة أن الحاج (صالح السيفي) السبعيني، الوقور الهادئ في معظم الأوقات، أطلق لنفسه العنان فانغمسَ في حديثٍ مطولٍ معها غير عابئ بمن حوله، وقد نحّى بحيائه وخشيته مما قد يقال عنه جانباً. ظلّ يصف لها سوق (الصنصرة)[3] من أوله إلى آخره. ولم يمانع بأن يُمسك معصمها، وأن يقودها خلفه و«يلفلفها السوق كله»، بل وأن يستمر في الحديث معها «لحد نهار ثاني» كما يقول لها كلما اعتذرت منه لإزعاجها له.

وحين كانت هي ملتهية بملامسة القطع الأثرية من خناجر ومصوغات فضية، قرّب الحاج صالح شفتيه المتشققتين من أذن سالم، وهو يهمسُ بصوت خفيض لكنه مسموع -قاصداً فيما يبدو أن يصل الكلام إلى صِماخها- والابتسامة العريضة ترافق وجهه الممتلئ بالتجاعيد القاحلة:

- والله لو أرجع شباب كان تزوجتها، هذي بو يقولوا عنها ترجع الشايب شباب وترد الروح، هذي تجنن العاقل.

- إن شاء الله ينولك اللي تريده في الجنة يا الوالد.

يعقّب على حديثه هامساً كذلك، وقد أرغمه كلام الحاج على الابتسام.

يضحك الحاج صالح، وهو يقول هذه المرة بصوت منخفض جداً كي لا تسمعه مروة: «لكن انته عندك الجنة هنا في الحياة».

دخلا السوق من جهته الشرقية، فمرا على الممرات التي صُفّت جوانبها بالخِيَش الغنية بمختلف أنواع التوابل الملوّنة والليمون المجفف و(القفران)[4] الضاجّة بالبقوليات من عدس وفول وحمّص. داهمتها رائحة الفلفل الأحمر، فعطست أكثر من مرة، وكادت أن تدمع عيناها.

على الأرفف صُفّتْ العلب المعدنية النحاسية المملوءة بالبخور، وبجانبها أكياس اللبان القادم من ظفار. وعلى مبعدة عُلّقت الأوعية السعفية المصنوعة من ورق وجريد النخيل. وفي مقابلها تدلّت المصوغات الفضية من خناجر وسيوف صغيرة وكبيرة وحلي نسائية من أساور وخلاخيل وخواتم ودِبل[5] . كانت مروة سعيدة بما تراه حينها وهي تمد يدها، لتلمس كل ما يقابلها في السوق من بضائع. كانت أمامه تتصرف مثل طفلة.

أكثر ما أدهشها وفغرت له فاهها، وقد طلبت منه أن يؤكد لها أن ذلك مسموح به في نزوى وعُمان، هو وجود محل لبيع الأسلحة القديمة من بنادق كبيرة ومسدسات صغيرة وسكاكين حادة قاطعة، وكانت تتوقع أن يكون ذلك من الممنوعات. حتى العم «حمد الإسماعيلي» الشهير جداً في نزوى، والذي بالكاد

تستطيع أن تراه مبتسما، ولو لمرة واحدة في حياته، أعجبته مروة، فابتسم لها ابتسامة واسعة حين سمعها ترطن بالعربية، لم يلبث أن أخرج لها من داخل بعض الصناديق المغطاة ما قال عنه بأنه كنز لا يعرف قيمته أحد، وهو يستعرض أمامها «سيف عُمان» الذي وصل عمره إلى أكثر من 250 عاماً وبندقية «الصمعة» التي تجاوز عمرها 100 سنة.

عرج بها بعد ذلك باتجاه الجامع الكبير، وقد لفت انتباهها عدد من أسماء المحلات التي لا تبدو عربية؛ خوارزم وخراسين وكرادسيين[6] .

- هل هذه أسماء محلّية؟

تسأله.

- غير متأكد، سمعت من بعضهم أنها ليست كذلك.

يجيبها.

أصرّت حينها أن ما رأته في السوق من بضائع وبشر مختلفين أمرٌ لا يُصدّق، ولا يسهل وصفه، وأنها لم تتوقع أن تقابل شيوخاً طاعنين في السن لا تزال أرواحهم ملأى بمرح الحياة «أكثر من روح البروفيسور الهادئ».

هو أيضا أحسَّ بالدهشة والاستغراب مما رآه. فبعضُ أولئك الذين صادفهم هم ذاتهم الذين ينادمهم أطراف الحديث في المجالس الرجالية، أو وسط السوق بين الفينة والأخرى. لكنهم اليوم تغيّروا، أو بدّلوا جلودهم فجأة. اليوم هُم أكثر مرحاً وحبوراً في استقبالهم للضيوف القادمين من البعيد، عمّا هو حالهم مع بعضهم بعضاً. عزا ذلك إلى تأثرهم بالعدد الكبير من السوّاح الأجانب الذين يتهاطلون على السوق يومياً، ومن كل الجنسيات، وبالذات أولئك القادمون من الدول الأوروبية، والذين بالكاد تفارق الابتسامة وجوههم المحمّرة. لكنه عزا ذلك أيضاً إلى وجه مروة الريّان الذي من الصعب أن يفوت أحدٌ فرصة التقرب إليه، والتحديق فيه عن قرب، صغيراً كان ذلك الأحد، أو طاعناً في السنّ.

ثمة أمر لم يرغب القيام به، وقد تمنى ألا تلتفت إليه مروة. لكنه قدره. كان مكتوباً عليه أن تمرّه الذكريات الأليمة، وتعكّر دمه يومها. فمروة لم تغفل أن تطلب منه مرافقتها إلى داخل القلعة. حاول هو أن يثنيها بداعي اقتراب النهار من نهايته، لكنها ترجّته، ووعدته أن تكون زيارة خاطفة «أسرع من لمح البصر».

- بروفيسور، هل فعلاً القلعة مبنية من الطين الخالص، ولم تسقط حتى اليوم؟

تسأله، فيهزّ رأسه موافقاً رغم عدم تأكده من صحة ذلك.

لا يود حتى مجرد الالتفات إلى جدار القلعة الخارجي الدائري الضخم الذي يرتفع بالحجر والجص[7] العُماني المتماسك لأكثر من عشرين مترا، فكيف سيستطيع أن يخطو بداخلها، ويتلمّس بعينيه جدرانها، ودرجها، ومتاهات حصنها ذي الممرات الملتوية التي يتوه فيها حتى من يملك بوصلة في يده، وهو الذي لم ينس بعد مشاعر الرعب التي كانت تملأ قلبه وروحه حين كان يزور أباه القابع في القبو، ذلك الصندوق الطيني المربع المغلق الذي سحق جسد أبيه وروحه. مَنْ حَبَس أبيه أطلق على تلك الحفرة سجناً، لكنه كان بكل تأكيد أسوأ من أن يطلق عليه كذلك، والأحرى، والأقرب إلى الدقة، أنه كان قبراً للأحياء يتناولون فيه جرعات الموت ببطء كل يوم. يذبلون في بطنه مثلما تذبل الوردة العطشى، ويذوون تدريجياً كما تذوي الشموع.

لا تزال صورة أبيه المسجّى على أرضية القبو وقد فارق الحياة؛ حاضرة أمامه رغم مضي كل تلك السنين، بوجهه الملطخ بالبقع التي تشبه البهاق، والتي سببتها الرطوبة العالية التي كان يقبع تحت وطأتها ليل نهار. مذ ذاك لم يزر القلعة، ولم يشأ حتى الاقتراب منها. منظر جدارها الدائري، الذي يصفه الكثيرون بالعظيم والبعض بالمعجزة، يبعث في نفسه آيات التقزز والألم. لكنه كان مجبراً على

إخفاء مشاعره حينها، وهو يراها تخطو أمامه بفرح نحو الباب الخشبي العتيق للقلعة. لن ينسى ما عاش أن تلك القلعة التي يعتبرها التاريخ أكبر قلعة عرفتها الجزيرة العربية على مدى الأزمان هي من قتلت أباه المظلوم.

كان عليه فوق ذلك أن يجيب على أسئلتها التي لم تتوقف عن كل ما كان يثير فضولها مما تقابله من مناظر، وكان هو قد حفظ عن ظهر قلب الكثير من مكونات القلعة لكثرة تردده على المكان في سابق عقود. كان يجيب بسرعة على أسئلتها التي تكثفت وهطلت عليه بغزارة وبلا توقف. حكى لها عن قصة المدفع السويدي المصنوع من الحديد، وبجانبه المدفع البرتغالي المصنوع من البرونز، واللذين يستقبلان الزوّار عند باب القلعة الخارجي، الذي يسميه الأهالي «الصباح الداخلي»، ثم عن المدفع الحديدي المصنوع في نزوى، والذي يقبع مزهوا وحده مثل طاؤوس عند البوابة الداخلية للقلعة. عن فتحات السقف التي يُسكب منها الزيت الملتهب على رؤوس من يتجرأ، ويتجاوز البوابات الخمس المؤدية إلى داخل القلعة. عن الأفخاخ والكمائن الأرضية التي تنفتح تحت من يمشي عليها فيسقط في قعر الأرض محطماً. عن الدرجات الضيقة التي بالكاد تكفي لصعود شخص واحد في ذات الوقت، والتي تشهق بحدّة مخيفة، وبلا دربزين إلى الأعلى. ليفاجئه عند وصوله إلى سطح القلعة مقهى صغير بني حديثاً من سعف النخيل، يتوسط الباحة الوسطية في الأعلى، وقد أصبح استراحة للزوار لتناول القهوة والشاي، وعلى مقربة منه كان الباب موارباً على صالة عُبئت أرجاؤها بمعروضات خزفية وفخارية ومصوغات فضية مختلفة.

لكن ذلك القبو، المكان الذي سحق جسد أبيه، والذي أصبح مزاراً للسياح، ظلّ في مكانه لم يتزحزح، ولم يُطمر، وكأنهم تعمّدوا الإبقاء عليه نكاية فيه هو بالذات دون سواه.

كانت ترغب حينها أن تدخل الحصن الذي تحول مع الأيام إلى متحف طبيعي يحكي عادات أهالي نزوى القديمة من طرق تخزين التمور، وصناعة الفولاذ والحديد، وصهر النحاس، وصباغة الملابس بصبغة النيل، وحياكة الأزياء النسائية؛ لكن صوت أذان المغرب كان قد ارتفع حينها، وكان لا بد لهما من الخروج. وعدها بأن يعود بها إلى الحصن في يوم آخر.

حين أوصلها بالقرب من سكنها، وقد خلع الظلام عباءته على الأرجاء، مدّت له كفها تصافحه، وهي تودعه وتشكره للمرة المائة على وقته وصبره معها. كانت يدها ناعمة جداً وباردة بفعل مكيف السيارة. قالت له وهي تفتح الباب والابتسامة تملأ وجهها:

- بروفيسور أنت لا تضحك كثيراً، الحياة قصيرة جداً، وإذا لا تعلم فنهايتنا مثل نهاية من سبقونا، في جوف الأرض، والأرض بتنزل للبحر، وعظامنا بتصهرها نيران الماجما، ونختفي تماما.

رفعت كفها الأيمن إلى حيث فمها، ومطت شفتيها بالسبابة والإبهام على آخرهما في دعوة منها إلى أن يبتسم، وهي تضيف:

- حاول أن تضحك بروفيسور، دع عضلات فمك تنشدّ إلى الآخر، بتعيش أطول.

ثم ضحكت مبتعدة. أهداها بدوره ابتسامته دون أن يُعلِّق على ما قالته.

ليست دقيقة فيما ذكرتهُ عن نهاية الإنسان. لا يوجد ما يثبت أن عظام الإنسان تنصهر وسط الماجما، لا يوجد دليل واحد على ذلك. وبحسب ما رآه، فإن العكس هو الصحيح، عظام الإنسان لا تنصهر، بل تخرج مرة أخرى وسط الصخور. لقد تمكّن من العثور على الأدلة التي تبرهن ذلك، والأصح أن الله الذي خلق آدم لم يرضه ما يتم تداوله من حقائق مغلوطة عن ابنه الأول، فمكّنه هو دون سواه من الوصول إلى تلك الأدلة التي من شأنها أن تغيّر رأيَها كذلك مثلما غيرت رأيه من قبل، بل قادرة حتى على تغيير رأي العالم بأسره.

بلا شك لدى مروة هدف آخر من وراء جملتها الأخيرة تلك. هدفٌ أبعد من أن يصل إليه تفكيره في

تلك العُجالة. «وقد لا يكون الأمر كذلك» يقول لنفسه متراجعاً عن ظنّه بعد أن خطر له بأن ما سمعه لا يتعدى محاولة منها لاستفزازه للحديث. لكنه في كل الأحوال فعل الصح بتردده ذلك، فهي ليست فتاة سهلة، ومع مثلها يحتاج إلى مزيد من الوقت، ليتعرف أولاً عمّن تكون، وبماذا تفكّر، وماذا يمكن أن تقصد من وراء كل كلمة تقولها، وكل حركة تقوم بها.

تذكّر سنيَّ بحثه، وانغماساته في قراءة المئات من الكتب التي تتحدث عن الإنسان وتجمعاته على مرّ العصور، سواءً أكان يعيش في الكهوف والأودية والغابات، أم فوق السيوح الجرداء، ووسط الصحاري الجدباء.

علمته تلك القراءات أن البشر مختلفون جداً، وليس من السهل بناء قناعات عنهم منذ اليوم الأول. ففي كل ما عرفه عن الحضارات البشرية؛ لم يقرأ عن إنسان استطاع أن يتأقلم مع آخر قادم من بيئة وثقافة مختلفتين بتلك السرعة، بل إن التأقلم السريع قد لا يحدث حتى بين أصحاب الحضارة الواحدة.

يندم كرَّة أخرى بعد أن نسي للمرة الثانية أن يتحلّى بخلق الرجل العصري، ويهبّ لفتح الباب عند خروجها من سيارته. لقد فقد تلك المهارة.

سألته قبل أن تترجل عن السيارة:

- بروفيسور، هل حقيقة أن الفُرس احتلوا مدينة نزوى؟

لكنه يجيبها بعدم معرفته بالأمر. كل ما يعرفه أن عدداً منهم وصل إلى نزوى، وأقام فيها، أما احتلالها فلم يسمع به.

تعجله بسؤال آخر:

- هل جامع نزوى في الأصل كان كنيسة؟

لكنه يهزّ راسه مبدياً عدم إلمامه بالأمر. أسرّ لنفسه متعجباً «كنيسة؟!»

«من أين تأتي بتلك الأسئلة الغريبة؟» يتساءل، قبل أن يستذكر، وعلامات الدهشة قد غزته، ما كان ما قد قرأه في السابق عن وصول المسيحيين إلى نزوى بيضة الإسلام، فمعظم من قرأ له أكد بأن الوثائق التي تثبت ذلك تكاد تكون معدومة.

لكنه لاحقاً، وبعد أن أعاد على نفسه جملتها تلك، أقرّ بأهمية مثل تلك المعلومة لو صدقت، ففيها تأكيد على صحة حديثه بأن منطقة الجوف التي تسكن فوقها نزوى ليست فقط بلد البشر كلهم، بل كذلك منبع الديانات السماوية سائرها. يلزمه بعد اليوم أن يتتبع سلالة آدم ليعرف المكان الذي ولد فيه المسيح في الجوف، وكيف خرج منها بعد ذلك، وإلى أين اتجه.

هل تخيّل كم سيحتاج من عمر ليبحث في كل ذلك وقارن ذلك بعمره؟ فعل ذلك، وتأكد له بأنه لا يملك عمراً يكفي لتنفيذ كل تلك المشاريع.

. يسكب القهوة من الدلّة في الفنجان

. يغني بصوت رقيق ناعم أقرب إلى صوت النساء (باللغة الدارجة).

. السوق الشرقي بولاية نزوى، وهو سوق تقليدي قديم تباع فيه المواد الاستهلاكية كالفواكه والخضار والحُبوب.

. جمع قفير وهو وعاء مصنوع من سعف النخيل ويوضع بداخله في العادة حبات البلح والفواكه والبقوليات وغيرها.

. زمام الأنف. حلقة أو فص تضعه النساء على طرف الأنف للزينة.

. بعض المؤرخين يذكر بأن الفُرْس وصلوا إلى نزوى فعلاً، وأقاموا فيها، وسمّوا أسماء المحلات بمسميات فارسية.

. الجبس

دخل بيته، وهو يشعر بكومة المشاعر الغريبة التي داهمته ذلك اليوم، وملأت وقته وفكره. الساعة السابعة والنصف بعد الغروب، وابنه محمد كان قد سبقه إلى دخول البيت بلحظات قليلة، حين سأله كالمعتاد عن يومه، وقد لاحظ علامات الحزن على وجهه، أجابه محمد، وهو يطلق تنهيدة معبّرة:

- كان يوماً عادياً حتى مفرق طريق (إزكي). أعوذ بالله من المنظر، جثث أطفال متناثرة في الشارع، الله يلطف ويستر.

بين يوم وآخر يقع حادث على شارع نزوى السريع. وفي أحيان كثيرة تعيد الحوادث نفسها، وكأن ثمة يد خفية تقف وراء وقوعها. يد تملك سحراً، أو قوة من نوع ما، قادرة على ضرب السيارات العابرة بعضها ببعض. هكذا تقول زوجته سميرة. ليس مزحاً، بل جداً. وهو، زوجها، الذي اعتاد أن يضحك على ما «تخرُّف به زوجته» صار الآن، مع كثرة الحوادث التي وقعت، أقرب إلى تصديق كلامها. فلو أحصى عدد الحوادث التي وقعت على مقربة من مفرق إزكي لما اعتراه شك بأن ذلك المفرق مسكونٌ بالشياطين أو بشيء من اللعنة، وأن -كما يقول زميله (خلفان) في الجامعة- الحكومة قد «سرقت أرض أحدهم ظلماً وبهتاناً حتى يمر من فوقها الشارع السريع، فقرر أن ينتقم منها في أبنائها الأبرياء». ويُكمل خلفان- الذي تعود أصوله إلى بلدة بُهلاء القريبة من نزوى- أن «أحدهم» ذاك لا بد وأن يكون قد تعلم السحر من أهل بُهلاء «إذا لم يكن في الأصل من بهلاء أو (بلاد سيت) القريبة». يضحك بعدما يختم حديثه «وأتوقع أنه تعلمه من كبير السحرة هناك، الحاج سيف المعروف».

لم يستطع محمد، بسبب اختياره لتخصص العلوم السياسية الانتقال إلى الدراسة بجامعة نزوى للعلوم الحديثة. بقي هكذا في رحلات الذهاب والأياب غير المنتهية. يقطع يوميا، ولعام دراسي آخر، كل تلك المسافة المرهقة، ونادرا ما كان يصل إلى البيت قبل الغروب. أبواه يضعان أيديهما على قلبيهما كل يوم إلى أن يرياه يدخل البيت، فيطمئنا عليه، ويرتاحا.

ليس مشواراً قصيراً ذلك الذي يستنزف من وقت وصحة ابنهما كل يوم. يقضي ساعة ونصف في رحلة النشور، ومثلها في طريق العودة، وسط المخاطر العديدة المتربصة به في ذلك الشارع.

يدعوان الله كل يوم بألا يصيبه مكروه فيما تبقى له من سنة دراسية أخيرة.

- أتمنى أن أصبح سفيراً بعد أن أتخرج.

سالم هو المتسبب الأول في التحاق ابنه بذلك التخصص الذي لم يخطر على بال أحد من أفراد العائلة. كل ما في الأمر أنه قرر ذات يوم، ومحمد قد أنهى للتو امتحانات الثانوية العامة، أن يسافر به وبأمه وأخته إلى النمسا. كانت تلك المرة الأولى التي يرحل بهم إلى أوروبا، فقد اعتاد أن يأخذهم في السابق إما إلى خريف (صلالة)، أو متنزهات وأسواق ماليزيا. في تلك المرة بالذات، وبسبب ترشيحه من قبل جامعة السلطان لحضور مؤتمر يتعلق بعلم الإنسان في فيينا؛ قرر أن يحملهم معه. بقوا هناك لأسبوع إضافي بعد انتهاء المؤتمر يتنقلون بين المدن.

- بابا، كيف يمكن للواحد أن يأتي ليعيش هنا؟

يسأله محمد.

يضحك سالم، وقد شعر خلال جولاتهم بين فيينا وسالزبرج أن ابنه وحتى ابنته قد أُعجبا بشدة بما شاهداه. مقارنتهما فيينا بمسقط بالذات لم تتوقف على كل مشهد يمر عليهما.

- لا توجد طريقة سوى أن تكون سفيراً.

يضحك وهو ينظر لسميرة، لكن محمد لم يكن يمزح حينها، ولم ينتظر كثيراً بعد الذي سمعه من أبيه. ركض إلى جهازه المحمول في الفندق باحثاً في جوجل عن التخصصات التي ستؤهله لأن يصبح سفيراً.

لم يشأ أن يسأل أباه، الذي كان قد أقنعه في السابق أن يصبح مهندساً معمارياً؛ عن التخصصات التي ستخوّله أن يحقق ما للتو قد حلم بأن يكونه في المستقبل. كل ما قام به هو أن دخل صفحة مركز القبول الموحد، وسريعاً قام بتغيير رغبته الأولى من «هندسة معمارية» إلى «علوم سياسية» دون أن يذكر الأمر لأحد، ولم يكن ذلك التخصص مطروحاً سوى في جامعة السلطان، وفي بريطانيا. لكنه كان على يقين جازم بأن أباه لن يقبل بأي حالٍ من الأحوال أن يتركه يدرس خارج عُمان. دخل معه بمساعدة أمه في حوارٍ استمر ساعة من الزمن لإقناعه بمنحه الحرية في اختيار البلد التي يود أن يُنهي فيها دراسته الجامعية. لكنه رفض بشدة، ورفض بشدّة أقوى أن يذكر لهما سبب رفضه.

- لازم تثق بابنك، انت ربيته أحسن تربية.

تحاوره سميرة، فيجيبها بشيء من الغضب، مبدياً امتعاضه، وعدم رغبته في الخوض في مثل ذلك النقاش:

- أنا واثقٌ من تربيتي لابني جداً، لكني غير واثق أبداً من المجتمعات الغربية بعدما زاد فيها قلة الأدب وسوء الأخلاق.

- ابنك واع وعاقل، ذاهب هناك للدراسة فقط.

- يدرس في عُمان. الدراسة في جامعة السلطان أقوى حتى من الدراسة في أكسفورد وهارفرد.

- أنت درست في بريطانيا، ورجعت كما ذهبت، ما ضاعت أخلاقك.

تعلق سميرة، فيزأر في وجهها:

- أنا درست الماجستير هناك، كنت كبيراً وعاقلاً، لو سافرت وأنا في عمر محمد كان الله أعلم بالذي حصل.

يضيف بعد أن وجدها سانحة:

- أنا درست في جامعة السلطان، وحصلت على أعلى الدرجات، وبعدها سافرت في بعثة إلى أحسن الجامعات في بريطانيا. محمد سيكون مثلي، بعدما ينتهي من البكالوريوس يسافر وين ما يريد، لكن الآن لا. الآن ما عنده خيار سوى جامعة السلطان، ولا غير.

يشير بيده بعد ذلك إلى وقف ذلك الحوار، وعدم سماحه لهما بالاستمرار فيه.

لم يكن لدى محمد من خيار حينها سوى جامعة السلطان. حمد ربّه كثيراً، وهو يُعدّل تخصصه، بعد أن وجده متاحاً في الجامعة، فلولا ذلك، لكان عليه أن يبلع حلمه، وينساه ما عاش.

غضب سالم في البداية حين علم بالأمر، لكنه سرعان ما تراجع، وهو يتذكّر ما ظلَّ يكرره بكثرة أمام الآخرين: «عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم». ليترك الأمر بعدها برمته لابنه. قد يكون محمد على حق، وربما يصبح سفيراً ذات يوم، وعندها سيكون محل فخرٍ لأبيه وأمه. هكذا أقنع نفسه. لكنه لم يغفل أن يرسل لابنه نظرةً عابسة، وعبارة مقتضبة محمّلة بنبرةً عتاب ولوم. قال بهدوء وهو يبارك له قبوله في التخصص بجامعة السلطان:

- على الأقل كنا نناقش الأمر قبل أن تمضي في قرارك بشكل نهائي.

- خفت أن تغضب أو تزعل مني. فليست الهندسة إحدى رغباتي، ولكني لم أستطع مخالفتك.

كان رأسه منكساً، وهو يجيب على ملاحظة أبيه. وأضاف بصوت أقرب إلى الهمس، لم تلتقطه أذنا سالم:

- أنت بابا درست التخصص الذي أحببته.

يبتسم سالم، وهو يتذكر ما نتجت عنه زيارة واحدة لتلك الدولة من تغيير في تفكير ابنه وحلمه المستقبلي، واعترف ساعتها بينه وبين نفسه بأنه غفل وسط زحمة اهتماماته الجديدة ببحوثه، أن

يكرّس وقتاً أطول مع ابنه لمناقشته في أمور مستقبله وأحلامه القادمة. غفِل أن يقضي وقتاً أطول لاكتشاف رغبات ولده الحقيقية، وأحلامه في قادم حياته. اكتفى بأن قضى معه يوماً واحداً، أو بضع يوم، ليقنعه بأن يختار تخصص الهندسة المعمارية التي «وظيفتها مضمونة وألف من يتمنى أن يشغّلك معه».

وتذكر أنه نفسه قد قام بعملٍ مشابه إلى حدٍ كبير لذلك الذي قام به ولده، وذلك يوم أن كان في الثانوية العامة. فأبوه في المقابل حثّه، وكررَّ عليه أكثر من مرّة أن يكون طبيباً حين يكبر، بل وألحّ عليه أن يصبح طبيبا «للقلب». وهو، وقد تحصّل على أعلى الدرجات سنتها، كان بمقدوره الالتحاق بكلية الطب، لكن عشقه لعلوم الإنسان جعله يلتحق بدراسة الأنثروبولوجيا في جامعة السلطان. أبوه كان ساعتها نزيلاً في سجن القلعة، فلم يجد أمامه من يغضب عليه بسبب خياره ذاك، ولم يمنح القدر أباه فرصة لمعاتبه، بعد أن قضى نحبه في السجن قبل أن يصله قرار ولده.

لكن ابنته زهراء، وهي الآن في الثانوية العامة، وكانت تجلس أمامه على طاولة الطعام، منكبّة على كتابها في انتظار وجبة العشاء التي تُعدّها أمها في المطبخ، كانت قد حددت رغبتها في أن تصبح معلمة «لأجيال المستقبل»، وأن تدْرُسَ اللغة العربية في جامعة نزوى، لتقوم بتدريسها لاحقا بنفس الجامعة، ولتصبح قريبة من أبيها.

لحظات وكانت سميرة تُفرغُ محتويات الصينية على طاولة المائدة من مرقة عدس ثقيلة، وخبز رخال، وقطع دجاج مقلية بالزيت. كان الغضب واضحاً على وجهها.

يعرف هو سبب ذلك الغضب. وهي لا تألو جهداً في إظهاره كلما سنحت لها الفرصة، بالذات حين تكون للتو قد خرجت من المطبخ ليقابلها وجهه. لكنه أخيراً قرر أن يزفّ إليها البشرى التي طال انتظارها لها. قال بصوت خافت، والابتسامة واضحة على وجهه:

- أم محمد، أيامك في المطبخ والطبخ والتعب والكدّ باتت معدودة.

لكنه لم يلمح أي ردة فعلٍ تدلّ على سعادتها بما سمعته. اكتفت بأن رسمت على وجهها ابتسامة باهتة، لم يستخرج منها شيئاً، وقد توقع منها أن تقفز فرحاً.

بادرته بعدها بلحظات، وقد تعمدت أن تملأ صوتها بنبرة حملت في طبقاتها في ذات الوقت أمرين؛ تعباً وعتباً:

- لقد سمعت منك هذا الكلام من قبل، شبعت من الكلام يا أبا محمد.

قهقه، وهو يتذكر أنه بالفعل قال لها مثل تلك الجملة من قبل. قالها أكثر من مرة، آخرها كان قبل أكثر من خمسة أشهر على الأرجح، تماماً مع انتهاء العام الدراسي السابق. يومها اتفق معها، بعد نقاش طويل - أظهرت فيه بكل ما تملك من مقدرة أنها متعبة جداً من عمل البيت، لدرجة أنها ذكرت له صراحة بأنها لن تستطيع أن توفيه حقوقه الزوجية كما اعتاد منها، فصارت لاحقاً، وبين الحين والآخر، ترفض أن تسلّمه جسدها حين يرغب فيها آخر الليل - أن تكون عاملة المنزل معهم وبينهم قبل بدء العام الدراسي الجديد. قالت له بأنها كبرت، وذكرته بأنها لم تعد صغيرة ونشطة، بعد أن تخطت حاجز الأربعين، وأن الأوان قد حان لأن تأخذ قسطاً من الراحة بعد عناء كل تلك السنين. قالت غير ذلك «فلن أستطيع أن أتفرغ لرعاية زهراء التي تعيش أهم سنة دراسية في حياتها». وتُكمل «ولا تلمني إذا لم تحصل ابنتنا على أعلى الدرجات».

- لا، هذه المرة الأمر جد وتقريبا شبه منتهي.

قام عن كرسيه، وجلس على الكنبة. أخرج بعدها ورقة من بين كومة الأوراق الكثيرة في حقيبة يده التي وضعها بجوار الكنبة، وقدمها حين كانت للتو قد استرخت على كنبة أخرى بجانبه. حينها فقط ارتسمت على شفتيها تلك الابتسامة المنتظرة. لم يلبث أن غزت وجهها حمرة خفيفة شبيهة بحمرة

الخجل التي اعتاد رؤيتها في أيام الحُب الأولى. تلك الحمرة، بالإضافة إلى لون عينيها العسليتين، كان أكثر ما جذبه إليها، وأرغمه أكثر من أي شيء آخر على طلب يدها، والزواج منها، وكانت لا تزال حينها طالبة.

كانت أجمل بنات الجامعة وقتها. تملك كل شيء يتمناه أي شاب في العالم؛ قَدّا ممشوقا، وحلاوة في الشكل والجسد. وخلافا عن الأخريات، كانت تضع عطراً على ملابسها، ولم تكن مثل معظمهن ممن يخبئن جمال جسدهن الذي خلقه الله داخل غطاء أسود فضفاض، لكنها كانت دائماً ترتدي ملابس محتشمة. حين كان في بريطانيا كان ينتقد ولع الفتيات بالتعري وإظهار مفاتنهن أمام الشباب، كان يرى ذلك أمراً يتجاوز الحدود المسموح بها للفتيات، وحين يعود لعُمان كان يكره رؤية الفتيات المتغطيات بالعباءات السوداء الفضفاضة التي تخفي تحتها الجمال والقبح على حد سواء، وكان ذلك في نظره أمراً يتعدّى الحدود المسموح بها أيضاً. لكن سميرة كانت في الوسط، تماماً كما كان يرى صورة الفتاة المثالية، ملابسها لا تخفي محاسنها دون الحاجة إلى أن تتعرّى.

أحس بالفرحة العارمة، وقد سرتْ في دمها. لم تلبث بعدها أن فزّت من فوق كنبتها متوجهة ثانية إلى المطبخ. قالت وهي تغادره:

- الله يهديك يا أبو محمد، لو أخبرتني من قبل لكانت المائدة اليوم مختلفة. لكن كلها نصف ساعة و«الكيرجيه»[8] التي تحبها ستكون جاهزة.

أعادته جملتها تلك إلى زمن قديم، حين جره أبوه معه باتجاه مطرح، ليمكثا هناك أكثر من أسبوع. يومها طلبت الحكومة من أبيه الحضور إلى مسقط بعدما وصلتها معلومات بأنه يحرِّض الناس على العصيان في نزوى والجبل الأخضر. تعرّف خلالها على عادات البشر في مطرح، وأكل من حلوى (سيف المكريري)[9] الشهيرة في سوق الظلام. لكن الكيرجيه، التي كان يعدّها مقهى صغير يتوسط سوق مطرح القديمة والمنحدرة طريقه باتجاه البحر، تمكنت منه، فأدمنها خلال وجوده هناك، ليرغم أمه على تعلم طبخها له لاحقاً، وقد نقل الطلب نفسه إلى زوجته فيما بعد.

وحين بدأ في تذكّر ما حلّ بأبيه بعد عودته تلك، وذكرى سجنه الطويل بالقلعة، خطفه صوت محمد من وسط ذكرياته، وهو يسأله:

- بابا، هل أنت من المتابعين للسياسة وما يجري في العالم؟

فاجأه السؤال، فلم يعرف في البداية كيف يكون رده. صمت للحظات. ثم أجاب بنبرة حملت في طياتها نوعاً من الاستغراب من السؤال:

- أُتابع ما أسمعه في التلفزيون من أخبار، وما أقرأه في الصحف.

- ألا تقرأ الكتب والمقالات التحليلية؟

- لا. ثم يضيف بعد أن لاحظ الصمت الذي دخل فيه ابنه «لكن لماذا السؤال؟»

يهزُّ محمد رأسه، كمن يريد أن ينهي الحوار عند تلك النقطة.

- لا شيء بابا، مجرد سؤال.

يضيف.

لكن سالم سرعان ما عاجله، وقد أثار ردّ ابنه فضوله. قال وهو يرفعُ حاجبيه، ويهزُّ رأسه، في إشارة إلى أن الموضوع قد سرق انتباهه:

- لماذا تسال؟ قد أفيدك بما أعرف.

- هل تعرف السبب الحقيقي في غزو صدام حسين للكويت؟

يفاجئه السؤال الذي سمعه كثيراً، والذي تعوّد أن يجيب عليه بإجابة واحدة ظلّت تتكرر طوال

السنوات التي أعقبت احتلال أمريكا للعراق. أجاب:

- بسبب البترول.

- فقط بسبب البترول؟ أو كان هناك أمرٌ آخر أهم من البترول؟

يسأله ثانية، ليجد نفسه، وللمرة الثانية في خلال فترة قصيرة، يهزّ رأسه دلالة على عدم علمه بتفاصيل ذلك الأمر.

- هذا موضوع صار قديم الآن. مرّ عليه أكثر من عشرين عاماً، وأنت جاي الآن تسأل عنه؟!

- صحيح، بس تعلّمنا من السياسة إنه بعض أسرار الحروب والمؤامرات لا يمكن لأحد أن يعرف عنها إلا بعد مرور سنوات طويلة على حدوثها، وبعضها يحتاج إلى عقود من الزمن حتى تُكشف أسرارها. إلى اليوم نسمع عن حقائق جديدة عن الحرب العالمية الثانية.

. أكلة شعبية قديمة (من الحلويات) تشتهر بها مدينة مطرح، تتكون من رز مطبوخ ومهروس بشكل جزئي يضاف إليه الحليب والسكر والشاي والزعفران (شبيهة بأكلة الرز بالحليب المعروفة).

. أحد أشهر صنّاع الحلوى في مطرح في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي.

من حيث الهمّة والنشاط، فهو من القلائل الذين يشار إليهم بالبنان. الكل يعرف ويُقرُّ بهمة ونشاط البروفيسور سالم الكندي. فعادة ما يكون في مكتبه في الجامعة قبل الثامنة صباحاً، ولا يبرحه إلا متأخراً، وبعد أن يكون الجميع من مدرسين وإداريين على السواء قد غادروا إلى بيوتهم. لكنه هذا اليوم يجد نفسه، وقد وصل إلى مكتبه قبل موعده المعتاد بنصف ساعة، ليجد مروة قد بكّرت هي الأخرى، وسبقته إلى مكتبها.

طلب منها أن تتبعه إلى مكتبه ليعرض عليها برنامج زياراتها الحقلية وجدول عملها الدراسي في التسعة أشهر التي ستقضيها بينهم في نزوى. مروة كانت قد بادرت بإرسال مقترحها حول الأماكن التي تود زيارتها أثناء إقامتها في نزوى قبل وصولها إليها، وقد وضعت الجبل الأخضر في بداية القائمة. ولسببٍ ما فضّل ألا يطلعها عليه، وأن يحتفظ به لنفسه إلى حين؛ أقنعها بأن يكون الجبل الأخضر محطتها الأخيرة لا الأولى. شدّد في معرض دفاعه أمامها عن مخططه على أهمية زيارتها منطقة (الحُقف)[10] والأنهار الجليدية القديمة السابحة في (وادي الخلاطة) بولاية محوت النائمة على شاطئ بحر العرب في الجنوب الشرقي من نزوى أولاً، وهما الموقعان اللذان وضعتهما مروة في أسفل قائمة برنامجها.

كانت ترتدي قميصاً بنياً شفافاً فوق سترة داخلية لم يتبين لونها بوضوح، وبنطال جنز أزرق فاتحاً، وقد تشققت أجزاءٌ منه عند مواقع الركبتين، ليكشف قليلا عن لون جلدها المدسوس عن الأعين.

ليست ناصعة البياض، ليس كالبريطانيات مثلاً، لكنها لا تزال بيضاء. بياضُها كذلك يخلو من تلك البثور والبقع البنية الغامقة التي تغزو جلد البريطانيات والأوروبيات على حدٍ سواء. هي بالفعل تشبه أنجلينا.

لاحظ حينها وكأن لون عينيها صار أقرب إلى أن يكون بنياً فاتحاً.

جلست أمامه على طاولة الاجتماعات الدائرية الصغيرة في مكتبه وهو يضع قدّامها جدول الزيارات ذاك، وكذلك برنامج الواجبات العلمية التي ستعمل على إنجازها في المختبر، بمساعدة زميلها خلفان المسؤول عن مختبر الجيولوجيا.

- بروفيسور، أنت تعلم أن مشروع رسالتي عن الصخور النارية في عُمان، وهل تحوي أو لا تحوي بقايا كائنات عضوية. أتمنى ألا نغفل عن أي جزء من هذه الصخور في زياراتنا الحقلية.

لا شك بأنها مرسلة خصيصاً إليه، فهو الوحيد في العالم الذي ادّعى احتواء الصخور النارية في عُمان على بقايا عضوية لكائنات حيّة. هو من قال ذلك، لا أحد سواه.

تبادره، فيعقّب عليها، وابتسامة مقتضبة ترتسم على وجهه:

- الصخور التي سوف تزورينها هي الأهم على الإطلاق. كل المواقع التي ستقفين عليها مرتبطة بمشروع رسالتك. صحيح أن بعضها لن يكون نارياً، بكل تأكيد، لكن من المهم جداً أن تطلعي عليها عن كثب؛ حتى تكون الصورة لديك واضحة تماماً حين تبدئين الكتابة. الفصول الأولى في رسالتك ستتناول بشكل عام طبيعة الصخور وتاريخها في عُمان. لا يمكن أن تكتبي عن الصخور النارية دون أن تستعرضي مكونات الصخور الرسوبية. فالصخور النارية والرسوبية في عُمان ستجدينها طبقات فوق طبقات في بعض الأماكن، بالكاد تستطيعين التفريق بينها.

ثم يضيف، وهو يستبق سؤالاً توقعه منها:

- في الواقع، أنت تحتاجين إلى أكثر من عامين لزيارة الصخور المهمة لبحثك، النارية وغير النارية، كلها مهمة لتتشكل لديك الصورة كاملة عن تاريخ عُمان الجيولوجي. لكننا لا نملك كل ذلك الوقت للأسف.

يبتسم أكثر قبل أن يضيف:

- ولكن يمكنك العودة ثانية لإنجاز رسالة الدكتوراه، وزيارة ما تبقى من مناطق صخرية.
تضحك معه على جملته تلك قبل أن تقول:
- إذن سنزور المناطق التي تقول إن بها أقدم الصخور في عُمان.
يُعدّل لها:
- قصدك أقدم الصخور في العالم.
تبتسم، في حين يستطرد هو:
- سأترك لكِ الأمر لتتحققي بنفسك من أن الصخور في عُمان هي الأقدم على الإطلاق في العالم.
تصمت قليلاً، تبتسم ثم تهزّ برأسها، وتقرصُ عينها اليسرى قبل أن تقول:
- لو سلّمنا بذلك يا بروفيسور فالأمر سيكون سلاحاً ذا حدين.
- كيف ذلك؟
يسألها بعد أن أثارت فضوله.
- أحياناً بعض الحقائق يجب أن تبقى غائبة عن الآخرين حتى لا تُشعل فيهم الطمع.
تقهقه بنعومة.
- لا تقلقي يا آنسة مروة، عُمان كانت وما زالت محمية من الرّب في سماه طوال كل السنين التي مضت.
يجيبها مبتسماً.
- حتى وإن افترضنا أن ذلك صحيحٌ يا بروفيسور، فبعض الحقائق إن صحت، لا يجب المجاهرة بها أمام الآخرين. تلك الحقائق ستُطمع الأصدقاء فيكم قبل الأعداء. أنت تعرف أن بعض أصدقائكم يسرقون تراثكم، وينسبونه إليهم، فما بالك بما يفعله الأعداء!
لا شك أن الفتاة التي أمامه بها الكثير من الغموض أيضاً. ما قالته لا يتفوه به في العادة من هو في سنها من الطلبة.
يثيره كلامها الأخير ذلك أكثر، لكنه لم يتمكّن في تلك اللحظة من تبيان ما إذا كان ما تلفّظت به نابعاً من خوفها عليه وعلى بلده من أطماع الآخرين، أم هي إحدى الحيل التي يلجأ إليها بعض العلماء للحصول على المعلومات التي يستهدفونها.
في كل الأحوال، لن يأخذ قولها على محمل الجدّ، فهذا عِلم، علِم مجرد، ليس للسياسة علاقة به. كما أن بلاده، وهي أقدم أرض قطنها الإنسان، مهدُ الحياة الأولى بلا شك، وبلا أدنى تشكيك ستكون أولى الأراضي التي يبعث منها البشر يوم الحشر؛ محمية منذ الأزل. عُمان كانت وما زالت محمية منذ أن خُلق التاريخ، ليس إلا لسبب واحد، وجود رفات أبي الخليقة فيها. أما ما ذكرته عن سرقة الأصدقاء لتراث عُمان؛ فإن الأمر لن يكون بذات السهولة حين يأتي الحديث عن الصخور وتاريخ الإنسان عليها، فتلك الدول قد تنسب الخنجر وخبز «الرخال[11] » وأحمد بن ماجد وجابر بن زيد إليها، لكنها لن تتمكن بأي حال من الأحوال أن تنسب الجبل الأخضر ولا جبل قهوان ولا جبال ظفار ومسندم إليها في الوقت الذي تخلو أراضيها السهلة المتناثرة طولاً وعرضاً من جبل صغير، بل حتى من هضبة يتيمة.
لطالما كان مقتنعاً بأنه مهما بلغت أطماع الآخرين في بلده، فإنها بلا ريب ستنكسر عند ملامستها تراب عُمان.
لا، لا خوف على عُمان، ولا على صخورها من أحد، فالله في سماه ظلّ يحميها لملايين السنين، وسيبقى حامياً لها إلى أن تقوم الساعة، بالذات منطقة الجوف. فلربما وصل الغزاة إلى بحار عُمان وشواطئها، لكنهم أبداً لم يصلوا «إلى جوفها». لتلك الدرجة يعشقها الله، الذي وعد آدم، وما كان نبيه

فقط، بل حبيبه بدا عن جميع البشر، والذي عجن له طينته بنفسه، ونفخ فيها من روحه؛ أن يحمي له الأرض التي احتضنته حينما غضب عليه وطرده من النعيم.

قال لربه بعد أن خلا لنفسه في كهف سليمان في الليلة الثانية من خروجه من جنته: أنت أعطيت أبليس الضوء الأخضر ليلج نفوس أبنائي، ويُوَسْوِس في صدورهم، ويعميهم عن الصراط المستقيم. فأجابه ربه: نعم، أعطيته ذلك. قال آدم وأنا أطلبُ منك أن تحمي الأرض التي احتوتني، واحتضنت أبنائي من القتل والحرب والدمار. فقال له ربه لك ذلك، ولكن فقط في الأرض التي تقف عليها اليوم يا آدم، أما بقية الأرض فسأترك الصراع مفتوحاً فيها لأرى لأيهما ستكون الغلبة؛ هل لإبليس؟ أم لرُسلي ومن يؤمن بهم؟

بقيت عُمان بعيدةً، بفعل وعد الله لابنه آدم، عن القتل والدمار والخراب. هكذا قدّر الله لها، ولن يتخلّى الله عما وعد به. لن يتمكن أحد إذن من أن يعيث فساداً وقتلاً في عُمان، فلن يسمح سبحانه لأي كان من البشر المساس بعُمان، وما عليها من بشر وشجر ورمل وصخر وجبال.

قال والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- على العلم ألا يراعي الأمور السياسية أبداً إذا كان ذلك ما ذهبتِ إليه في حديثك.

فتقاطعه:

- بروفيسور، أنت وأنا نعلم بأن سبب احتلال أمريكا للعراق هي العقول العالمة التي كانت تملأ العراق شرقاً وغرباً حينها. كثرة العلماء في أمة ما أحد أسباب القضاء عليها، عليك ألا تغفل أو تتجاهل تلك الحقيقة.

وكأنها استمعت للحوار الذي دار بينه وبين ابنه بالأمس، وكأنها علمت بعجزه عن الإجابة حينها فهبت لنجدته، ولكن بعد فوات الأوان.

«تباً، هل لكثرة علماء العراق دخلٌ في احتلالها فعلاً؟»، أليس البترول هو السبب؟ ولو كان العلماء هم السبب، فلماذا لم تقم أمريكا بتسميمهم بدلاً من احتلال بلدهم وقتل الأبرياء فيها من أطفال وشيوخ ونساء؟! هل أرادت بذلك أن تقضي كذلك على العلماء اللاحقين؟ هل وصل أمر الوحشية الإنسانية إلى ذلك الحد، قتل الأطفال الأبرياء خوفاً من أن يصبحوا علماء في المستقبل؟

ها هو يزداد يقيناً من أن مروة، تلميذته الصغيرة، أصغر تلميذة ماجستير لديه، ليست سهلة على الإطلاق. هذه التي تحدّثه بمثل ذلك الكلام، الذي يعجزُ عن قوله من يملك شهادة الدكتوراه من زملائه المحاضرين بالجامعة؛ غيرها تلك التي ملأت سوق نزوى بالضحك والمزاح مع كل من قابلته بالأمس. هي على ما يبدو تملك مخزوناً غير قليل من الثقافة والاطلاع. الواضح كذلك أنها قرأت العديد من الكتب في شتّى صنوف المعرفة. في عمرها الصغير ذاك تبدو على ثقة كبيرة وهي تتفوه بذلك الكلام.

يتساءل كيف لمثل من هي في عمرها أن تكون واثقة من نفسها، وهي تتحدث في أمور تبدو أكبرٍ منها، فلا سنّها ولا تجربتها في الحياة يمنحانها الحق في أن تتحدث بثقة شخص خبِر الحياة عقوداً عديدة من الزمن.

لا يزال الغموض يلفها، مع أن شخصيتها قد أعجبته كثيراً، بل وخلقت لديه الكثير من الأسئلة، جعلته في حيرة من أمره.

هو لا يدري تماماً ما ترمي إليه من وراء ما قالته. فهل قالته بسبب خشيتها على عُمان حقاً؟! لقد أقنعته نبرة صوتها بذلك، أم أن الأمر أعقدُ بكثير مما فهمه، ويصعب عليه -وفقاً للمعطيات المحدودة التي يعرفها عنها- سبر وإدراك أعماقه!

تلك الفتاة الذكية، التي لا يوحي شكلها الخارجي البسيط بأنها تملك كمية لا بأس بها من المعرفة، تمتلك شخصية أخرى في داخلها غير تلك التي يراها أمامه أو على الأقل التي رآها في سوق نزوى

القديم.

لا يمكنه في تلك اللحظة إلا أن يجزم بحبها لعروبتها وإن بدّلت جنسيتها، خصوصاً بعد أن قالت له وهي تهمّ واقفة عن كرسيها:

- نحن العرب مستهدفون دائما، شئنا أم أبينا، أحببنا ذلك أم كرهناه، كل من حولنا يمقتنا، ليس لأننا نملك ثروات هائلة كما نعتقد أو نتوّهم، بل بسبب موقعنا الذي يتوسط كل شيء، وبسبب ذكائنا الذي يخشى منه الآخرون، ولذا فهم يكرّسون جهودهم إما لتقزيمنا، وبالتالي إفقادنا الثقة في أنفسنا، أو القضاء علينا حين يشعرون بأن بيننا من يشكّل خطراً عليهم.

ثم، وهي تُرجع الباب خلفها مغادرة للمكتب:

- علينا ألا نكشف كل شيء نملكه أمامهم، لم يثبت التاريخ إلا جشعهم وطمعهم فينا، فلماذا نُسهِّل عليهم سرقتنا؟

استوقفته كلماتها الأخيرة هنيهةً، فبقي واجماً محدقاً في الفراغ الذي أمامه لا يلوي على شيء.

لا ريب في أنها صادقة فيما قالته. لقد شعر بنفسه، ومنذ زمن ليس بقريب، بوجود مؤامرة تحاك للعبث بجبال وصخور بلده من قبل الطامعين الذي يأتون من كل حدبٍ وصوب بدعوى الاستثمار. يشاركها ذات الخوف خصوصاً وهو يلمح العديد من جبال بلاده وصخورها تتحطم أو تُحطم، ليسكن مكانها شارع إسفلتي أو مجمعات سكنية، أو تتحول إلى أحجار تُبنى بها القصور والبنايات المتطاولة والمساجد الكبيرة.

سيكون لصخور البيريدوتيت والأفيوليت الهائلة، في المرحلة القادمة، حضورٌ كبيرٌ إذن في مشهد النهب والسطو، فهي الوحيدة القادرة على أن تسيِّل لعاب الكثيرين من اللصوص الطامعين في الثراء السريع.

تمنى حينها أن يكون وعدُ الله لنبيه آدم بحماية عُمان من الغزاة والمستعمرين واللصوص قد شمل حمايتها من أطماع أبنائها كذلك.

لكنه لا يملك الآن، وسط انشغاله بما في ذهنه من مشروع كبير، إلا أن يسدّ عينيه وأُذنيه عمّا قد يحدث لتلك الثروة الهائلة من الصخور في بلاده، وأن يُسخّر جُلّ تفكيره فيما هو بصدد التحقق منه. فهو في نهاية الأمر ليس عالماً جيولوجياً، وإن درس الجيولوجيا. هو أنثروبولوجي، يبحث في أصل الإنسان، والإنسان الأول بالذات، وغير ذلك من أمور لن يلتفت إليها في الوقت الحالي على الأقل. سيسخّر لذلك جزءًا من وقته في المستقبل، لكن ليس قبل أن ينهي أولاً المهمة التي بين يديه.

. وقعت عُمان خلال العصور الجيولوجية المختلفة في أقصى نصف الكرة الجنوبي، حيث كان المناخ شديد البرودة، فتكونت لذلك الأنهار الجليدية، وبقيت آثار تلك الأنهار ظاهرة للعيان في وادي الخلاطة بولاية محوت. (قبل 600 - 700 مليون سنة)

. خبر الرقاق

هذه المرة ركبت على الكرسي الواقع خلفه تماما في سيارة النيسان باترول البيضاء التي تملكها الجامعة والمخصصة للزيارات الحقلية، في حين جلس هو على الكرسي الأمامي بجانب خلفان الجالس أمام مقود القيادة.

لقد اكتشف للتو بأن لون عينيها ليس عسلياً كما رآه أول مرة، بل فستقيا، تماماً كما هو لون فستانها الذي ترتديه، فغدا اللون أقرب إلى لون عيني أنجلينا، وكان قد منّى نفسه أن تتخير الجلوس خلف كرسي خلفان بحيث يُمكّنه ذلك من النظر مباشرة إلى وجهها حين يدير رقبته نحوها ليحادثها.

وللتو ينتبه إلى أنه غفل عن ممارسة دور الرجل المهذب للمرة الثالثة. فبالإضافة إلى أنه لم يهمّ بفتح الباب لها، فات عليه كذلك، ولو كنوعٍ من المجاملة، سؤالها أولاً عمّا إذا كانت ترغب في الجلوس على المقعد الأمامي من السيارة.

سيستغل تلك الرحلة الطويلة للتعرف عليها أكثر. سيحاول بقدر الإمكان فكّ الطلاسم التي ما زالت تحيط بها. عليه ألا يضيّع وقتاً أطول في محاولاته لفهم طريقة تفكيرها والتعرف على قناعاتها، وعليه معرفة ما إذا كانت مروة قادرة ومستعدة فعلاً على مساعدته في إيصال قناعاته العلمية الجديدة إلى العالم الخارجي أم لا.

لا يملك طريقةً أخرى ليحيط بشخصيتها سوى الجلوس معها، والاستماع لما تقول. لم تكتب شيئاً حتى الآن، ولن يتمكن بالتالي من معرفة ما يمكن أن يثير اهتمامها، أو ما تسعى لأن يكون مجال بحثها الرئيسي. صحيح أنه وقف مسبقاً، حتى قبل وصولها نزوى، على قدراتها الذهنية التي بسببها سارعت الحكومة الأمريكية بمنحها الجنسية وفي فترة قياسية نادرة، إلا أنه يجهل ما يمكنه أن يدور بعقلها، أو الذي تفكر به وتخطط له، أو ما يخطط له من يقف خلفها!

مروة حاذقة، لا يمكن لأي فطن إلا أن يلحظ ذكاءها المتقد الواضح من طريقة كلامها وسرعة البديهة التي تتمتع بها. لذا عليه توخي الحذر معها. سيأخذ الوقت الكافي للتعرف عليها أولاً وقبل التسرّع بالبوح لها بأسراره الدفينة. ليس في عجلة من أمره. لا يوجد ما يدفعه إلى الاستعجال. لديه كل الوقت وأكثر.

سيخبرها بما يملكه من تلك الأسرار في الوقت المناسب، لكن ذلك لن يكون قبل أن تؤمن أولاً بمعتقداته، أو على الأقل أن يكون لديها من التقبّل لأفكاره ما يشجعه على البوح لها بما يخفيه. بعد ذلك، عليها أن تقف إلى جانبه، وأن تسانده وتدعمه لاستكمال مشاريعه. سيضع اسمها مع اسمه فيما سيكتبه. ذلك سيفرحها بلا شك؛ أن يظهر اسمها بجانب اسمه حلمٌ يتمناه حتى الحاصلين على شهادة الدكتوراه من زملائه.

هو لا يقل عنها خبثاً ومكراً لو أن تلك طبيعتها. ولكي يتحقق له ما يريد، تعمّد أن يبدأ مشواره معها بزيارة الصخور، والأودية الجليدية، وجذوع أشجار الصنوبر العملاقة المنتشرة في منطقة الحُقف، وزيارة حديقة الصخور في ولاية الدقم. تلك المناطق مشهورة عند الكل ومتاحة للجميع. هناك، لا يمكن لأي فرد أن ينكر ما يراه ماثلاً أمامه من تاريخ جيولوجي واضح وضوح الشمس، وقد تحدّث وكتب عنه العشرات من المتخصصين، ووثّق تاريخه ضمن برامج تلفزيونية وعلمية عديدة، إذ يكفي أن يدخل الشخص موقع اليوتيوب، ويكتب جيولوجيا عُمان، وعندها ستنهال عليه جملة البرامج التوثيقية تلك. تلك البرامج لم يصغها ويوثقها أحدٌ من أبناء عُمان، بل أبناء تلك الدول، أمريكا وبريطانيا بالذات.

تلك الأماكن ستُشكّل الأساس الذي سيبني عليه العديد من الخطوات الهامة لاحقاً. هكذا أراد؛ التصاعد التدريجي للمشاهد، ابتداءً بما هو معروف، وانتهاءً بما هو جديد لم يسمع به أحد، من الأسهل إلى الأصعب، ومن المعقول إلى ما هو خارج حدود المعقول.

***

تخيّر أن يسلك الطريق المتجهة أولاً إلى مسقط، لينعطف منها لاحقاً إلى الطريق المؤدية إلى صور باتجاه الجنوب الشرقي، لتكون مروة على مقربة من رؤية جبال الحجر الشرقي الشاهقة، والسيارة تقطع بهم الطريق الواصلة بين نزوى ومفرق صور. ظلّ يذكر لها بمساعدة خلفان أسماء القرى والبلدات المتناثرة على طول الطريق والقابعة بهدوء أسفل جبال الحجر، ليكتشفا بأن لدى مروة ما يساوي أحياناً ما لديهم من معلومات، حين يأتي الذكر على الصخور والجبال المتوزعة من حولهم.

وقفت سلسلة جبال الحجر المهيبة بامتدادها وتعرجاتها الكثيفة الواضحة على يسارهم، بارتفاعها الذي يعجز النظر عن الوصول إليه. تلك الصخور الصلدة تشكّلت طبقات بألوان مختلفة تفصل بينها خطوط واضحة. كل طبقة تحكي عن حقبة جيولوجية مختلفة عمّا أعلاها وأسفلها. تقطعها بين مسافة وأخرى الأودية التي تسقط عمودية على القرى الصغيرة النائمة أسفل منها.

حين تهطل الأمطار غزيرةً على قمم الجبال تنساب الأودية بصخب ولغط كبيرين، محطمة بقوتها وجبروتها كل ما يقابلها من صخور وأشجار، لتنزل كالشلالات الجارفة في مسارات الأودية، مطلقة مياهها كالرصاصة باتجاه البحر.

وحدها تلك المياه قادرة على تهشيم الصخور النارية الصلدة بسرعة لا يمكن تخيلها وبجبروت لا يمكن وصفه. منظر مخيف مهول، يصرخ بالرعب لا أقل ولا أكثر.

لا يريد أن يذكر لها الآن عدد المرات التي شاهد فيها غضب تلك المياه وهي تنحدر هائجة من القمم إلى القاع، ولا يريد أن يتذكّر عدد من جرفتهم تلك المياه من البشر من حولها، وقد أوهموا أنفسهم بقدرتهم على تحديها وعبورها في أوج مرجها ذاك. يجزم بأنه لم تبقَ عائلة في بلدان منطقة الجوف لم تفقد عزيزاً لها وسط تلك الأودية. هو نفسه فقد خالاً له مع أولاده الثلاثة وأمهم قبل عامين، حين قرر الأب المجازفة بهم نحو المجهول المؤلم. يومها لم يبق وادٍ من أودية المنطقة التي يتجاوز عددها المائة إلا وتفتقت مياه عيونها في الأعالي هاضمة في طريقها للبحر كل ما قابلها من حيوانات وحشرات وبشر وأشجار وصخور وطيور. في أحيانٍ عديدة تتجمع مياه الأودية الكبيرة؛ سمائل وسيجاء وهيل والهوب والسدر وطوي النصف وفنجاء، فتشكل ما يشبه النهر العظيم في طريقها نحو بحر عُمان. ما يحدث بعد أن يهدأ الطوفان هو أن ترجع الأرض عذراء كما كانت، لا يقطنها شجر ولا بيوت ولا بشر. ويحدث أيضا أن يرتفع منسوب البحر، فترتد مياهه، لتغرق البيوت الكثيفة المتراصة في منطقة السيب والحيل القريبتين من البحر.

كثيرون هم الذين آمنوا بأن الله أراد بذلك أن يغسل عن أهل منطقة الجوف ذنوبهم التي ارتكبوها مؤخراً. بل أراد كذلك أن يهلك بالغرق أولئك الذين اقترفوا الموبقات والسيئات، ليغسل عنهم خطاياهم، وليبعثهم يوم القيامة شهداء. فلقد وعد الله ابنه آدم أن لن يسكن النار أحدٌ من أبناء الجوف.

مجرد النظر إلى تلك الجبال على بُعد تلك المسافة التي تفصل سيارتهم عنها؛ يثير في القلب الهلع والجزع والشعور بالدوار.

- أتمنى لو أننا نستطيع التحليق بمروحية فوق جبال الحجر، أتمنى أن أرى من فوق طبقات الأوفيوليت العجيبة.

تبادرهم مروة.

- من الصعب جداً تحقيق ذلك، لا تستطيع الجامعة تحمّل التكاليف.

أحس بالندم مباشرة بعد فراغه من جملته تلك. لم يكن ليقول ذلك لو بقي في جامعة السلطان، فتلك كانت قادرة على توفير كل ما يمكن أن يفكر فيه. لكن الأمر اختلف معه في جامعته الجديدة الفقيرة والشحيحة بالموارد، والتي أبلغته ومنذ اليوم الأول لوصوله إليها بأنها بالكاد تستطيع توفير السيارة الحقلية التي يمتطيها. لو أنه الآن في جامعته السابقة لأضاف جبال «مرباط» الواقعة في جنوب عُمان

وجبال «مسندم» الساكنة في أقصى الشمال لجدول زياراتها الحقلية.

وغير تلك الأمنية التي صرحت بها فجأة ثم صمتت، لم تُسهب في الحديث معهما ذلك الصباح. ظلّت تتلقى منهما المعلومات، وتُعلّق عليها بشكل مقتضب متى ما كان لديها ما تقول. فيما أمضت بقية وقتها في الاستماع للأغاني التي حمّلتها على جهاز الأيباد الخاص بها، وقد وضعت سماعات الأذن على أذنيها منذ أن انطلقوا من الجامعة. في أحيانٍ ما يرتفع صوتها، وهي تردد الأغاني الأجنبية التي تسمعها، وفي أحيانٍ أخرى محدودة يهتزّ جسدها راقصاً مع الموسيقى. يبتسم خلفان، ويدير نظره نحو سالم، وعلى وجهه ابتسامة تارة، وتارة أخرى استغراب في كل مرة تهتزّ فيها مروة.

ليس ذلك هو الجو الذي تمنى حضوره في السيارة. ليس ذلك ما خطط له أن يكون. لقد أسرف كثيراً في الإعداد للرحلة، فجهَّز العشرات من الأسئلة التي سيطرحها عليها وهم يقطعون مئات الكيلومترات في ذلك الطريق الطويل الممل بالنسبة له. ومع ذلك، أمّل نفسه بالأوقات الطويلة التي سيقضونها معاً في رحلتهم التي ستمتد ثلاثة أيام على أقل تقدير. فهم بلا ريب، علاوة على ما سيقومون بزيارته، والوقوف عليه من تراث صخري متنوّع ومتوزّع في العديد من الأرجاء؛ سيقضون كذلك ساعات طويلة في تبادل الأحاديث. كما أنهم سيتناولون وجبات الإفطار والغداء والعشاء معاً، وسيتمكن خلالها من التقرب أكثر إلى عالم مروة الذي لا يزال مضبباً.

حين وصلوا إلى سناو، وقد قرروا التوقف قليلاً في مركز (اللولو) لشراء ما يمكن أن يسدّ جوعهم في الساعات المتبقية من الرحلة وحتى الوصول إلى ولاية الدقم، انتهزها سالم فرصة، فبادر مرافقه:

- ارتاح أنت الآن يا خلفان، سأقود أنا السيارة الآن.

- ما عليك يا بروفيسور، أنا قادر أُكمل المسافة إذا حبيت.

يرد عليه خلفان.

- لكن سالم أصرَّ، ليجد مروة تختار الجلوس على الكرسي الآخر هذه المرة، خلف كرسيه وهي تقول:

- وأنا أيضا سأغير من مكاني.

ولم يتبين ساعتها بشكل واضح ما إذا فعلت ذلك متعمدة، أم أن الأمر كله محض صدفة.

قالت تكمل كمن أحست بوقع ما قامت به على أُستاذها:

- الشمس في وجهي في ذلك الجانب.

قاد السيارة بسرعة أقل من تلك التي قاد بها خلفان.

عبروا بعد ذلك وسط قرية العيون، وبعد أن خلّفوها وراءهم، اختفت عن أنظارهم البيوت والنخيل وكل حسٍ بالحياة، لتبرز لهم تلك الصحراء الشاسعة المهيبة الممتدة إلى ما لا نهاية. الساعة تقترب من منتصف النهار حينها، والسماء زرقاء، لا تسكن في وسطها قطعة سحاب يتيمة.

مروا بعد ذلك بمزرعة كُتب على لوحة ضخمة علقت في بوابتها الأمامية «واحة برزمان»، كأنها ظهرت لهم فجأة من اللاوجود وسط الصحراء، وقد دارت حول سورها من الداخل أشجار خضراء كثيفة متراصة، فبدت أشبه بواحة شاذة ليست في مكانها، أو ليس لها علاقة بالمكان.

قالت مروة بعد أن أزاحت السماعات عن أذنيها، وقد أثار منظر المزرعة دهشتها وفضولها:

- هذي واحدة من عجائب الدنيا التسع؟ جنة وسط صحراء سرمدية؟! لا.. وأشجارها غريبة حولها.

لم يمض من الزمن الكثير منذ أن مرّ سالم بالمنطقة آخر مرة، لكنه اليوم يلمحُ مناظر مختلفة عليه تماماً. فبعد مزرعة برزمان، شده منظر مزرعة جديدة لتربية الدواجن استحوذت على كافة المساحات التي تسبق الوصول إلى بلدة (الجوبة) حيث تسكن صخور الحُقف، لدرجة أن الخشية انتابته من أن

تكون تلك المزرعة قد استولت على الصخور التاريخية التي لا يوجد لها مثيل أو شبيه على وجه الأرض، وحلت محلها.

لكن خلفان الذي أدرك سريعاً ما يدور في ذهن رئيسه، أكد له بأن صخور الحُقف بعيدة جدا عن امتداد المزرعة.

مروة حينها كانت لا تزال تستمع للموسيقى المنبعثة من جهازها، وبين الحين والآخر، وكلما شد انتباها منظر ما، أزالت السماعات عن أذنها لتلقي سؤالها على مرافقيها، ثم تعود إلى موسيقاها حالما تتحصل على الإجابة.

- يبدو أنك تستمعين إلى ما هو أهم من الحديث معنا يا آنسة مروة؟

هذه المرة، جاءها السؤال من خلفان.

- لا أبداً، لكن مثل هذه الرحلات الطويلة في السيارة تتعبني، والموسيقى هي الشيء الوحيد الذي يخفف عني التعب.

- ولكن ألا تريدين أن تعرفي ما ترينه الآن على جهة اليسار منك؟ إنه منظر جيولوجي لا يمكن وصفه.

يقول سالم مشاركاً في الحديث.

كانوا يمرون حينها وسط الرمال، وقد تشكّل عند أطرافها الشمالية جدار غريب من صخور رسوبية تكوّنت في البعيد، فبدت مثل سور ممتد يشبه إلى حدٍ كبير سور الصين العظيم. انتبهت مروة حينها وقد ارتسمت علامات الدهشة على وجهها. قالت بعد أن حدقت ملياً فيما تراه:

- شكلها رمال رسوبية.

كانت بعيدة جداً عنهم، ورغم ذلك استطاعوا رؤيتها. رمال تكوّمت فوق بعضها بعضاً على مرّ السنين، فغدت كجدارٍ متموج تشكّل بفعل الضغط المتزايد عليه من الرياح القادمة من كل الاتجاهات، جدار لا يبدو أن له أوّلاً ولا آخر.

- يقول العلماء أنها ترسبات لسبخات ملحية مضى عليها أكثر من 500 مليون سنة، إنها فريدة من نوعها وربما الوحيدة في العالم.

يقولها سالم.

- لكنني لم أقرأ عنها.

تقولها مروة، وتردف:

- يبدو أنكم مقصرين في حق بلدكم!

نظر إليها من خلال المرآة العاكسة أمامه راسماً على وجهه ابتسامة صغيرة قبل أن يقول:

- الصحيح أننا نتبع نصيحتك، مقصرين حتى لا يطمع فينا الآخرون.

ظلت مروة لبعض الوقت مُنْشدّة إلى تلك المناظر قبل أن تسألهم عن إمكان زيارة تلك الصخور خلال رحلتهم.

يضحك خلفان وهو يجيبها:

- هذي هي الصخور التي سنزورها بعد الغد. نحن الآن في طريقنا إلى الدقم، البروفيسور سالم عدّل البرنامج من دون حتى أن يأخذ رأينا، يريد يعرّفك على حديقة الصخور أولاً.

***

انقضى من النهار أكثر من نصفه حين وصل الثلاثة إلى «فندق المدينة» في الدقم، ومروة التي

ذهبت في نومة قصيرة والسيارة تغادر محوت، استفاقت على صوت خلفان وهو يشير إلى مكان حديقة الصخور التي سيقومون بزيارتها مطلع الصباح الباكر قبل العودة إلى محوت.

وصلوا والإرهاق قد نال منهم حينها، فاتفقوا على أن يلتقوا عند السابعة على وجبة العشاء في المطعم الوحيد في الفندق الواقع عند مدخل الشارع المؤدي إلى ساحل الدقم، حيث يشيّد الميناء الكبير وحوض السفن الجاف. وبين الفندق والساحل، في الوسط تماماً، تبعثرت صخور الحديقة التي جاؤوا لمشاهدتها.

حين وصلت بهم السيارة إلى مدخل البلدة صدمهم منظر غريب نبت حديثا في الولاية الهادئة التي كانت تملأ أرجاءها البيوت المصنوعة جدرانها من جذوع أشجار السمر والسدر والنخيل، وقليل منها من الطين العتيق، وغطت أسقفها بجريد وسعف النخيل كذلك. منظر جديد وعجيب ذلك الذي ظهر أمامهم؛ شارع إسفلتي واسع قطع الولاية الى نصفين مختلفين عن بعضهما تماما. بلدتان متجاورتان لا تبدوان للرائي أنهما تمتّان لبعضهما بأية صلة، بل إن الشارع ذا الخانات الثلاث في كلا الاتجاهين، والمزيّن وسطه بأعمدة حديدية حديثة ملّونة الأجزاء وبرؤوس إضاءة ذهبية لامعة، والذي حلّ عليهم فجأة وفصل البلدتين؛ يثير في حد ذاته الدهشة والاستغراب، وهو يخرجهم من شارعهم الضيق، الأحادي الاتجاه، والمليء بالحفر والمطبات وقد تكسّرت أكتافه؛ إلى حيث منظر لم يألفوا رؤيته وسط بلدان الصحراء.

أخذهم المشهد على حين غرّة. فحانت من سالم وخلفان، بشكل لا إرادي، التفاتات متكررة لليمين ولليسار. فعلى الشمال وقفت بيوت حديثة تماما، بل مجموعة بيوت تضمها أسوارٌ عالية موحّدة الألوان، تشمخ في وسطها بناية ضخمة شاهقة لا تمت بصلة لما يدور حولها من جبال رسوبية جرداء وتلال وكثبان رملية متناثرة في المساحات. بينما سكنت في الجانب الأيمن بلدة الدقم القديمة ببيوتها العتيقة وأسوار الأراضي الخلاء المنخفضة الخالية إلا من الرمال، والحيوانات السائبة السارحة بداخلها من قطعان الماعز والبعران الكبيرة منها والصغيرة، وثمة أعداد قليلة من أبقار وثيران ناحلة جائعة تبحث في الممرات وعلى مداخل المحلات وعند أكوام الزبالة المكدّسة هنا وهناك عن بقايا طعام. هالهم كذلك تزايد وجوه أولئك القادمين من شرق آسيا، وهم يتوزعون زرافات وفرادى وسط الطرقات وداخل المحلات الصغيرة المحدودة العدد.

تغيرتْ الدقم سريعاً، وسريعاً جداً في نظرِ سالم الذي زارها قبل عامين، فيومئذ ما كان للمدينة الجديدة، التي انبثقت في الطرف الشمالي وحلّت مكان الكثبان الرملية، من وجود.

انتابته ابتسامة ساخرة وهو يتساءل عن الكيفية التي سيتمكن بها علماء الأنثروبولوجيا من وضع تفسير لمثل تلك الظاهرة بعد سنوات من الآن؟! فكيف يمكن لمدينتين مختلفتين في كل شيء أن توجدا في ذات الوقت وفي ذات المكان؟! لا، ليستا مدينتين، بل مدينة اسمنتية حديثة في جانب، وقرية بدائية عتيقة في الجانب الآخر، وقد فصل بينهما شارع معبّد ملّون شاذ لم يرَ مثله سوى في المدن الكبرى كنيويورك وهونج كونج. حتى مسقط بشوارعها العديدة والواسعة لا تملك مثل ذلك الشارع.

أيقن حينها بأن مهندسي العصور الحديثة الذين يجهلون فعلاً تاريخ الإنسان وحضاراته المتعاقبة التي تطورت بشكل طبيعي منتظم، يمكنهم القيام بأعمال تتفوق على المتعارف عليه من صيرورة طبيعية للحضارات. لقد قفز المهندسون ببلدة الدقم، الواقعة في الجانب الأيمن للشارع المرابط للبحر، ثلاثة عصور للأمام على أقل تقدير في خلال سنتين من الزمان لا أكثر.

شعرَ بأن الأمر غير طبيعي، وأن ذلك المشهد الغرائبي الذي يَمْثُلُ أمامه قد يحتاج جُهداً استثنائياً لشرحه وفقاً لنظريات ظهور الحضارات واختفائها.

- هؤلاء يستطيعون العيش في أي مكان تضعهم فيه، لا، وقادرون بعد على التأقلم مع البيئة مهما

كانت قاسية عليهم.

يقولها خلفان وهو يشير بيده إلى تجمع عدد من الآسيويين قدّام أحد المطاعم.

- صحيح، هؤلاء وبدون أن ندرك نحن الآن، يؤسسون حضارة جديدة تتوسع بهدوء شديد ودونما صخب، لكنهم سيكونون الأساس هنا ذات يوم، وسيكون على أهل الدقم البحث لهم عن مكان آخر يعيشون فيه.

يضيف سالم.

***

لم يكن مبيتهم في الدقم مخططاً له في السابق، قرر ذلك سالم وحده ومن تلقاء نفسه دون أن يستشيرهما. لكن مروة التي تعشّم أن تكون معهما على طاولة الطعام فضّلت البقاء في غرفتها ليلتها مكتفية بطلب سلطة. لم تلبث بعدها أن خلدت إلى النوم، فبدا لسالم أن خططه للتعّرف عليها بسرعة قد شرعت في التعثر منذ اللحظة الأولى. لكنه مع ذلك ظل واثقاً من توفّر متسعٍ من الوقت كي يحيط فهماً بشخصيتها.

الانطباع الذي تعزّز عنده أكثر وأكثر هو أن طالبته تلك ليست فتاة عادية. ذلك الشعور الذي أكده خلفان حين بادره:

- يبدو أن عقل مروة أكبر بكثير من سِنّها يا بروفيسور، تعطيك انطباعاً بأنها ذكية جداً.

- صحيح، البنت مُتَوقِّدة الذّكاء ولذلك اختارتها جامعة كولومبيا لتكون هنا، كان يمكن أن تبعث لنا بأي أحد من طلبتها الأمريكان. لكنهم اختاروها هي دون سواها لأنهم واثقون من أنها أفضل من سيأتيهم بما يبحثون ويفتشون عنه من حقائق ومعلومات.

يقول سالم. فيبادره خلفان سريعاً وهو يُقرِّب رأسه من رأس سالم وبصوت أقرب إلى الهمس:

- هل تتوقع أن تكون بعوضة؟

- نعم؟؟ بعوضة؟!

يردد سالم الكلمة باستغراب هازًّا برأسه في إشارة منه على عدم إدراكه ما تعنيه تلك الكلمة، أو ما يقصده محدّثه من ورائها.

- أقصد جاسوسة يا بروفيسور، كأنك ما سمعت هذه الكلمة من قبل؟

يتلوّن وجه سالم في البداية، ثم يبتسم قليلا. يهزُّ رأسه بعدها علامة على عدم تصديقه لما يسمعه. لكن خلفان يستمر في حديثه في محاولة لإقناع سالم بصحة حدْسهِ:

- ما ممكن وحدة مثلها تجي لحد نزوى إلا لأن لها أو لمن أرسلها أهدافا غير الماجستير وبس.

يصمت قليلاً وهو يتأمل وقع كلامه على جليسه، وحين لا يرى الأثر الذي ترجّاه، يُعدِّل في نبرة صوته وهو يضيف:

- هذا طبعاً مجرد إحساس ليس إلا، يمكن أكون مخطئا في ظني.

لكن سالم تعمّد حينها الإبقاء على تقطيب جبينه وحاجبيه، وكأن الأمر الذي يسمعه مفاجئاً له، رغم أن القناعة بأن لوجود مروة بينهم أهدافاً أخرى غير الدراسة، كانت قد ترسّخت في ذهنه منذ أن غامرت جامعتها العريقة بسمعتها ومدت يدها لتتعاون مع جامعتهم.

بالنسبة إليه فإن ذلك أمر لا يلزم الحديث فيه بكثرة والجدل حوله. لكن أهدافها غير المعلنة تلك بنظره، لا تتعدّى المجال العلمي الصرف، بحيث لا يبتعد عن حقل الجيولوجيا بأي حالٍ من الأحوال. ووفقاً لشكوكه المدعومة بحقائق واضحة يعيها هو دون غيره؛ فإن مروة بينهم بسببٍ تلك الحقائق الجديدة المكتشفة عن الإنسان والصخور، والتي لم تكن لهم اليد الطولى فيها. هم لم يتقبّلوا بكل تأكيد

أن يكون مصدرها رجل من بلدان الربع الخالي، بدوي أغبر ينوس على ناقته فوق الرمال الحارقة. أما ما يتفوّه به خلفان فهو مخالف للعقل والمنطق، ولا يمكن لمثله أن يتقبّله.

- لماذا لا تقول شيئاً بروفيسور؟ أتمنى أن يكون ظني ما في محله.

لم يجد حينها بدًّا من الرد. قال محاولاً تصُّنعَ الابتسامة:

- أكيد ما في محله، أنت شطحت بعيد يا خلفان، هي تتجسس على ماذا؟! ومن من راح تاخذ المعلومات اللي تقصدها أنت؟ منّا نحن؟!! أنا وأنت مثلا؟! وبماذا سنفيدها نحن من معلومات؟ أعتقد إن كلمة جاسوسة ليست مناسبة لوصف مهمّة مروة هنا. أكيد هي هنا حتى تجمع بعض المعلومات، ولكن معلومات جيولوجية، يمكن أنثروبولوجية، فقط لا أكثر ولا أقل. غير ذلك لا يقبله عاقل.

- أتمنى ذلك يا بروفيسور.

- لا يمكن أن يكون إلا ذلك.

يقولها وقد انتابه لسبب ما شعورٌ بالضيق مما سمعه. لم يلبث بعدها أن استأذن منصرفا لغرفته في محاولة لعدم تبيان ضيقه لخلفان. قال يودّعه وقد جاهد أن يرسم على وجهه ابتسامة أوسع بقليل هذه المرة:

- خلفان، قبل ما تنام ابحث في جوجل عن معنى التجسس، أعتقد إنك خالط الأمور فوق تحت، التجسس لا يكون إلا في الحروب.

يقرص عينه اليسرى وهو ينهي جملته تلك.

إلا أن ما سمعه للتو من خلفان لم يكن ليمرَّ مرور الكرام، فقد قضى ما يربو الساعة ليلتها وهو يقلب الأمر في رأسه، متسائلاً لما يمكن أن يحدث لو صدق قوله، واتضح لاحقاً أن الأغوار السحيقة التي تحاول مروة الوصول إليها أعمق بكثير مما خطرعلى باله.

ربما يكون زميله على حق، ربما لديه من المعلومات ما يجهلها هو، فالعميد صهر خلفان، والأخير قد يكون مجرد ناقل لما سمعه من صهره أو أخته، في الوقت الذي لم يشأ العميد برغم صداقتهما، أن يُطلعه على هواجسه التي لا يملك هو الآخر دليلاً على صحتها.

في كل الأحوال ليس ما قاله خلفان من بنات أفكاره، ليس هو من يتحدث أو يفهم في السياسة، نادراً ما فعلها، وإن تحدث ففي العادة يكون نقلاً عن آخرين. ومع ذلك لم يلبث أن هزّ رأسه غير مقتنع بالأمر برمّته حتى لو كان مصدره من له شأن كبير في الحكومة وليس منصور. قناعته التي يصعب زعزعتها أنه لا يملك ما يمكن لجاسوسة سياسية أن تحصل عليه، فهو بروفيسور في الأنثروبولوجيا، علم الانسان، لا شيء آخر. أما إذا قصد خلفان أنها تتجسس عليه شخصياً، على اعتبار أنه يمثل خطراً على العالم، أو على الأمريكان خصوصاً؛ فإن الأمر لا يتعدى أن يكون مزحة.

تذكّر ما قالته عن علماء العراق وأسباب احتلال الأمريكان لبلادهم، وتساءل في داخله ما إذا كانت مروة قد أرادت بذلك أن تبعث إليه برسالة لكي يخفف من ذلك الحماس العلمي الذي يعيشه خشية أن ينقلب ضده؟!

هل طُلب منها أن توصل إليه تلك الرسالة؟

لكنه سرعان ما هزّ رأسه مرة أخرى، ولكن هذه المرة بشكل أقوى شعر معه بدوخة في الرأس، وهو ينفي لنفسه وجود فرصة ولو صغيرة في أن يكون مثل ذلك الاحتمال وارداً. قال محدثاً نفسه في غرفته، بصوت مسموع، وهو يضحك بسخرية من قصور تفكيره: «أمريكا عندما احتلت العراق كانت تستهدف علماء الكيمياء والقنابل النووية وليس علماء الأنثربولوجيا المساكين الذين لا يحلّون ولا يربطون».

عند السابعة صباحا تجمّع الثلاثة على مائدة الطعام. كانت مروة أكثر انشراحاً حينها، وقد بات واضحاً أن ساعات الراحة والنوم الطويلة التي احتلت جسدها قد ساعدتها على استعادة كامل نشاطها. عيناها عادتا بنيتين كما كانتا أول مرة، وقد ارتدت ذات القميص الذي رآه عليها عندما قابلها للمرة الأولى في مكتب العميد.

انطلقوا بعدها باتجاه حديقة الصخور التي كانت تبعد مسافة قصيرة عن الفندق. كانت سعيدة بما تراه صباحها، وقد علقت الابتسامة في وجهها طويلاً، ثم ساعدهم الجو المعتدل في بقائهم بين الصخور لأكثر من ساعتين ريثما تتمكنُ من التقاط العشرات من الصور للصخور التي تشكّلت تارة على هيئة حيوانات ضخمة كالفيلة والديناصورات، وأخرى على صورة إنسانٍ له رأس بتجاويف للعينين ورقبة وكتفٍ وحيد، بينما بترت بقية أعضائه، وثالثة على شكل طير صافقاً بجناحيه في الهواء، ورابعة على صورة كرات صخرية ضخمة تشبه نبات الفطر، وكأنها نبتت من الأرض.

في إحدى الزوايا يوجد حصان يجري مذعوراً وخلفه «فارس حديقة الصخور»، يمتطي الفارس صهوة حصانه، ويلاحق الحصان المذعور في محاولة من لأسره. فارس الحديقة ذاك كان ضخماً للغاية، غريب الملامح، لا هو إنسان ولا هو حيوان، بين بين، بل أقرب إلى أن يكون وحشاً ملتبس المعالم.

هكذا عرّفها خلفان على الفارس، وشرح لها ما يعنيه المنظر الذي يشاهدونه أمامهم.

شد الفارس انتباهها أكثر من أي شيء آخر، فالتقطت له أكثر من عشرين صورة ومن كافة الزوايا. ثم طلبت من خلفان أن يلتقط لها صورة، وهي تضع رأسها داخل فكّ التمساح الذي بقي مفتوحاً طوال تلك السنوات رغم أنه لم يكن مصنوعاً سوى من رمال رسوبية ضعيفة. قال خلفان وهو يشير إلى مجموعة الأرانب القابعة بصمت وذعر بالقرب من التمساح إن الديناصورين الواقفين في الخلف هما من قاما بوضع تلك الأرانب كطعم للتماسيح لأجل أن تبرح بحيرتها الرملية، وهي جائعة خلف الأرانب، لتنقضَّ عليها خطفاً بعد ذلك.

خلفان كان ماهراً في حكايته لتلك القصص. لكن الأسف سرعان ما احتل صفحة وجهه حين لفت انتباهه فقدان فارس الحديقة لإحدى ذراعيه التي كان يحمل بها سلاحه، فبقيت له اليمنى التي يحمل بها حبل القنص.

- عوامل التعرية بدأت في نهش الحيوانات المتبعثرة في الحديقة.

يقولها خلفان.

- لن تصمد هذه الحديقة طويلاً.

يضيف سالم، ويكمل:

- يجب نقل محتوياتها بعيداً إلى حيث لا ريح ولا أتربة تعصف بالمكان.

- أو ترميمها..

تهتف مروة، وتكمل وهي تبتعد عن مكان وقوفهما:

- توجد مواد قادرة على حفظ مثل هذه الآثار، أستغرب أنكم لم تلجأوا إليها. نصف الحيوانات تشوهت بسبب الريح والرمل ولا أحد حرّك ساكناً.

«حرّك ساكناً!!» يكررها خلفان لسالم مبتسماً، وهو يقول «حتى لغتها العربية أحسن من لغتنا».

الشيء الذي لم تستطع مروة أن تقتنع بحقيقة وجوده هي تلك الصخرة التي تشكلت على هيئة كرة دائرية ضخمة، وقد تدّلت من صخرة صلدة ضخمة تعلقت بها من خلال عمود متماثل من الصخر كذلك من دون أن تقع على الأرض على الرغم من مرور الملايين من السنين. قاومت كل شيء، عوامل

التعرية والجاذبية وبقيت مناضلة في مكانها. «الشرح الوحيد الممكن لمثل هذه الحالة هو أن الجاذبية معدومة تحت الصخرة، وإلا فهذه ستكون أعجوبة أخرى من عجائب الدنيا» تقول مروة.

أعجبها ما رأته رغم أنها لم تغفل أن تذكر لسالم بأنها تشك في أن يكون عمر تلك الصخور 90 مليون سنة. قالت مشككة:

- هذه صخور رسوبية لا يمكن أن يكون عمرها بمثل ذلك القدم، قد لا يتجاوز عمرها مئات السنين لا أكثر.

- لكن كل من زارها من زملائك، علماءِ الجيولوجيا، جزم بأن عمرها أكثر من ذلك.

يجيب خلفان وقد حمل صوته نبرة غضب خفيف.

- لا يستطيع أحد مهما امتلك من معرفة أن يجزم بشكل دقيق عمر الصخور الرسوبية، هذه هي الحقيقة المؤكدة، عدا ذلك فهي مجرد اجتهادات.

تقولها وهي تنبش الرمل الملتصق بصدفة بحرية عالقة في إحدى الصخور، وتردف، وهي تقترب من مكان وقوفه:

- هذه القوقعة على سبيل المثال لا تزال حديثة العهد، من الصعب أن تكون موجودة قبل 90 مليون سنة.

سالم الذي استغل الفرصة لمراقبة حركات مروة مدققاً في كل ما كانت تقوله، لم يشأ أن يُعلِّق حينها. لكنها أصرت أن يبدي رأيه بعد أن بيّنت له عدم ارتياحها من صمته.

كانت متوهّجة أمامه، ترتدي نظارة شمسية دائرية ذات عدسات بنية فاتحة لا تحجب ملامح العينين خلفها. خدّاها متوردان، وأنف أنجلينا المستقيم المنمنم تَغطّى بطبقة خفيفة لامعة من الزيت. شعرها الفاتح يثور ويتماوج مع هبوب الريح، وهي تحاول بلا نجاح جمعه بيديها حول عنقها الجميل الصافي. كانت تقف أمامه مرتدية حذاء أرضياً أسود مناسباً للمشي على الرمال والصخور. قمة رأسها تجاوز بقليل عظمة كتفه. إنها طويلة، «حتى أطول بقليل من خلفان» يهمس لنفسه.

قال وهو يرسل لمروة تلك الابتسامة القصيرة المعتادة.

- لست عالم جيولوجيا متخصصاً للأسف، لذلك سأصدق ما يقوله علماء الجيولوجيا في هذا المجال.

تبتسم، وهي ترد عليه بنبرة تقع في الوسط بين السؤال والتعليق:

- لذلك لم تذكر هذه الصخور في أيٍّ من أوراقك.

يضحك مسايراً حديثها:

- هذه صخور حديثة بالنسبة إليّ، أنا أبحث في القديم جداً.

- إذن لماذا نحن هنا بروفيسور؟

هذه المرة كانت واضحة في ملاحظتها. باغته سؤالها، لكنه خمّن مسبقاً أنها ستطرح عليه مثل ذلك الاستفسار.

- كل علماء الجيولوجيا الذين جاءوا إلى عُمان زاروا هذه الحديقة، يجب ألا تكون مروة عالمة الجيولوجيا المشهورة في المستقبل مختلفة عنهم.

يردّ عليها بنظرة مركّزة في وجهها بعد أن زرع ابتسامة عريضة على وجهه.

كرّوا بعدها ساحل الدقم، وتوقفوا لتناول وجبة الغداء في فندق الكراون بلازا القابع فوق البحر مباشرة، والذي تمنت لو أنهم اختاروه للسكن بالأمس بدلاً من ذلك الفندق الصغير الذي يبعد عن البحر مسافة ليست بقليلة.

قالت، وكانوا يذرعون رمل الشاطئ الذي امتلأ بالمحّار والقواقع الوردية وصغار السلطعونات

الهاربة منهم إلي أوكارها داخل الرمال:

- هذا مكان خلّاب يسلب العقل، كأني في حُلم.

تصمت قليلا، ثم تكمل:

- واحدة من أمنياتي في الحياة أن أتمكن من العيش في مكان مثل هذا.

تتوقف لحظة، تجلس على الرمال لتخلع عنها حذاءها وجوربيها، لتمشي حافية فوق تلك الرمال والقواقع، ثم تكمل الحديث الذي بدأته:

- لا بد أن آتي هنا وحدي يوما من الأيام، وسأحقق حينها ما كنت أحلم به منذ طفولتي.

- وما هو ذاك؟

يسألها خلفان.

- سأجري ساعات فوق الرمال، ثم أغطس لساعات في مياه المحيط، ولن أتناول طعاماً سوى ذلك القادم من البحر.

تقف فجأة ضد اتجاه الريح الخفيفة الباردة. تفتح ذراعيها استقبالا للهواء المنعش البارد، تتنفس شهيقا طويلا، وهي تغلق عينيها مستمتعة بتلك اللحظات التي وصفتها بأنها «نادرة».

- دائما أحلم أن أعيش مثل هذه الحياة.

تضيف.

- الحياة قصيرة يجب أن يستغل الواحد منا لحظات الجمال فيها ليحياها بهدوء وراحة بال.

هل كان يقول مثل تلك الجملة في السابق «الحياة قصيرة يجب أن نعيشها صح» نعم كان يقولها، بل كان يكررها دائماً على من حوله من أصحاب.

- هذا الجو المنعش يطيل العمر ويُذهب الهمّ.

تختم حديثها وهي تمضي باتجاه موج البحر الذي غطّى كامل قدميها الصغيرتين المحمرتين عند الحوّاف.

«الهمّ؟!»

تصدمه الكلمة.

كيف يمكن لمن في مثل عمرها وتجربتها القصيرة في الحياة أن يصاب بالهمّ؟ ماذا خبرت في الحياة حتى يخالطها الهمّ. يتساءل بينه وبين نفسه باستغراب.

سالم ظلّ في مكانه على مبعدة من مياه البحر يراقب حركاتها من بُعْد. لاحظ تركيز خلفان حينها على كل ما كانت تقوم به مروة. عيناه تذرعان جسدها، والهواء يلصق قميصها بجسدها، لتبرز تقاسيمه الجميلة المتناسقة. خلفان الذي وبشكل تلقائي كان يقترب من البحر مع دخول مروة في مياهه؛ ألفى نفسه وقد غاصت قدماه هو الآخر في المياه الباردة وقد نسي أن يخلع نعليه. حين نبّهه سالم، ردّ عليه ضاحكاً:

- قُلت أكون قريب منها حتى لا تغرق في البحر وما من أحد بجانبها لينقذها.

لسبب أو لآخر قرر سالم المبيت ليلتهما في فندق الكراون. حجز ثلاث غرف، ودفع تكلفتها من جيبه. قفزت هي سعيدة حين سمعت بذلك. قامت تشكره وكانت قاب قوسين أو أدنى من أن تحضنه. قالت بأنها سترتدي ملابسها الرياضية، وستجري على الشاطئ وقد دعتهما لمشاركتها. اعتذر منها، بينما وعدها خلفان بأنه «سيحاول» وهو الذي لم يجرِ ولا مرة واحدة طوال حياته. لكن سالم الذي ابتسم لخلفان وهو يهزُّ رأسه مذهولاً مما يسمعهُ حذرّه من مغبّة المغامرة «لو فعلت لربما وقف قلبك بعد دقيقة من الجري». اختفت بعدها عن ناظريهما.

لم يرها سالم بعد ذلك إلا في صبيحة اليوم التالي. لم تتناول وجبة العشاء معهما، ولم ترد على اتصالاتهما بغرفتها. اختفت عنهما تماماً. خلفان قال بأنه رآها تسبح في مياه المحيط بملابس الرياضة حتى انقضاء النهار كله، ولم يشأ أن يُخبره بأنه «يظن» أنها هي من لمحها تدخل حانة الفندق في المساء.

لم يغفل سالم عن نظرات الإعجاب التي بدأ يطلقها خلفان على مروة كلما كانت معهما. الأمر الذي لم يكن كذلك عند بداية رحلتهم، ولا حتى حين سأل عمّا إذا ما كان يعتقدها جاسوسة. إعجابه ذاك بدأ في الوضوح أكثر حينما كانوا في حديقة الصخور، ويبدو أنه تمدد بعد ذلك.

في الساعتين اللتين قضوها في الحديقة لاحظ سالم متابعة خلفان المستمرة لمروة في كل حركة تقوم بها. ظلّ يراقبها عن كثب، وثمة ابتسامة دائمة وغامضة منطبعة على وجهه، خصوصاً وهي تحمل الحجر بين يديها، وهي تنفخ عليه ليتطاير الغبار المتراكم على سطحه، وهي تشير بيديها ناحية الصخور، ثم وهي تلتفت وتبتسم تلك الابتسامة التي لا يجد لها وصفاً سوى أنها من النوع الذي يقع في الخط الفاصل بين البراءة والإغواء. وحين رفعت ذراعيها لتستقبل الريح الباردة، ليبرزَ أمامه تكوّر نهديها؛ كانت عيناه وربما يداه قد تخللتا قميصها ولمستا صدرها. وعندما لامس مشط قدميها العاريتين الجميلتين موج البحر؛ مشّط خلفان بنظراته المركّزة قوامها من أعلاه إلى أسفله، وهو يتدحرج خلفها ببطنه المنتفخة. كان يتحرك مدفوعاً برغبة أعمت نظره، فلم ينتبه لوجود ثالث معهما يتابع عن قرب ما يجري بصمت.

لا يلومه. لقد أدرك هو كذلك أن لمروة سحراً ما قادراً على إثارة الاهتمام.

هو أيضا انتبه لحركات مروة وسكناتها، وأعجبه فيها ثقتها بنفسها وعلمها أكثر من أي شيء آخر. وغير ذلك فكل ما حاولت مروة فعله، من وجهة نظره، هو أن تُصبغ نفسها بصبغة اللامبالاة واللاهتمام بما ذكره قبلها علماء الجيولوجيا الذين سبقوها بعقودٍ طويلة من البحث والتمحيص في المجال. تأكد له حينها أن الجمال نادراً ما يكتمل، فقد أحرقته بغرورها الغريب ذاك.

أكثر ما يُعجبه في أنجلينا هو ذلك الجانب الإنساني، ذلك التواضع للطبقة المسحوقة من البشر. أنجلينا مغرورة هي الأخرى، بل شديدة الغرور، لكن غرورها ذاك عادة ما يكون مع الحق، وليس ضدّه كما تفعل مروة.

عليه من الآن فصاعداً، كذلك، الالتفات إلى حركات زميله، و«خفّة عقله» المعروفة، والتي تتلبّسه حال رؤيته فتاة حلوة. عليه أن يُعقّله، ويخطم جنونه، فخلفان مزواج، يعشق النساء، تزوج من ثلاث، ولديه من الأبناء ما يفوق العشرة، رغم صغر سنه الذي للتو تجاوز الأربعين، ويتوقع الجميع ممن يعرفه ومن سمع عنه، بمن فيهم سالم نفسه، أن أمر زواجه بالرابعة مسألة وقتٍ لا أكثر.

***

وصولهم منطقة الحُقف تزامن مع انتصاف النهار تماماً، لكن الجو حينها كان بارداً، وبالكاد أحسوا بحرارة أشعة الشمس المرسلة عمودياً فوق رؤوسهم. المؤكد أنها لم تشعُر بأية حرارة، وهي تنطلق مبتهجة برؤية بقايا القوقعيات والأحافير المنتشرة فوق الرمال. كانت مثل طفلة وجدت لعبتها المفضلة، فشمّرت عن ساعديها، وشرعت في جمع الأصداف والقوقعيات وقطع الصخور التي التصق بها بعض الأصداف وبقايا عظام لكائنات بحرية مجهولة. وقفت مذهولة قدّامَ قطعة صخرية متحجرة، تشكّلت كحوض دائري من ترسبات طحالب رقيقة قبل أكثر من 600 مليون سنة.

- لا يمكن أن يكون عمر هذه القواقع أكثر من 500 مليون سنة.

تصرخ من بعيد، والابتسامة تغطي وجهها، فيأتيها صوته صارخاً هو الآخر:

- أنتم جماعة الجيولوجيا من قال ذلك، عليك أن تثبتي خطأكم.

يضحك هازئاً، ومعه يضحك خلفان.

لكنها لم تعبأ بتلك السخرية.

أعجبه ما يراه منها ساعتها، فطوال سنوات تدريسه السابقة لم يرَ مثل ذلك الحماس والشغف في

طلبته جميعاً، وقد درّس المئات منهم. بل لم يرَ حتى تلك اللحظة طالبة، أنثى، تنتعش، وتقفز فرحاً بما تراه من صخور وقوقعيات مجردة، لا أكثر.

ملأت علامات الاستغراب وجه خلفان هو الآخر، ليقترب بسببها من سالم ليهمس له:

- هل هي عاقلة؟ إيش اللي يفرّحها في الموضوع؟

- يبدو أنها سخّرت فِكْرها وعقلها للدراسة يا خلفان، يبدو أن هذه هي كل حياتها، أو أنها الحياة التي اختارت أن تعيشها.

يندهش خلفان من إجابة سالم.

- هل تريد تقول لي أنها لا تفكر في الزواج وفي أن يكون لها بيت وأولاد؟

يصدمه السؤال، ولو أنه توقعه. يصدمه أكثر أن يكون زميله على قناعة بأنه لا حياة بدون زواج.

- ربما.

يجيبه وهو يبتعد عنه بغية إنهاء ذلك الحوار الذي بدا له أنه سيستمر بلا توقف.

لم يخطئ الظن إذن، فها هو خلفان يشرع في التفكير بالزواج من طالبته الأمريكية. هكذا بكل بساطة وسهولة. ولماذا يفكّر مطولاً بالأمر؟ قرار مثل ذلك بالنسبة إليه بسيط ولا يحتاج إلى طول تفكير. بل إنه أبسط من شرائه لسيارته الخاصة التي تردد في اختيارها أكثر من أسبوعين، ولم يُقدم على اقتنائها إلا بعد أن استشار العشرات من معارفه.

ظلّت مروة تنتقل، أكثر من ساعتين، من مكان إلى آخر، وهي تجمع ما تستطيع من القواقع وبقايا عظام وصخور التصقت بها أحافير متنوعة. الاثنان ظلا يراقبانها من بعد. سالم كان مسروراً بالمشهد. ذلك الحماس المنقطع النظير الذي يراه متقدا في طالبته عنصر مهم جدا لنجاح ما خطط له. شجّعه ذلك أكثر في أن تشاركه اكتشافه الجديد القادم. لا ريب في أنها ستطير من الفرحة وهي تسمعهُ يقترحُ عليها أن يُدرِجْ اسمها مع اسمه في ورقته العلمية الجديدة. ستفرح بلا شك وستبذل كل ما في وسعها لتُساعدهُ في تأكيد صحة اكتشافه. وربما ستهبُّ للدفاع عنه، وعن بقية مشاريعه السابقة والقادمة أمام أساتذتها حين تعود أدراجها إلى نيويورك.

يشعر الآن بالراحة مما يراه. لقد بعث الله إليه الطالبة المثالية لمخططاته.

قال لها وهم يتناولون الفطائر الخفيفة متوسدين الرمال تحت ظلِّ إحدى أشجار السمر اليابسة التي كانت بالكاد قادرة على حجبِ نصف ما يصلهم من أشعة الشمس.

- يعجبني فيك هذا الحماس، أكاد أجزم بأن الزيارات القادمة ستثير اهتمامك أكثر وأكثر.

يقول لها، بينما يحوّل خلفان مسار الحديث إلى حيث المناطق التي تشغل ذهنه حينها، فيسألها:

- هل ستقضين حياتك هكذا بين الصخور والأوراق؟

تضحك قبل أن تجيبه:

- أجل، ربما.

عرجوا بعدها إلى حيث تتناثر صخور الجرانيت التي انبثقت من باطن الأرض إلى سطحها في شمال غرب منطقة الحُقف قبل أكثر من 600 مليون سنة. حدث ذلك في أقدم فترة جيولوجية عرفها العالم؛ العصر ما قبل الكمبري. لكن مروة رغم ما ارتسم على وجهها من قناعة واضحة على قِدم تلك الصخور النارية أبقت على غرورها وادعائها بعدم صحة ما يُقال. لكنها لم تغفل أن تذكر بأنها «أخيراً فرحت برؤيتها للصخور النارية».

عادوا بعدها للمبيت في استراحة محوت التي تقع في التقاطع المؤدي إلى ولاية الدقم من جهة وإلى محوت وجزيرة مصيرة من جهة أخرى. إلا أن مروة لم ترتح لتلك الاستراحة، وقد جزمت منذ الوهلة

الأولى بأنها لن تتمكن من النوم فيها. لكن الخيارات حينها غدت معدومة. اعتذرت ثانية عن تناول العشاء معهما، كما لم تطلب سلطة هذه المرة. قالت «أنا مكتفية بما تناولته من سندويشات في وجبة الغداء»، على الرغم من مرور أكثر من سبع ساعات على تلك الوجبة.

شعر حينها بالإحراج. لم يخطر على باله مسبقاً ردّة فعلها تلك. لقد أخطأ في الحساب هذه المرة، يقرُّ بذلك. لم يتفطن بما يكفي أن من برفقتهم ليست سوى فتاة في نهاية الأمر. فتاة رقيقة لم تعتد على مثل تلك الأماكن. «هل كنت ستحجز لسميرة في هذه الاستراحة مثلا؟» لو انتبه لكان قد استأجر بيتاً صغيراً للمبيت لتلك الليلة. كل ما كان سيتطلبه الأمر منه هو أن يتصل بواحد من تلاميذه القادمين من محوت، ولقام ذلك الطالب بالواجب على أكمل وجه.

شعر بعدها بالندم، الذي ازداد حدّة عند رؤيته لعيني مروة المحمّرة جداً في صبيحة اليوم التالي. أخبرتهم بصوت متهدّج مرهق أنها لم تنم ليلتها أبداً، ولم تُشفع عبارات الاعتذار الكثيفة التي أطلقها أن تُعيد إلى وجهها حيَويته، كما لم تُسعفه عباراته من الخروج من حالة الشعور الحاد بالندم. انطلقوا بعدها باتجاه وادي الخلاطة حيث الأودية الجليدية وأشجار الصنوبر العملاقة.

قاد السيارة بمهل شديد، وهو يراها تُرجع كرسيها إلى الخلف، وتذهب بسرعةِ البرق في نومة عميقة. كانت متعبة بشدة لدرجة أنها لم تشعر باهتزازات السيارة، وهي تقطع الشارع الترابي المسكون بالحفر والحجارة.

أخذ منهم الشارع أكثر من ساعتين حتى وصلوا بسلام. لم يُحدِّث كلاهما الآخر، لزما الصمت خشية إيقاظها. لكن حالها ذاك تبدّل فجأة عند وصولهم، بل تحوّل مائة وثمانين درجة في الاتجاه المغاير. فما إن أوقف دوران المحرك، وفتح الباب الذي انتشلها صوته من نومها، حتى هبّت مذعورة من كرسيها، وكأنها رأت كابوساً مخيفاً في نومتها القصيرة تلك. مررت نظرها في الاتجاهات الأربعة، ثم فتحت الباب لتقفز فوق الرمال بكل همّة وعزيمة، برغم كل ذلك التعب الذي كان واضحاً عليها، والذي بسببه كانت تشخر بصوتٍ مسموعٍ وهي نائمة.

انطلقت بعدها بكل خفةٍ وفرح إلى حيث المسطح المنبسط الذي لا يمكن إلا أن يكون أحد الأنهار الجليدية التي جففتها، وصلّبتها سنون القحط بعد ذلك. هكذا قال لها خلفان؛ النهر الجليدي مرّ من هنا، حدث ذلك في القرون الغابرة، قبل أكثر من 300 مليون سنة، وكان ينحدر بشكل مستقيم باتجاه البحر. تحده من الجانبين ضفتاه اللتان تراكمت عليهما الرمال المتحجرة والصخور الرسوبية والقواقع البحرية المختلفة وجذوع أشجار مختلفة لا تعيش سوى في مناطق المناخات المعتدلة والغابات الممطرة.

أذهلها ما تراه وهي تتلمس بيديها الخدوش التي تشكّلت على أرضية النهر الجيرية، والتي نحتتها قطع الحجارة الضخمة التي كان يحملها الجليد العابر في تلك الأزمان.

أعادت تلك الفرحة التي انبعثت في جسدها قليلاً من الرضى في نفسيهما، وبالذات في نفس سالم، الذي لم يشفع له تعطفه عليها الليلة التي سبقت البارحة حين حقق لها واحد من أحلامها بالمبيت في فندق الكراونٍ الرائع في الدقم.

- هذي فعلاً مهبولة.

يبادر خلفان بالحديث وهما يلمحانها، كما كانت عليه بالأمس، منطلقة بفرح طفولي استثنائي قلّ أن يوجد، تلتقط الصخور، وتخطو كالطفلة على تلك الأرضية الزلقة المصقولة التي كانت يوماً ما، نهراً من جليد.

- السيارة مليئة بالصخور والقواقع، ما أعتقد باقي مكان فيها للمزيد من الصخور والقواقع.

يضيف خلفان وهو يلمحها تملأ الخيش الصغيرة التي تحملها بين يديها.

أكثر ما أثار انتباهها، وفغرت بسببه فاهها؛ رؤية جذوع أشجار الصنوبر الضخمة وقد تحجّرت

مشكّلة خطوطاً مختلفة وواضحة بين بقية الصخور الرسوبية، ثم لم يلبث أن أخرج لها خلفان من بين كومة الصخور المتناثرة قطعاً من ثمار الصنوبر المتحجرة هي الأخرى. شاهدت بعد ذلك جذوعا ضخمة من بقايا تلك الأشجار، وقد وقفت صامدة على مدى ملايين السنين وسط الرمال الكثيفة.

قالت والدهشة تملأ وجهها أنها لم تشاهد مثل ذلك في حياتها، وأنها لا تستطيع أن تنكر عظمة ما تراه ماثلاً قدامها من تاريخ جيولوجي فريد.

وتكمل بعد أن تأخذ ثواني في التمعن في الثمرة التي بين يديها، والتي تساوى طولها مع طول القلم الذي تحمله:

- لم أرَ مثل هذا من قبل.

- عُمان كانت تعيش في القطب الجنوبي ذات يوم، أو بالأحرى قريبة منه. هل اقتنعتِ أنك الآن في بلدة قديمة جدا قِدم التاريخ الصخري الذي تعرفينه.

يُواصل:

- هذه المنطقة وجبل قهوان الذي سنزوره لاحقاً تكوّنا في العصر الجليدي ما قبل (الكمبري) كما تسمونه أنتم، يعني قبل حوالي 600 مليون سنة. قاعدة جبل قهوان الجرانيتية عمرها بليون سنة، وربما أكبر من ذلك.

يعلو وجهها علامات الدهشة، ثم لا تلبث أن تهز رأسها علامة على عدم التصديق، لتنطلق ثانية إلى حيث الصخور وأشجار الصنوبر.

تعجبه مشاهد الطفولة التي يراها حاضرة بكل تفاصيلها في وجه طالبته. إنّ خارجها الذي يبدو قوياً وأحياناً غامضاً، وقد شعرَ في بعض الأحيان أنها فتاة عصبية لدرجة كبيرة؛ غير داخلها الذي تسكنه طفلة صغيرة نزقة حين تعثر على ما تُحب. ذلك الجانب الجميل منها والذي تخفيه عنهما، تتعمّد على ما يبدو أن تكشفه أمامهما بين الحين والآخر لغاية ما.

هل فعلاً تتعمّد فعل ذلك؟ يتساءل. لكنه تذكّر أن هذه الفتاة التي تتقافز أمامه مثل غزال، لا تزال صغيرة في السنِّ، بالكاد تخطت مرحلة الطفولة قبل سنوات قليلة جداً لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة، فلماذا يعتقد أنها تملك من الخبث ما يملكه من هو في ضعف عمرها.

لكن ذلك الإعجاب لا يُعدُّ شيئا امام الإعجاب المختلف الذي ينمو ويتعملق رويداً رويداً في عمق خلفان تجاهها.

- هل أنت مخطوبة يا آنسة مروة؟

يسألها بعد أن عادوا إلى داخل السيارة لتناول حبات التفاح والبرتقال والموز التي استطاعوا شراءها ذلك الصباح من محل يتيم بجانب الاستراحة، وقد اتفقوا أن يكون ذلك وجبة غدائهم إلى حين وصولهم إلى سناو بعد نحو ثلاث ساعات. كان الثلاثة قد فقدوا ثقتهم في قدرة مطاعم محوت على توفير طعام «طازج» لهم ذلك اليوم.

مروة كانت قد رفضت حتى اقتراح خلفان شراء حبات من الأسماك الطازجة من الصيادين مباشرة والطلب من أحد المطاعم طبخها لهم.

«الزيوت التي يستخدمونها للطبخ ربما استخدموها ألف مرة من قبل». قالت لهم.

لم يُعجبه ذلك السؤال المفاجئ وغير اللائق من زميله، فانتظر أن تردّ عليه مروة بكل حدّة وغلظة. انتظر منها أن تُظهر له غضبها لحظتها. لكنها، على عكس ما توقع، أجابته بكل هدوء، راسمة على وجهها ابتسامة قصيرة «لا طبعاً».

تصمت وهي تنقّل نظراتها بينهما ريثما ترى وقع كلامها عليهما. تكمل وابتسامتها تتسع أكثر:

- لا أنصح أحداً بالزواج مني، فليس من الإنصاف أن يتوّرط إنسان بريء في حياتي المجنونة، إلا إذا حماته داعية عليه.

تقهقه بعدها.

أدهشته حينها أكثر. فإجابتها تلك التي لم يتوقعها كانت أفضل بكثير من التي تمنى سماعها منها. هي في ذلك المستوى من سرعة البديهة، لا ينقصها الذكاء ولا الحدس الفطري. هي صنف من الإناث قل أن يوجد، لا يمكن مقارنتها بأحد ممن عرفهن في مشوار حياته.

خلفان الذي من المفترض أن يكون قد استوعب ما قالته للتو، والذي بدلاً من أن ييأس ويتركها في حالها كما مررت إليه ذلك في فحوى جملتها تلك، زاده كلامها إعجاباً بها. ذلك كان واضحاً من نظرته تلك التي أرسلها إليها، وهو يصغي بكل ما ملك من جوارح وأحاسيس لما تقول.

قال هامساً لسالم:

- هذي ما بس مهبولة، لا وتهبّل العقل بعد.

لقد قال الحاج صالح السيفي في السوق عنها بأنها تهبّل العقل كذلك، قالها وكررها مرتين. قال عنها ثلاثة أمور لا يزال يتذكرها: تعيد للشايب شبابه وترد الروح وتجنن العاقل.

برحوا المكان بعدها على الرغم من أن مروة كانت على استعداد، رغم الإرهاق الواضح على وجهها للبقاء وسط تلك المناظر التي أسرتها، وسيطرت عليها لساعات طويلة بعدها. شدّها ما رأته بقوة، فطلبت من سالم أن يمنحها فرصة أخرى للقدوم إلى ذلك المكان في وقت لاحق. ولم تنسَ أن تكرر عليهما حينها من أن مثل تلك الصخور والأشجار التي تحكي تاريخا قديماً وعظيماً يجب أن تتحوّل إلى مزار عالمي يعرف عنه البعيد قبل القريب. لقد حكت حينها عن بعض الدول التي تحولت إلى منتجعات سياحية شهيرة على الرغم من أنها لا تملك تلك المقومات التي يملكها بلدهم الغامض الذي وصفته في لحظة بأنه «متحف طبيعي خلّاب يأسر الألباب».

مرّوا في طريقهم بجدار الرمال المتحجرة وهم يبتعدون عن وادي الخلاطة. «جدار من صخور رسوبية تشكّل بفعل التقاء الرمال القادمة من ثلاثة اتجاهات وتكدُّسها. الرياح المتضادة الاتجاهات حجزت تلك الرمال وتسبّبت في تراصّها بقوة بعضها فوق بعض». يشرح خلفان لمروة ما تراه أمامها.

تضحك. ليست واثقة من صحة ما تسمعه. تتساءل أمامهم: كيف يمكن للرياح أن تهب على منطقة ما من ثلاثة اتجاهات في آنٍ واحد؟!

لكن سالم الذي أكد لها صحة ما سمعته، وقد شعر بأنه قد بدأ في فهم شخصية طالبته «الصعبة»، قال ليزيد مساحة الدهشة في داخلها:

- بعدك ما شفتي شي آنسة مروة، هذي بلاد العجائب.

يضحك خلفان قبل أن يقول محاولاً إضافة جوّ من المرح على الحوار:

- صحيح، بعدك ما شفتي شي آنسة مروة. في بُهلا، ممكن تشوفي الشمس تشرق من الغرب.

يضحك وتضحك معه. «هل فهمت ما عناه خلفان؟» هل قرأت عن بُهلا أو حدّثها أحدهم عنها؟» بالتأكيد أن ذلك حصل. لا يصل إلى نزوى أحد دون أن يتسابق البشر ليخبروه عن السحر والسحرة والساحرات في بُهلاء. أمه المسكينة تنقّلت من ساحر لآخر لأكثر من ثلاثة أيام باحثةً عمن يمكنه إخراج زوجها السجين في القلعة من محنته «ويطير» به إلى حيث لا يمكن لأحد الوصول إليه. لكنها عادت من رحلتها تلك بخفي حنين بعد أن عجز كل السحرة المشهود لهم بالعلم والحيلة عن فعل شيء.

ثلاثة اتجاهات للرياح في ذات الوقت أمر لا يصدقه حتى المعتوه. لا يصدقه طفل. لا يحدُث ذلك إلا إذا وقف خلفه ساحر. سالم نفسه لم يصدق تلك القصة حين سمعها لأول مرة. مشهد الرياح القوية القادمة

من اتجاهات ثلاث، وهي تصبُّ جلَ غمّها على تلك الرمال من دون أن يؤثر أحد اتجاهات الريح في اتجاه الأخرى أو يكسرُّه أو يمنعه من الوصول؛ أمرٌ لا يقبلهُ عقل أو منطق، أمرٌ لا يمكن أن يكون سوى ضرب من خيال، تماماً مثل قصص الأساطير الخرافية.

«الرياح تكون متساوية حينها في القوة القادمة من الاتجاهات الثلاثة». إن قول علماء الجيولوجيا يحتاج إلى برهان. تلك الريح التي يتحدثون عنها لم تظهر ثانية منذ نهاية العصر الكمبري كما يقولون. لو كانت تلك الظاهرة تقع ضمن دائرة اهتماماته لأشبعها بحثاً وتقصيا حتى يقف على حقيقة ما كُتب وصدقه الجميع.

قالت وهي تقلب بين يديها عدداً من ثمار الصنوبر المتحجرة:

- أنتم فعلاً شعبٌ طيب. في دول أخرى، واحتمال في بقية دول العالم، مثل هذه الحفريات لا يمكن لأي أحد كان أن يصل إليها، ليس بدون ترخيص من السلطات المختصة. هذه ثروة لا يمكن أن تُقدر بثمن، يلزم الزائر أو الباحث تصريح خاص للوصول إلى هنا، بينما عندكم يمكن لأي أحد أن يأتي ويأخذ ما يريد بلا حسيب ولا رقيب. لو كنت في دولة أخرى لحُكم علي بالسجن عشر سنوات أو أكثر بسبب ما أخذته.

تقولها وهي تشير إلى ثمار الصنوبر بين يديها.

يلتفت خلفان لسالم وهما يبتسمان لما قالته قبل أن يُعلِّق:

- قصدك شعب كريم؟

يضيف سالم:

- وأنت الصادق، قصدها شعب ساذج، وهي صادقة في وصفها.

لم يحقق سالم كل ما تمناه من رحلته تلك، فلم تتفاعل مروة معه، رغم حركاتها الطفولية، بالشكل الذي تمناه، وقد توقع منها أن تملأ المكان والأوقات حديثاً وابتسامات، خصوصاً في تلك الساعات الطويلة التي قضوها داخل السيارة. فصورتها وهي تصافح كل الذين مرت بهم في سوق نزوى ضاحكة مع كل من صادف وجوده أمامها ظلّت هي الحاضرة في ذهنه، وهم يشرعون في بدء رحلتهم تلك. لكنها رغم ذلك نجحت باقتدار في أن تُعزِّز إعجابه بها.

أكثر ما لفت انتباهه إليها هو ذلك الغموض الذي أحاطت نفسها به سواءً عن قصد أو بدونه. فالفتاة التي بكل جسارة «ورجولة» تصعد الصخور، وتتسخ ملابسها ويداها وقدماها بالأتربة والرمال، وتجري كالطفل بلا كلل ولا ملل وسط الصحراء وفي عزّ الظهيرة، تصبح هي ذات الفتاة التي لم تستطع النوم في تلك الاستراحة.

ثمة ازدواجية في شخصيتها. ففي مشهد ما منحته انطباعاً بأنها على استعداد حتى للنوم في العراء وفوق تلال الرمال المخيفة الممتلئة بالزواحف والوحوش، وأنها تملك من القوة والشجاعة ما لا يملكه مثيلها من الرجال، وفي مشهد آخر تبدو خائفة وضعيفة ومرعوبة على رؤيتها صرصوراً صغيراً يختفي تحت سرير نومها، ويبقيها على أعصابها طوال الليل.

حتى اللحظة، وفقاً لتحليله المبدئي والأولي عنها، فمروة تملك شخصيتين متناقضتين. لكن ذلك سيكون آخر ما يهتم به. سيركّز على ذلك الجانب الذي أعجبه منها، بالذات ذلك الشغف الكبير الذي يتملّكها للتعرف على تاريخ وأسرار ما يصادفها من صخور.

مخططهُ العلمي يمضي بنجاح إذن، فقد هزّها ما رأته، وبالتأكيد ستكون متشوقة إلى رؤية المزيد، حتى وإن بدر منها في أكثر من مناسبة مواقف أقل ما يقال عنها بأنها مضحكة، خصوصاً حين يتعلق الأمر باستخفافها بتاريخ الصخور التي زارتها وما قاله عنها زملاؤها من الجيولوجيين من قبل، الأحياء منهم والأموات. لن يلتفت إلى تلك الأمور الثانوية، لن يعيرها الكثير من الاهتمام، فربما تكون تلك طريقتها في لفت الانتباه، ربما تعوّدت أن تكون مثار الاهتمام والحديث أينما حلّت من خلال استخدامها طريقتها غير المعتادة تلك. ليكن لها ما تريد، وليكن له أن يصل بها إلى ما يريد.

تخيّل للحظات مدى سعادتها واندهاشها حين تقف أمام ما أخفاه حتى الآن عن العالم بأسره. قد يتوقف نبض قلبها لدقائق حين ترى ما يكتمه سراً عن بقية العلماء؛ ذلك الكهف الصغير، والصغير جدا، والعظام التي بداخله، تماما كما احتوت تلك الصخور في وادي الخلاطة على جذوع أشجار الصنوبر العملاقة وثمارها. ذلك الكهف الذي قام سليمان النبهاني، ومنذ أكثر من ثلاثة عقود من الزمن بوضع بوابة حديدية خضراء على مدخله الشرقي، وأبقاه مغلقاً طوال تلك السنين «لسبب مجهول» كما نقلوا له؛ يضمُّ في داخله ما سيعيد كتابة تاريخ البشرية جمعاء. يحوي في جوفه ما يؤمن بأنه سيجعل من الجبل الأخضر مزاراً عالمياً هائلاً هو الأشهر عبر تاريخ البشرية قديمه وحديثه على الإطلاق. سيجعل الجبل الذي نزل عليه آدم قبلةً جديدة ليس لأصحاب دين معين، بل لسائر الأديان الباقية على الأرض. آدم أب البشرية جمعاء، هو نبي كل الخلق، وكل الأديان، وكل الرسالات. من ضلعه الأعوج خُلقت أم البشر، ومن نطفته خُلق كل من جاء بعده من رُسلٍ وأنبياء أصحاب رسالات. آدم الذي لم يأتِ بدين معين، ولا رسالة معينة، ولا بُعث إلى قوم أو أمة معينة، هو جامع كل تلك الديانات، هو نبي الديانات كلها، المرجع الأكبر.

سيتراكض الجميع نحو ضريحه طلباً للبركة، وسوف تصبح تلك الصخور المباركة المتناثرة حوله قِبلة لكل من أراد التقرب إلى ربّه وطلب المغفرة. أما كيف ستصبح حالة الجبل الأخضر وحالة أهل سيق بالذات فإنه أمر يصعب التكهن به أو تخيّله. سيتحوّل الجبل الذي لا يزوره في اليوم الواحد عدا من يملك أهلاً أو أصدقاء فيه، وفي العادة لا يحدث ذلك سوى نهاية الأسبوع أو خلال الإجازات

الموسمية؛ إلى قاطرة من البشر والسيارات المترابطة والمتراصة من أسفل الجبل إلى حيث الكهف.

أعادته تلك الصورة من الطابور البشري الذي له بدايةٍ، وليست له نهاية، إلى مشهد أدهشه منذ سنين، وتوقع أن يتكرر ذلك المشهد في الجبل مستقبلاً. كان يومها في زيارة لمدينة «كاندي» في وسط سريلانكا، وقد صعقه خط الرجال غير المنتهي وهم يصطفون في انتظار دورهم لدخول «معبد السن المقدس» الذي يوجد بداخله أحد أسنان معبودهم العظيم. سيكون للجبل مثل ذلك المشهد وأكثر. وتخيل حينها صف البشر الممتد من مطار مسقط وحتى «كهف آدم»، أو كهف سليمان.

ذكر له أحدهم بأن سليمان اكتشف ذلك الكهف وأقام عليه تلك البوابة قبل أن يوارى الثرى بأيام معدودات فقط، وكان قبل موته قد حذر الأهالي من مغبّة الاقتراب أو دخول الكهف، متحججاً بوجود جنّي شرير بداخله يصيب من يتجرأ على دخوله بفقدان العقل والجنون الفوري. بعدها بقي الكل في حالة خوف مستمر من التجرؤ على كسر القفل الفولاذي القديم الموضوع على مزلاج الباب، إلى أن جاء هو، فقرر المغامرة، بدخول الكهف من مدخله الضيق الواقع أسفل هضبة جبلية مخيفة في الجانب الغربي من جبل سيق الأسود. ذلك المدخل الذي عثر عليه مصادفة حين كان يتتبع امتداد طبقات صخور الأفيوليت المنضّدة التي توّقع أن تشكل سبقاً علمياً جديداً لعلماء الجيولوجيا كونها تسكن منفردة أسفل بقية طبقات الأفيوليت المتوزعة على قمم سلاسل مملكة جبال الحجر الممتدة إلى ما لا نهاية، تفصل بين الاثنين ثلاث طبقات من صخور نارية أخرى. لم يكتشف أحد قبله وجود طبقة من الأفيوليت المندسة بين طبقات صخرية أخرى، كل ما شاهدوه هي تلك التي على الأسطح، أما أن تكون موجودة كذلك بين صخور أخرى فإن الأمر يحتاج وحده إلى سنين طويلة من التحليل والبحث.

لا شك أن سليمان «المجنون» كما أطلق عليه الأهالي في سيق، قد سبقه إلى اكتشاف رفات الإنسان الأول التي بقيت مقاومة لكل الظروف المناخية طيلة الآلاف من السنين التي مرت وهي تتناثر فوق مصطبة صخرية داخل الكهف حيث صلّى آدم صلاته المقدسة الأخيرة، صلاة الوداع الكبيرة التي شهدت حضور الملائكة يتقدمهم عزرائيل والجن والشياطين، وحيث سجد أبو الأنام سجدته الأخيرة وهو يستغفر ربه، ويبكي وينتحب ويكرر، ولم يقم منها بعد ذلك حياً.

قرر سليمان بعدها منع الجميع من دخول الكهف والاحتفاظ بالسرّ لنفسه لسببٍ غير مفهوم. ربما فضّل سليمان حين ذاك إرجاء كشف السرّ إلى حين، لكن المنيّة عاجلته بأسرعٍ مما توقع. موته المفاجئ كما يذكر معارفه أكد للجميع صدق ما حكاه عن الشؤم المرافق لكل من يحاول أن يقترب من ذلك الكهف، فقد كان أول من مسّه ذلك الضرّ حين تعثرت قدمه، فسقط وهو في طريق هبوطه للقرية النائمة أسفل الوادي، فهوى من ارتفاع أكثر من خمسة أمتار، ليسقط هامداً لا تند عنه أدنى حركة فوق حصى وادي سيق العميق، وقد تهشم رأسه، وتناثر مخهُ قطعاً صغيرة على الحصى.

طريقة موته المؤلمة تلك كانت صادمة الجميع، فسليمان القوي المهاب، وقد كان شيخ قبيلته، اعتاد السير على ذات الطريق المؤدية إلى حيث ما يملكه من مزارعِ الرّمانِ والمشمش والسفرجل في وسط سيق، والعائدة به إلى بيته يومياً، ومنذ أكثر من خمسين عاماً، ولم تزلّ قدمه فيها أبداً ولا مرة.

حكى صهره بعد الواقعة بأيام للمقربين منه أن سليمان كان قد وعد زوجته بكشف سر الكهف لها تلك الليلة. «لو كان فعلها لذهبت زوجته معه كذلك» يقولها الصهر.

لعنت زوجته كل من كان يأتي بيتها ليطلب منها الضغط على زوجها لمعرفة سرّ الكهف. قالت لولا ضغطي المتزايد عليه لعاش سليمان مدى الزمان.

***

في البيت، وبعد أن أدى صلاة المغرب، بقيت حركات مروة الطفولية حاضرة أمامه، فألهاه ذلك عن الالتفات إلى ابنته زهراء الجالسة إلى جواره والتي لم تخبر منه ذلك من قبل، فقد اعتادت أن يبادرها

دائماً وأبداً بسؤالين، وبشكل يومي تقريباً: «كيف كانت المدرسة اليوم؟» و«هل تحتاجين مساعدة مني؟».

انتبهت زهراء إلى انشغاله وراقبته بشيء من الفضول، وهو يتناول جهاز تشغيل التلفاز، ثم وهو يقلّب القنوات الفضائية ليستقر عند محطة روتانا كلاسيك التي تبث أغاني عربية قديمة.

لم تره يفعل ذلك من قبل، قنوات الأخبار وديسكفري وناشونال جويجرافيكس هي المفضلة لديه في ساعات استرخائه. ثمة أوقات قليلة، حين يكون مرهقاً جداً، يُشغل ما تبقى له من وقت قبل الخلود إلى النوم في متابعة إحدى الأفلام الأجنبية، لكنه نادراً ما يستمع للأغاني. ما تعرفه عن أبيها كرهه للأغاني والموسيقى بشكل عام. كثيرة هي المرات التي ذكر لها ولأخيها أن سماع الموسيقى ليس إلا مضيعة للوقت الذي ينبغي أن يُسخَّر فيما هو مفيد فقط. ما تراه الآن يُناقض مقولته تلك، فقد توقف عند تلك الفضائية، ولم يتركها إلا بعد أن أنهت أم كلثوم أغنيتها «أنت عمري». بعدها أعاد تقليب المحطات من جديد، وحين لم يجد ما استحوذ على اهتمامه، عاد ثانية إلى قناة الأغاني، ليجد فيروز هذه المرة تصدحُ بأغنية «ع هدير البوسطة».

لم تشأ أن تسأله، أو تبادره الحديث، فعلامات الإرهاق بائنةٌ بوضوح على وجهه. لاحظت سميرة الأمر نفسه وهي ترتب الصحون فوق مائدة الطعام.

- ما كان فيه داعي تروح لحد الدقم، يعني من قلة الجبال والصخور في نزوى؟ وين ما تلتفت يقابلك جبل. يكفيك جبل شمس لوحده.

تقول له.

لم ينتبه إليها. وهي لم تعتد على رؤيته بمثل تلك الحالة كثيراً. يبدو أمامها مرهقاً وشارد الذهن، فاختارت حينها أن تتركه لقليلٍ من الوقت ريثما تقوم بإعداد الشاي الأخضر الذي يفضل شربه قبل تناول وجبة العشاء.

لقد أقنعهم بشرب كوب من الشاي الأخضر قبل تناول وجبات الغداء والعشاء، مؤكداً لهم بأن ذلك صحي جداً، ويساعد على هضم الطعام بسرعة، والتخلص من الدهون «السيئة». سميرة بقيت الوحيدة التي امتنعت عن الأخذ بنصيحته. ظلت تعيد عليه، حتى يئس منها، أن ما يؤمن به ليس إلا كذبة اخترعتها شركات الشاي لكي تسوّق منتجاتها «للمساكين».

تلك الجملة التي ظلت تكررها منذ السنوات الأولى لزواجهما اكتشف مؤخراً فقط حين كان على طاولة العشاء مع أبيها وهم يحتفلون بعيد الأم، أنها في الأصل لأبيها، وأنها نقلتها عنه، ولم ترضَ أن تتنازل عنها، حتى وإن كانت في داخلها على قناعة بصحة كلام زوجها.

- سالم، من الأحسن أن تاكل وتدخل الغرفة لتنام وترتاح، شكلك اليوم هلكان على الآخر.

تقولها، وقد لاحظت شدة الإعياء على وجهه وقد بدا عليه النعاس. رأسه يوشك أن يسقُط على حجره وهو مسترخٍ على كنبته، وبالكاد كان قادراً على إبقاء عيونه نصف مفتوحة.

لكنه لم ينتبه إليها أيضاً، فعاودت الكرّة، هذه المرة وهي تضع يدها على كتفه الأيمن وتهزّه بلطف. جفل حينها بعد أن غرق في بحر من الأفكار المتلاطمة التي لم يعهدها على الرغم من شدة التعب الجسدي الذي يشعر به.

يعيش لحظات غريبة عجيبة عليه بالكاد يقف على أسبابها. فها هو وجه خضراء يعاود الظهور أمامه من جديد، وها هي عيناها الجميلتان تلاحقانه في بيته ووسط عائلته.

استقام عن كنبته واعداً نفسه بإعادة تحليل الوضع - بعد أن ينام قليلاً - في حكاية تلك الفتاة التي شرعت تغزو تفكيره، بل وتمادت بشكل لم يحسب له حساب. تلك الصبية اليانعة التي لا يجوز له حتى مجرد التفكير فيها، تختال بحرية في ثنايا جمجمته بينما يقف عاجزاً عن ردّها. كيف يسمح لها بفعل

ذلك به؟! وكيف رضي لها أن تحتل تلك المساحة من تفكيره حتى وهو في بيته، بين زوجته وأولاده؟

يراها قدّامه تتمخطر بغنج، وتوقظ خلاياه النائمة. تشعل فيه رغبة الجسد. لقد تمنى حينها أمراً لم يتوقع أن يخطر على باله.

هل تضع خضراء عطراً فرنسياً جاذباً تحت عباءتها مثل ذلك الذي تضعه مروة؟ يتساءل.

سيكون لديه يوما الإجازة الأسبوعية ليفكر ويحلل أسباب الدوّامة التي يدور فيها، ثم ليفكر ويفكر ويفكر بأدوات الخروج منها بسرعة وبلا تأخير. في نهاية المطاف عليه أن يترك كل شيء وينشغل كما كان بالبحوث. بحث وبحث وبحث، حقائق وحقائق وحقائق. هكذا ينبغي أن يقضي ما تبقى من عمره، لا أن يعود أدراجه إلى تلك المرحلة السوداء من حياته، مرحلة المراهقة التي لا يُريد أن يتذكّر تفاصيلها.

- صحيح، ولكني لا أشعر بالجوع الآن، سأذهب للنوم وسأتعشى فيما بعد.

يقولها وهو يجرُّ خطواته ببطء باتجاه غرفة النوم. أردف وهو يرجع باب الغرفة خلفه:

- صحوني لما يوصل محمد.

- محمد بيسهر مع أصدقائه الليلة، بيرجع متأخر. قال إنه خبّرك عن الأمر.

يأتيه صوت سميرة.

نسي أن محمد كان قد اتصل به بالأمس ليخبره عن سهرته الليلة. كان حينها في محوت، منشغلاً بالاعتذار لمروة بسبب تلك الاستراحة، فلم يُعر لحديث ابنه وما طلبه منه الاهتمام اللازم.

حين آوى إلى فراشه، انتبه إلى أنه ترك التلفاز في الصالة مشتعلاً بصوت فيروز وهي تصدحُ بواحدة من تلك الأغاني التي تعوّد على سماعها حين كان طالبا في مرحلة دراسته الجامعية الأولى. ذكّرته «أنا عندي حنين، ما بعرف لمين...» بالسنوات الأربع التي قضاها في السكن الجامعي. أوقفته بالذات أمام وجه صديقه الشاعر «علي سعيد» الذي نادراً ما استمع إلى غير لفيروز وعدد محدود من المطربين اليمنيين، لكنه لا يستمع إلى محمد عبده كما يفعل معظم الطلبة في السكن. أيوب طارش والمرشدي وفيصل علوي، هم من كان يستمع إليهم. فيروز تأتي وحيدة وشاذة وسطهم. يتذكر أسماء المطربين أولئك بوضوح الآن. علي كان يكره أم كلثوم. قال إنها السبب وراء مقتل أسمهان. قال أيضاً إن صوت أسمهان أجمل بكثير من صوت فيروز.

***

لم يستيقظ ليلتها، ولم تشأ أن توقظه، وحين أفاق من تلقاء نفسه وجد الساعة قد تجاوزت الثالثة فجراً، وقد داهم جسده حينها شعورٌ بالنشاط والهمة بعد أن أحسَّ بأنه تشبّع نوماً.

غادر سريره باتجاه غرفة مكتبه، مقرراً استغلال الوقت وذلك الهدوء المسيطر في مواصلة قراءة كتاب «الصخور في عُمان». عليه دائما أن يكون متفوقاً على مروة في معرفته بصخور بلاده، وعليه ألا يظهر أمامها بأنه فقيرٌ بالمعلومات الجيولوجية حتى وإن لم يكن ذلك تخصصه الرئيسي. عليه أيضا ألا يترك المساحة لخلفان في أن يُظهر تفوقه عليه، حتى وإن كان خلفان جيولوجياً هو الآخر، مثله مثل مروة.

لكنه بالكاد استطاع أن يكمل صفحة واحدة. انتابه شعور ما أفقده الرغبة في مواصلة القراءة. شعور بتشتت الذهن وضياع التركيز.

هل هذه هذي المرة الأولى التي يستيقظ من نومه بمزاج رائق لا يعكر صفوه شيء ليفقد ذلك المزاج سريعاً؟! هي واحدة من المرات القلائل بكل تأكيد، فهو نادراً ما يمر بمثل تلك الحالة، بل إنها لم تمر عليه منذ ردحٍ طويل من الزمن.

هل سأل نفسه بغضب عمّا أصابها فجأة؟ نعم سأل وبصوت مسموع كذلك.

رجع إلى كنبته التي تركها ليلة الأمس مقرراً إعادة التفكير في الأمور الجديدة التي طرأت على حياته كما وعد نفسه بالأمس. فتح النافذة في انتظار سماع أذان الفجر. سيُصلي هذا الصباح مطولاً وسيدعو ربه أن يُذهب عنه تلك الأفكار «الدسيسة» التي تغزو جمجمته. جمجمته وقلبه معاً.

عند الأذان، وحين استيقظت سميرة والقلق يحتل عينيها بسبب حالته تلك، سارع إلى مبادرتها قبل أن تنبس بكلمة:

- قمت من النوم وبعدها طار عني النعاس، فقلت انتظر لحد وقت الأذان، أصلي وأرجع للنوم مرة ثانية.

هل كذب حينها؟ لم يكذب بالمعنى الحرفي للكذب، فقط تعمّد أن يخفي عنها أمراً صغيراً ليس ذا أهمية في نظره. لكنه كان جاداً في نيته أن يصلي، ثم يعود إلى فراشه، وإلى النوم ثانية.

- الله يعينك، هذا كله من رحلة الدقم. المرة الجاية فكر ألف مرة ومرة أول قبل ما تشقي نفسك، أنت ما عدت شاب كما كنت، السن له أحكام يا أبو محمد، ولازم تفهم هذا الشي.

لا تعرف سميرة بكل تأكيد ما يختلج في أعماقه حالياً ولن تعرف، فسوف يئد كل ذلك قبل أن تتفطن له.

لا يمكن لسميرة أن تتخيل أن يأتي على زوجها زمن يفكر فيه بامرأة أخرى. ذلك أمرٌ أقرب إلى المستحيل بالنسبة إليها. تعرفه جيداً، تعرف زوجها حقّ المعرفة. لا يمكن لها حتى مجرد التفكير للحظة أن يقع في حُبِّ امرأة أخرى بعد قصة حبهما العنيفة التي عرف عنها القاصي والداني، وكانت مضرباً للأمثال.

حبٌ جنوني ذاك الذي عاشته، وأوشك على إهلاكها يوماً من الأيام. لذا فهو على يقين بأنه من غير الممكن أن يخطر على بالها أنّ أبا أولادها، الذي فعل المستحيل لكي يقبل به أهلها زوجاً لها، يصل به الحال في أن يفكر، بعد كل تلك العشرة، بغيرها. بل بفتاة صغيرة هي في عمر ابنهما، وبعد ماذا؟! بعد قصة العشق الكبيرة والمجنونة التي عاشاها؟! بعد كل تلك السنين من الحياة الجميلة معها والتي لم يُخالطها كدر؟! بعد أن صار ولدهما في سنّ الزواج، وأصبح هو على بعد خطوات ليكون جداً.

يسأل نفسه: كيف وصل به الحال في أن يفكر بشكلٍ «غير لائق» و«غير أخلاقي» بتلك الفتاة؟! كيف يفكر الآن بخضراء؟ هل يفكرُ فيها الآن كما كان يفكر بسميرة قبل أكثر من عقدين من الزمن؟! هل يفكر بجسدها اليانع الطري البكر؟ لا يريد أن يعترف أن جسد سميرة والحلاوة المرسومة على وجهها حينذاك هو ما جنّنه ودوّخه وسيّل لعابه، لكنها كانت الحقيقة.

يومها، كان للتو قد أنهى رسالة الدكتوراه في جامعة أكسفورد البريطانية، وقد بدأ للتو في عالم البحوث والتدريس في الجامعة. وكانت لا تزال طالبة في سنتها الثانية بالجامعة، وقد شرعت في دراسة التخصص الذي حلمت به منذ طفولتها؛ المسرح الذي سيجعل منها ممثلة لامعة.

لمحها في قاعة التدريس، وكان يدرّس مقررا في علم النفس التربوي لطلاب المسرح وعلم النفس والفلسفة مجتمعين، ليهيم بها حباً، ولاحقاً ليقاتل معها لأن يجتمعا تحت سقفٍ واحد وبأسرع ما يمكن.

لم يتقبل أهلها الذين لم ينقصهم المال أو الجاه اقترانها به لولا إصرارها الشديد عليه. لقد أغضبت والديها من أجله، ولولا حبهم الشديد لها لطرداها من البيت ومن حياتهما، فهل ينبغي أن يكافئها الآن بما يُهدِّم حياتها وحياة ابنيهما؟

قصة حبٍ عنيفة عاشها معها، عرف عنها كل من بالجامعة من طلبة وطالبات ومدرسين وموظفين، بل وصلت قصتهما إلى خارج الجامعة، فصار بعضهم يشبّهون قصة حبهما بقصص الغرام الشهيرة في الكتب والروايات. وأطلق عليهما الكثيرون العديد من الأسماء. قيس ولبنى وروميو وجوليت كانت

الأكثر تداولاً.

الذين درسوا معها التخصص، أو حتى مقررا بعينه، صاروا يتغامزون ويتهامسون كلما مرّ أحدهما من وسطهم. «جاءت ليلى»، «جاء قيس» «جوليت في مكتب روميو» و«روميو اليوم حزين لأن جوليت غائبة». كان مطلعاً على كل ما يتهامسون به عنه وعنها، ولما يدور حول علاقتهما من قصص وحكايات، لكنه أشاح بنظره بعيداً عن ذلك. عشقه لها حينها كان أقوى من أن يتيح للكلام فرصة في أن يهزُّه أو يثبّط من عزيمته للاقتران بـ «الجميلة الفاتنة» والاستحواذ عليها.

وبسبب غيرته الشديدة عليها، لم يلبث أن أخرجها من الجامعة حتى قبل أن تنهي سنتها الثالثة، برغم اشتراط والديها عليه، مقابل موافقتهما، أن يتركها تكمل دراستها، وأن يتجنب أن تحبل منه قبل ذلك. لكنه وبسبب تلك الغيرة التي «تقطّع قلبه» كلما رأى نظرة أحدهم إليها -كما يكرّر لها ذلك- تعمّد أن يجعلها تحبل بابنه محمد بسرعة، بخلاف ما وعد والديها به.

حدث ذلك بعد انقضاء الشهر الثالث على زواجهما، ليُصرَّ عليها بعد ذلك على ترك الجامعة ولو مؤقتاً، محتجاً بصعوبة استمرارها في الدراسة وسط ظروف حملها وما سيلزمها القيام به من واجبات تجاه ابنهما بعد الولادة، مقترحاً عليها التوقف إلى أن يبلُغَ محمد عامه الأول. لكن الأيام والشهور مرت بعد ذلك سريعاً، بحيث وجدت سميرة نفسها وقد شغلتها شؤون العائلة الصغيرة الجديدة وصرفتها عن العودة إلى دراستها وتخصصها الذي حلمت به سنين طويلة وحلم به أبواها كذلك.

قصة حب عمرها الآن أكثر من عشرين عاما، لا يمكن لأي منهما أن ينسى تفاصيلها، وقد احتفلا معاً قبل أشهر بسيطة بعيد زواجهما الثالث والعشرين. يومها حجز لها غرفة في فندق برّ الجصة في مسقط وقضيا ليلتهما معاً من دون محمد وزهراء.

سميرة هي حب عمره الذي مضى، عاهدها في ليلتهما الأولى معاً، وظل يعاهدها كلما احتفلا بعيد زواجهما بأنها ستبقى إلى أن يموت؛ حب عمره الأول والأخير، وأنها أجمل هدية حصل عليها في هذه الحياة.

ولولا كلماته «الساحرة» تلك وسحر «طوله» لما رضخت لطلباته ووافقت على التخلي عن أحلامها وأمنياتها التي لا يدرك مدى عمقها أحد سواها وأبيها وأمها. حلمها بأن تصبح ممثلة كان قد وجّه خطواتها منذ الصغر، فلم تتوقف عن الصعود إلى خشبة المسرح والتمثيل متى ما سنحت لها الفرصة طوال سنواتها المدرسية وحتى التحاقها بالجامعة.

- لا أستحمل عيون الشباب وهي تطلق عليك مثل الذئاب المسعورة وأنت أمامهم على المسرح.

يقولها لها بعد أن قامت بأول تجارب التمثيل على خشبة المسرح في الجامعة، وقد نالت بسبب إتقانها للتمثيل إشادة ليس لها مثيل من الحضور وأساتذتها في التخصص.

«ولا فاتن حمامة يا سميرة، روعة بجد» يقول لها مدرّس مادة التمثيل وهو يعلم مدى عشق تلميذته للممثلة المصرية الأشهر.

- يا أنا يا المسرح.

يكمل ما بدأه معها، ليترك لها الخيار.

ساعدها أبوها الذي يعمل بوزارة الإعلام على شق طريقها حين زجّ بها ضمن طاقم التمثيل في أكثر من مسلسل رمضاني قبل أن تلتحق بالجامعة، لدرجة أن اعتبرها بعض زملائه بالوزارة نجمة المستقبل. لكنها قررت ألا تضحي بحبها من أجل حلمها. لقد أحبته بجنون هي الأخرى. بهرها حينذاك بعلمه، كما بهرها بشخصيته وطوله، وبالخصوص طوله.

كان أوسم محاضر في عينيها وعيني زميلاتها في الجامعة. طويل، عيناه واسعتان وسوداوان وشعر رأسه ناعم، وأنفه منمنم بخلاف الكثير من زملائه، فضلاً عن إجادته التعامل مع الجنس الناعم. كما

كان من القلة النادرة الذين يجيدون اختيار روائح العطور التي يضعها على ملابسه. وفوق كل ذلك يجيد التأنق في اللبس، فكان الوحيد، من بين زملائه من المحاضرين، الذي يجيد تنسيق لون حرير دشداشته مع لون المصر والنعال.

كانت تراه فارس أحلامها، بل فارس أحلام كل الفتيات اللواتي يبحثْنَ عن رجلٍ كامل الصفات. عظم حبها له أكثر وأكثر، وهي تشعُرُ بأن زميلاتها في الكلية يحاولن التقرب منه «ومغازلته»، فزاد ذلك من رغبتها في تملكه بسرعة خشية أن تسرقهُ غيرها منها.

في عُمان - تحادث نفسها - لا أمل لأن يأخذ أحد بيديها ليوصلها إلى حيث تحلم في مجال التمثيل حتى وأن رأى ذلك الأحد فيها موهبة قل أن توجد. مثلها مثل لاعبي الكرة والمطربين وغيرهم الذين يخفت بريقهم بذات السرعة التي التي لمع بها. لن يوصلها دربها الذي اختارته إلى أي مكان، ليست هي في أمريكا أو أوروبا أو حتى الهند، والأحسن لها أن تضمن حياتها مع من أحب قلبها قبل أن تندم وتندب حظها على ما أضاعته من بين يديها. هكذا حاولت جاهدة أن تقنع نفسها، لكنها في واقع الأمر لم تستطع تخيله لغيرها، فلقد أعماها الحب. في سبيل أن يكون لها دون غيرها، قررت أن تركل كل شيء من أحلامها وآمال أبويها بعيداً. هامت به حقاً وأصرّت على أهلها على الاقتران به ومن ثم الزواج منه مبكرا كما رغب وأصرّ؛ وذلك خلال إجازة الجامعة الصيفية.

لن ينسى كيف تعلقت به، ولن يغفل مدى التضحية التي قدمتها من أجله ومن أجل أن تحقق له كل ما طلبه منها، وضخامة ما تنازلت عنه من أحلام وطموحات لكي يبقى سعيداً معها. فكيف له أن يكافئها بعد كل ذلك؟ بحب غيرها؟!

كيف سيجرؤ على تحطيم حياتها التي تمحورت حوله؟ وكيف له أن يواجه أهلها الذين لا يزالون مقتنعين وبشكل قاطع لم تزحزحه سنون زواجهما الطويلة من أنه ليس الشخص المناسب لابنتهم، وأنه، كما توقعوه، تعمّد أن يقتل فيها كل ذلك الطموح الذي ظلّ في قلبها ووجدانها منذ نعومة أظافرها. ذلك الحلم الجميل الرائع الذي سخّر أبوها له الكثير من جهده ووقته وسنوات عمره ليعزز في داخلها الرغبة في أن تغدو يوما من الأيام واحدة من أشهر الممثلات في بلدها وخارجه. أبوها كان واثقاً من قدرة ابنته على أن تُصبح نجمة عالمية، يصل صيتها إلى أبعد ما يمكن الوصول إليه، كان واثقاً من نجوميتها ومن قدرتها حتى للوصول إلى هوليود.

- لو بس ما طاوعت أمك وتركتك تسافرين أمريكا تكملين دراستك كان ما قابلتي هذا السالم.

يقولها الأب نادماً على رضوخه لإلحاح زوجته، التي لم تُطق فكرة ابتعاد ابنتها عنها، بإلحاقها للدراسة في جامعة السلطان، متحسِّرا على الفرصة الكبيرة التي ضاعت من يدِ وحيدته.

- والله لو كنت أعلم إنه بيطلع لنا سالم هذا وبيسرق منا بنتنا كان ضغطت على قلبي وخليتها تسافر.

تقولها الأم وهي تقرّ بخطأ قرارها وبندمها عليه.

لكل ذلك الضرر الذي وقع على أحلامها وأحلام أبويها وكان هو المتسبب الرئيسي فيه، فإن عليه مراجعة نفسه. عليه أن يعود إلى رُشده سريعاً، وعليه أن يطرد عنه كل ما تساوره نفسه بفعله من أمور يستسخفها عقله العاجز عن محاربة ما يرسله إليه القلب من تدفقات مشاعر.

يتساءل بينه وبين نفسه عن السبب الذي أوصله إلى هناك، إلى تلك المنطقة الخطرة وهو في تلك المرحلة من العمر؟

لماذا اخترقت خضراء كل قوانينه وجدرانه وموانعه، وحشرت نفسها في أعماقه فجأة؟

كيف حصل ذلك؟ ولماذا حصل؟ ما هو ذلك الأمر الجديد الذي جعله فجأة يلتفت لفتاة صغيرة لا يعرف عنها شيئاً، ولم يرَ منها ما يجذبهُ إليها سوى عينيها؟ هل بعد كل تلك السنين وتلك التجارب في الحياة لا يزال يبحث عمّن يثير فيه حسّ جسده وليس إعجاب عقله؟

ليست خضراء من الطالبات المتفوقات، لقد قرأ ملفها بعناية. لم تحصل على تقدير مرتفع في الثانوية العامة، ولم تحصل بالتالي على بعثة دراسية مثل معظم زميلاتها في الجامعة. تكفّل أبوها بتدريسها في الجامعة على نفقته. فكيف له أن يُغرم بفتاة لا تمتلك شذراً ولو قليلاً من الذكاء. لا، ليس ذلك غراماً، يؤكد لنفسه. تلك مجرد نزوة عابرة. نزوة «جنسية» تحديداً. انجذاب جسدي لا يلبث أن يختفي سريعاً مثلما ظهر. سيختفي لا محالة. يؤكد لنفسه، ويكرر مراراً.

يشعر في لحظات عديدة أن تخصصه في علوم الأنثروبولوجيا بدأ في التمرد عليه فجأة. في الثورة ضدّه. يشعرُ بأن ما كان يُدِّرسهُ عن قضايا النفس البشرية وتحنانها المستمر إلى الأزمنة التي قضت فيها أوقاتا جميلة ومجنونة تتجسّد فيه الآن. لقد انقلب السحر على الساحر.

لكن خضراء التي كانت قبل أيام تسرح وتمرح وحيدة في مخيلته، لم تعد كذلك اليوم. ثمة من دخل عليها «في الخط» منذ الأمس القريب فقط. ثمة من يشاركها المساحات، من يشاركها الظهور أمامه وداخله، ثمة مروة التي بدأت تتمخطر هي الأخرى على حواف شراييه وقشرة مخّه، مروة التي تتفوق على خضراء في كل شيء.

أصبحت الأمور برمتها لا تبعثه على الراحة. يحسّ بغرابة ما يحدث. الأمور تتسارع أمامه وداخله تسارعاً غريباً، بينما يقف أمامها متفرجاً كمن ينتظر ما سوف يحدث وما سوف يأتي لاحقاً.

لا يستوعب ما يجري، ولا يعثر له على تفسير واضح. كل النظريات التي درسها ودرّسها تقف عاجزة عن تفسير ما يجتاح عقله من مشاعر وأحاسيس «أجنبية عليه».

ليست خضراء إذن من استطاع أن يصل إلى الأماكن المحظورة على النساء في عقله وعروقه - وأن كان لها شرف إطلاق الشرارة في دمه - بل حتى تلميذته الأمريكية الجديدة، هي الأخرى بدأت رحلتها معه وفي داخله. ها هي ذي تتجول أمامه بابتسامتها وألقها الذي بدأ يحشر نفسه في عمقه.

حين دخلت سميرة للمطبخ لإعداد وجبة الإفطار، قرر العودة إلى سريره في محاولة لنسيان ما يشغل باله وقتها. «ما زلت تملك قرارك بنفسك، فلا تتركه يفلت منك» يقولها لنفسه وخضراء ترمش له بعينها الساحرة، ومروة تخطو أمامه بجمال أخّاذ فوق مياه المحيط الباردة.

***

حين عاد ومحمد من صلاة الجمعة، وقد اعتاد على تأديتها في جامع نزوى، كانت سميرة في المطبخ تعدُّ وجبة الغداء، فقرر أن يعود إلى قراءاته عن الجيولوجيا.

لن يستطيع أن يتقرّب من خضراء ولو قليلاً. ذلك أمرٌ يعيه جيداً وإلا لانفضح أمره ولخسر حينها صورته المثالية أمام زملائه في العمل ووسط طلبته وطالباته، ولخسر بعدها سمعته أمام مجتمعه العائلي ومن ثم أقرانه من العلماء. لن يستطيع التقدم ولو خطوة معها رغم حضورها معه في صلاته اليوم، غير أنه لا يملك سوى أن ينهي وبسرعة وجودها في داخله.

الأمر كذلك بالنسبة لمروة؛ فالبروفيسور سالم، المشرف على رسالة ماجستيرها يجب أن يبقى مشرفا على رسالتها وليس عليها. يجب ألا تختلط الأمور عليه، فهي في نهاية الأمر مجرد طالبة لديه، وعليه أن ينجز معها، بصفته المشرف الأكاديمي، ما جاءت من نيويورك لأجله. عليه أن يكون الأستاذ المشرف على الرسالة، وعليه ألا ينحرف عن تلك المهمة مهما حصل. عليه أن يكون على ذلك القدر من المسؤولية والتعقّل.

كما أن عليه أن يسخّر ما استطاع من وقت للقراءة في الجيولوجيا ولا شيء آخر. لا ينبغي عليه أن يتوقف عن القراءة. سيقرأ كل كتاب وكل ورقة علمية تقع بين يديه عن ذلك العلم، خصوصا حين يتعلق الأمر بالصخور في عُمان. ستكون مهزلة أن تأتي طالبة ماجستير أمريكية مهما كانت أصولها، لم

يتجاوز عمرها الثالثة والعشرين، لتفوقه دراية بصخور بلاده وهو البروفيسور ابن الخمسين!

أما بخصوص تلك الرغبات التي فجأة وبدون سابق إنذار، أباحت لنفسها الظهور في أعماقه، فحري به القضاء عليها ودفنها. هو قادر على ذلك بكل تأكيد. «من ستقبل بشايب في الخمسين وهي للتو في العشرين؟!»

وتذكر في الحال صديقه (مساعد العويضة)، المحاضر المعروف في علم النفس بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة (طيبة) بجدّة، والذي زامله في دراسته بجامعة (أكسفورد)، وقد درسا معا بعض المواد المشتركة في تخصصيهما، فقرر أن يلجأ إليه لاحقاً إذا عجزت قدراته الذاتية عن التخلص مما يدور في أعماقه.

تناول كتاب «تراث عُمان الجيولوجي» وشرع يقرأ فصله الأول المثير من عنوانه «كيف ظهرت عُمان على سطح الأرض؟». بين ثنايا الورق تبزغ مروة بين الحين والآخر، ترسل إليه ابتسامتها تارة ونظرتها الغامضة الجميلة تارة أخرى وهي تتراكض وسط تلك الأنهار الجليدية.

حتى استقباله للمعلومات التي يقرؤها أحس به اليوم مختلفا عن السابق. كل معلومة يمر عليها يتخيّل ردة فعل مروة عليها حين يحكي لها عنها، فهو مطالب وفي كل الأحوال عليه أن يبهرها بزخم المعلومات التي يعرفها عن تخصصها.

عليه أيضا وبعد أن ينتهي من قراءته أن يفكر في الطريقة الملائمة التي ستُمكّنه من نقل مروة من مكتبها الحالي الملاصق لمكتبه لتصبح على مبعدة منه وعن مجال بصره. ولولا أن مكتب خلفان يقع في مختبر الصخور لكان قد نقلها إلى ذلك المختبر، لكن خشيته عليها من زميله، وما قد تُسبّبه جرأته المعروفة مع النساء من مشاكل جعله يتردد كثيراً على المضي قُدماً في ذلك المخطط في الوقت الحالي.

ستكون رحلتهم مختلفة هذه المرة.

مع بدايات الفجر الأولى، وضوء الشمس الضئيل لا يزال يشق طريقه وسط الظلمة، تهافت عند مدخل الجامعة الطلبة المقرر لهم المشاركة في الرحلة. سيقطعون المسافات على ظهر سيارات دفع رباعي باتجاه الشمال الشرقي من عُمان حيث جبل قهوان العريق والشهير بطبقاته التي تحكي تسلسل عمر الصخور التي «تشكّلت خلال نشأة الصفيحة القارية الجرانيتية في العصر ما قبل الكمبري، ثم تراكمت فوقها صخور الحِقَب اللاحقة كالكمبري (عصر اللافقاريات والمفصليات وديدان البحر)، والأوردوفيشي (حيث الأشجار الفضية آكلة اللحوم والشعاب المرجانية)، والسيلوري (ظهور العقارب والعناكب والقردة المائية وأم أربعة وأربعين)، والديفوني (عصر الأسماك البرمائية والرأس قدميات كالحبار)، والكربوني (نشأة الزواحف وأسماك القرش والحشرات المجنّحة العملاقة والضفادع التي كانت بحجم كبش وبثلاثة أعين إحداها في الخلف)، والبرمي (عصر انقراض كائنات العصور السابقة وارتفاع درجة الحرارة في الأرض وظهور الترسبات الملحية)، والترياسي (ظهور القواقع والسلاحف والذباب والنباتات الزهرية)، والجوراسي (عصر الديناصورات العملاقة)، والطباشيري (انقراض تلك الديناصورات)، وانتهاء بصخور الحياة الحديثة التي تشكّلت قبل أقل من 100 مليون سنة، وفيها نشأت المخلوقات الحالية في البر والبحر وعلى أغصان الأشجار.

كلّ تلك القصة الجيولوجية الهائلة تحكيها صخور جبل قهوان. كل طبقة من جبل قهوان القابع فوق سهول ولاية «جعلان بني بو علي» في الاتجاه الجنوبي الشرقي من مدينة نزوى تحكي قصص ملايين السنوات من التكوّن والتشكل والحيوات التي تنوعت على مدار كل تلك الحِقَب».

تلك هي طريقة خلفان المعتادة ولكن الممتعة، في وصف الجبل للطلبة الذين يستعدون للقيام برحلتهم الحقلية هناك. حتى سالم حفظ ما يردده خلفان عن ظهر قلب.

ليست فقط صخور جبل قهوان من يحكي تاريخاً لا يتخيله عقل، بل أيضاً جبال مرباط التي تخترق الحواجز النارية بشكل عمودي وغرائبي صخور الجرانوديوريات[12] القواطع في جنوب عُمان، ثم صخور الجبل الأخضر في شمالها؛ والجبال المرعبة الحادة والمحدّبة في شبه جزيرة مسندم في الشمال؛ كل تلك الصخور القديمة جداً تحكي القصص نفسها.

سالم، وبسبب وجود مروة بينهم، لم يفته أنّ يُعلّق على ما سمعه من زميله. قال وهو في وسطهم:

- يبدو أن عُمان من الدول القليلة التي ظلّت كتلة متماسكة لم تتصدع أو تتجزأ طوال بلايين السنين.

فيمضي خلفان متمماً كمن فهم المغزى:

- وستبقى هكذا إن شاء الله إلى يوم القيامة.

كانوا ستة من الطلبة، ثلاثة من الذكور ومثلهم من الإناث بينهم مروة، وقد أصبح هو تلقائياً مشرفا على مجموعة الطلبة، بينما كانت زميلته الدكتورة «سامية» القادمة من تونس مشرفة على مجموعة الطالبات.

خلفان كان أول الواصلين. وصل باكراً على غير عادته، وسرعان ما طلب من فريق الإناث صعود السيارة التي يقودها، بينما تكفّل سالم بقيادة السيارة الأخرى مع طلبته الذكور.

سيستغرق الأمر أكثر من ثلاث ساعات ريثما يصلون إلى المكان، وعليه خلالها أن يتعايش مع مجموعة الطلبة الذين يتقدمهم «سلطان» الطالب في السنة الرابعة والأخيرة في علم الجيولوجيا، وقد تبوأ المقعد الأمامي بجانبه، والذي لم يتمكن من لجم فضوله لفترة أطول من الوقت، فأطلق سؤاله الأول حتى قبل أن تنقضي الخمس دقائق الأولى على ركوبهم السيارة:

- بروفيسور، مروة ليست عُمانية، صحيح؟

- اعتقد أن الإجابة واضحة يا سلطان.

يجيبه وهو ينظر اليه بطرف عينه اليمنى راسماً ابتسامة صغيرة على وجهه.

يبتسم سلطان هازاً رأسه كمن تدارك سذاجة سؤاله، في حين يمضي سالم مكملاً كمن يعرف مسبقا سؤال سلطان القادم:

- أمريكية من أصل أردني.

وقد لاحظ بعدها تلك الالتفاتة المفعمة بالزهو وعلامات الانتصار في وجوه زملائه الثلاثة في الخلف، وكأنه فاز عليهم في لعبة التخمين. يبدو كذلك أن مروة كانت مادة للكلام فيما بينهم.

الأمر الطبيعي أن تكون محور حديث شباب الجامعة ككل، بلا استثناء. لا يستغرب من ذلك، بل سيدهشه الأمر أكثر لو لم تصبح صبية جميلة مثلها مادةً دسمة ومهمة للتعاطي فيما بينهم، فلا يذكر خلال مراحل حياته الدراسية سواءً في جامعة السلطان أو حتى في بريطانيا ألا تصبح أية فتاة جميلة محوراً لحديث الذكور. ذلك مرض بشري يستوطن كلا الجنسين؛ الذكور والإناث، منذ هابيل وقابيل، على حدٍ سواء.

- متزوجة؟

يسأل سلطان ثانية.

- لا، ما زالت عزباء، هل تخطط لخطبتها؟

- يا ليت يا بروفيسور، كان زين، أنا وين وهي وين!

- وماذا ينقصك؟

- لا ما قصدت ذلك بروفيسور، أنت أكيد فاهم قصدي.

يجيبه سلطان وهو يشير بكفه اليمنى إلى وجهه وهيئته.

- الإنسان ما بشكله، بعلمه وعقله.

- تقصد بفلوسه أستاذي؟

- وهل تعتقد إنه كل البنات وراء الفلوس فقط؟

ثم يتداخل «مروان» طالب الجيولوجيا في السنة الثانية، بصوته المبحوح والمخنوق والذي بالكاد يُسمع:

- معلوم أستاذنا، إحنا نسمع ونشوف زميلاتنا، الفلوس أهم شي هذي الأيام، علمك ما ينفعك دام جيبك خالي.

يتنحنح سالم ويبتسم. فعلى الرغم من إحساسه بالانقباض في بداية الأمر حين طرح سلطان سؤاله الأول عن مروة؛ وجد فيما يثار فرصة أولاً لقتل ذلك الوقت الطويل والممل في السيارة، وثانياً للاقتراب أكثر من تفكير الجيل الجديد الذي يجهل عنه الكثير. جيل الواتس آب والإنستجرام واليوتيوب والسناب شات. ابنه محمد، وهو من جيل أولئك الشباب بالكاد يحكي له شيئاً عن حياته وما يدور في ذهنه من أفكار وأحلام. لا يعرف ما إذا كانت لدى محمد مغامرات عاطفية إلى الآن أم لا. يعترف بتقصيره في ذلك الجانب، تقصيره في التقرب من ابنه أكثر ومعرفة هواجسه وما يفكر فيه ومساعدته بالنصح والإرشاد. يمارس على ابنه ما مورس عليه من غياب الأب، رغم اختلاف الظروف.

«جيل اليوم خطير في تفكيره وفي نفس الوقت محاط بعشرات المخاطر من حوله» يقولها لطلبته في المحاضرات وهو يحثهم على التفكير ألف مرة قبل الإقدام على عملٍ من شأنه أن يندموا عليه بقية حياتهم. كان يشرح لهم حينها عن أخطار المخدرات وطرق الابتزاز الإلكتروني خصوصاً من خلال وسائل التواصل الاجتماعي التي يكرهها. «دائماً استشيروا من هو أكبر منكم، من هو أعلم منكم، من

خَبِر الحياة قبلكم» ويضيف ناصحاَ إياهم بأنه «مهما كان الابتزاز محرجاَ فلا يتورع من يقع فيه عن إبلاَغ أبيه أو أمه أو من يثق به، لكن إياكم والاستسلام للمبتز مهما كان ما يملكه ضدكم». لكنه يجد نفسه مقصراً، في ذات الوقت، من التقرب أكثر من ابنه ومشاركته تفاصيل حياته وأفكاره وهمومه.

لا يذكر آخر مرة طلب منه ابنه النصيحة. «هل ينأى محمد بنفسه بعيداً عن كل تلك المؤثرات؟» يداهمه ذلك السؤال، فيعدُ نفسه بالتقرب أكثر من عوالم ابنه المجهولة رغم إحساسه القوي بأن محمد يجاهد لأن يكون الأول على دفعته، وأنه يسخّر معظم أوقات فراغه في القراءة عن الشؤون السياسية في العالم، وأن همّه الأول والأخير هو أن يحظى لاحقاً بفرصةِ أن يصبح سفيراً لبلاده «في أوروبا» على وجه التحديد.

- لكن الناس ما كلهم متشابهين.

يقولها سالم، فيقاطعه «جاسم» زميل مروان في الدراسة:

- كم نسبة هؤلاء المختلفين يا بروفيسور؟ واحد في الألف مثلا؟؟ يا لييييت لو كان ذلك صحيحاً، ولو حتى واحد في المليون.

لكن سلطان على ما يبدو لم ينتهِ من السؤال عن مروة:

- برفيسور، ما الذي أتى بمروة لجامعة نزوى؟ يفتح عينيه على آخرهما محركاً يده من الأسفل للأعلى وهو يضيف «من أمريكا لنزوى؟! شي غريب عجيب»

- هي تحضّر رسالة الماجستير ووقع اختيارها على الصخور في عُمان.

- ولماذا صخور عُمان بالتحديد؟ السعودية واليمن مليانات صخور أيضا، حتى الأردن فيها صخور وجبال.

- أعتقد عندهم في جامعتها بنيويورك قناعة أو افتراض بأن صخور عُمان هي أقدم صخور في المنطقة إذا ما في العالم كله. لذلك أرسلوها. يمكن ليتأكدوا من حقيقة تلك الفرضية. أيضاً مروة نفسها عندها اهتمام شخصي بعُمان وصخورها كما تقول.

لكن سالم لم يرغب في الخوض طويلا في الأحاديث التي تخصُّ مروة بقدر ما كان يهمه الاقتراب أكثر من عقلية وثقافة الجيل الجديد الحياتية. ربما ليفهم من خلالهم ما يُفكر فيه ابنه. قال:

- أسألكم من منكم يخطط يكون له ثلاث زوجات مثل الأستاذ خلفان؟

يضحك الثلاثة معاً. لقد اعتادوا على مثل تلك الأسئلة المفاجئة والمحشوّة بالمغازي من أستاذهم سالم. تعلّم ذات مرة، في بداية حياته التدريسية أن واحدة من الطرق الناجعة لشدّ انتباه الطلاب لمعلمهم هو طرحه للأسئلة المفاجئة لهم، فعكف على استخدامها منذ ذلك الحين.

«من منكم يُدخِّن سجائر»

ضحك سلطان يومها قبل أن يقول «هو اللي يدخن بيخبرك إنه يدخن يا بروفيسور»

«إذن أنت تُدخن»

يصدمه.

«بروفيسور أنا أدخّن شيشه بس»

يقولها سلطان بسرعة، فتمتلئ القاعة بالضحك. حينها يمضي مكملاً المحاضرة.

تلك الطريقة لا يتوقف عن اللجوء إليها كلما أحس بملل طلابه مما يسمعونه. يخترع الأسئلة من دون سابق إعداد.

«من منكم يصلي؟»

فيرفع الجميع يده.

«من منكم يصلي في المسجد»

«المسجد بعيد»، «ما نلحق على الصلاة في المسجد»، «أحياناً وأحياناً لا»

استطاع بأسلوبه ذاك أن يجعلهم متيقظين دائماً، وجاهزين لمباغتة تلك الأسئلة؛ خصوصا وأنه يعي بأن الموّاد التي يدّرسها عن علوم الإنسان تعتبر مملّة، وتبعث على النعاس داخل قاعات المحاضرات.

- هذا مثل سؤالك السابق بروفيسور، من منكم يريد أن يصبح مسؤولاً كبيراً في الحكومة؟ وكأن الأمر بيدنا نحن المساكين.

يقولها مروان بسخرية، ويكمل جاسم:

- كلنا نريد نكون وزراء ولّا مسؤولين أستاذ، بس انت وصيهم علينا.

يقهقه الطلبة. فيعيدهم سالم إليه:

- بعدكم ما أجبتوا على سؤالي؟

- من صدقك بروفيسور! أعتقد في هذا الزمن واحدة تكفي، ولو الواحد يقدر يُواصل حياته بدون زواج كان أفضل.

يقول سلطان، ويردف:

- برفيسور أنا واحد من ستة أخوة وأخوات، وأبوي يصرخ كل يوم إنه ما قادر يأكّلنا ويصرف علينا، الحياة الآن صارت صعبة ما مثل أول.

- الحياة عمرها ما كانت سهلة لا في الزمان الأول ولا في هذا الزمان.

يُعلِّق على ما قاله ويضيف:

- ومع هذا كلامك نسبياً صحيح يا سلطان، ولكن كيف خلفان قادر يتحمل الحياة مع ثلاث زوجات وعشرة أولاد؟

فيجيبه سلطان والابتسامة تملأ شدقيه:

- برفيسور، خلفان مسكون بهمّ نحن الشباب نعرفه، لكن إذا كل مرة شفنا بنت عجبتنا تزوجناها كان بنتزوج عشر منهن. خلفان مجنون، وباكر يكبروا أولاده وبيعرف غلطته الكبيرة.

يضيف مروان:

- والدي ما قادر على لسان أمي، وهي زوجته الوحيدة، فكيف خلفان قادر على ثلاث؟

- خلفان معه لسان عن عشر حريم.

يضيف سلطان.

يقترب مروان من أذن سالم، وكان يجلس خلفه مباشرة:

- بروفيسور، خلفان يريد يكمل الأربع، وأعتقد أنه يفكر في طالبتك الأردنية الحلوة.

لم يفاجئه ما سمعه فقد توقع ذلك، أو على الأقل وضع احتمالاً أن يكون ذلك هو ما يدور بفكر خلفان فعلاً حتى وإن لم يقصد مروان من وراء ما قاله سوى الدعابة. مروة جميلة، ومثل خلفان لن يمرَّ أمامه مثلها مرور الكرام. لا يمكن لجمال مثل جمالها ألا يخفق قلب خلفان أو قلوب الكثيرين ومن مختلف الأعمار وليس الشباب وحدهم. لكنها لن تلتفت إليه. لديه قناعة بأن تلك الفتاة المعجونة من طينة مختلفة عن بقية الفتيات يستحيل أن تفكر برجلٍ مثل خلفان. حتى لو كان خلفان أعزبَ وثرياً في ذات الوقت، فمن في مثلها ومثل جمالها يصعبُ تصوّر قبولها لخلفان القصير القميء المحدودب الظهر وصاحب الكرش التي تنمو كل يوم أكثر، والذي نسي النظر في المرآة ليرى جلد وجهه وقد تبقّع بنقاط غامقة خصوصاً في المنطقة الواقعة أسفل عينيه.

لا يتخيلها أن تقبل به، لكن المعجزات ما زالت تحدث بين الحين والآخر. وتذكّر بأن الأمر سيتطلب

من زميله التنازل عن جنسيته إذا ما وافقت مروة على الزواج به. في نظره خلفان أجبن من أن يُقدم على ذلك، ولن توافق الحكومة على الإبقاء على جنسيته مهما طلب منها ذلك.

لا يملك زميله سبباً منطقياً من الزواج بغير عُمانية أو خليجية، فلديه ثلاث زوجات وأبناء، ولا ينقصه شيء. ماذا سيقول لهم مثلاً؟! وحيد ويحتاج من يؤنسه في وحدته! مصاب بالتوحد ويحتاج إلى من يعتني به ويراقبه على مدار الساعة ولا يوجد من أهله من هو قادرٌ على القيام بذلك! معاق ويحتاج إلى من يعتني به وينظف وراءه!

لا يملك خلفان عذراً حقيقياً وقوياً بما فيه الكفاية لتتقبلهُ الحكومة.

يتساءل: لماذا جرفه فكره إلى هناك؟! لماذا أبحر بعيداً جداً بخيالاته؟! هل بات يخشى فعلاً على مروة من خلفان؟! لماذا يخشى عليها؟! ما المشكلة لديه لو تزوج خلفان بمروة؟! ما الذي يهمه في الأمر؟!

إنه سلطان المصرّ على أن يدور حديثهم عن مروة وفقط، فكلما حاول الابتعاد بمن معه في السيارة عن كل ما يخصها، يعيدهم سلطان إليها. قرر أن يُغيِّر دفّة الحديث مرة أخرى، فبادر سلطان موجهاً اليه السؤال:

- هل تعرف لماذا يسمى جبل قهوان بهذا الاسم؟

يهزُّ الجالسان في الخلف رأسيهما علامة النفي.

- حتى أنا لا أعرف.

يقول سالم مستبقاً سؤالهم له.

لكن سلطان المتحمس، والذي في الغالب ما يكون له رأي في كل شيء يُطرح أمامه سواءً يعرف عنه مسبقاً أو لا يعرف؛ قال بكل ثقة بعد أن ضمن أن الجميع لا يملك إجابة على سؤال أُستاذهم:

- ما كان للجبل اسم قبل عشر سنوات، لم يسمع أحد من قبل عن قهوان، هذا اسم من اختراع واحد من هؤلاء المجانين الذين نسميهم جيولوجيين.

ثم يسود الصمت من جديد لدقائق، ليعود بعدها سلطان بهم مرة أخرى نحو مروة وهو يسال سالم:

- لكن بروفيسور لماذا اختارت مروة جامعة نزوى الصغيرة وتركت جامعة السلطان؟ هل جامعتنا أفضل من جامعة السلطان في الجيولوجيا؟

حينئذ قرر سالم أن يلوذ بالصمت.

***

وصلوا جبل قهوان تماما في الوقت الذي توقعوه. كانت الساعة العاشرة والنصف صباحا، الجو معتدل، وبين الفينة والأخرى تهبُّ نسمة هواء باردة.

«جو بديع» تقول سامية وهي تقارنه بجو نزوى الحار الذي تنقصه مثل تلك النسمة العليلة لتلطفه وتبعث في الجسد الانتعاش المطلوب.

مروة انطلقت سريعا باتجاه الجبل وقد لحقت بها الطالبتان وسامية، ثم تبعهم الشباب وخلفان بعدما قاموا بتثبيت أوتاد خيمة الاستراحة.

مروة انطلقت كسَهْم للوصول إلى القاعدة الصخرية البلورية للجبل، وشرعت سريعا في لمّ قطع الصخور المتناثرة علىً الجوانب داخل الكيس القطني الذي تحمله.

- شكلها لم تشاهد من قبل مثل هذي الصخور.

يقولها سلطان لسالم وهما يمضيان معاً باتجاه الأعلى.

- قلت لك إنها مهتمة جدا بصخور عُمان، خصوصا الصخور القديمة أو التي يقال عنها بأنها أقدم الصخور في العالم.

يقول سالم.

- صحيح، لكن أعتقد أن جبل قهوان بالذات فيه ثروة نحن غير قادرين على اكتشافها لحد اليوم. كل شهر يأتي إلى هنا العشرات من البشر، من هو مهتم بالعلم ومن له مقاصد ثانية بعيدة عن العلم.

- مقاصد ثانية؟ مثل ماذا مثلاً؟

- ما أعرف، بس الناس تتوهم أمور كثيرة غريبة عجيبة. بعضهم يأخذ من تراب الجبل وكأنه يتطبّب به في بيته. أحدهم يقطع الآف الأميال ليسجد ويبوس صخور الجبل لأيام متتالية، وآخر أخبرني بأن الذي يجلس على صخور الجبل النارية لمدة خمسة أيام متتالية وتكون الشمس ساطعة تخرج عن جسده كل أمراض وهموم الدنيا.

يقهقه وهو يهز رأسه مؤكداً على أستاذه صحة ما حكاه. كان سالم منصتاً بشدّة إلى سلطان وقد غزت علامات الدهشة وجهه.

- أعرف أحد الأوروبيين، يأتي إلى هنا مرة كل سنة، يخيّم على سفح الجبل لمدة ثلاثة أيام، بجانب القاعدة الجرانيتية بالضبط. يقول إن شحنة المغناطيس الموجودة هناك تقدر تمسح عن البشر همومهم ونكدهم وأحزانهم. يقول كذلك إن قلبه استطاع التخلص من الهموم التي تجمعت عليه خلال سنة كاملة. يأتي إلى هنا بهمومه التي تمتصها منه الصخور فيعود إلى بلاده خالياً مرتاح البال بدونها.

مروة مستمرة في جمع العينات أينما تمرُّ بخطواتها وبكل ما يقابلها من صخور ملوّنة ومصقولة، بينما مضت الطالبتان «سالمة» و«دعاء» بجانبها في محاولة منهما لتقليدها فيما تقوم به.

سامية لم تستطع، وقد تجاوز سنها الخمسين، مجاراتهن. بقيت واقفة أسفل الجبل ريثما تستعيد بعضا من أنفاسها التي تقطعت بعد صعودها الأمتار العشرة الأولى من الجبل.

ليس على مبعدة من ذلك، في الجانب الآخر من الجبل، مضى خلفان ومروان وجاسم وهم يحملون جهاز قياس العناصر المشعة، ثم لحق بهم سلطان الذي لم يتوقف عن ملاحقة مروة بنظراته التي تشبه إلى حدٍ كبير نظرات خلفان.

بقي سالم وحده حينها، ثم لم يلبث أن أحضر له ولسامية كرسيين مطويين، فتحهما وجلسا عليهما تحت ظلّ أحد أشجار السمر.

- كيف شفتي مروة يا أستاذة؟

يبادر سالم بالحديث.

- والله بنت شغولة وعندها مخ كبير.

تصمت لحظات قبل أن تضيف:

- بس هذي مخطرة على البنات!

تعتري سالم دهشة مباغتة وهو يستفسر منها بتقطيب حاجبيه وهزِّ رأسه عمّا تقصده. فتكمل:

- هذي كثير متحررة، ومعاها مقدرة كبيرة على التأثير في البنات.

- تأثر في ماذا بالضبط دكتورة؟

- هي قعدت تقنع في البنات عن حريتهن في اللبس وكيف البنت لازم تفكر ألف مرة قبل ما تختار زوجها. كيف البنات لازم يستخدموا رؤوسهم في التفكير بين ما هو صح وما هو خطأ. ما معناه تقولهم اللي سمعتوه من البابا والماما ما ضروري يكون صحيح ولازم الوحدة تقرر بنفسها مصير حياتها بدون تدّخل الأباء.

يبتسم سالم في سرِّه وهو يتذكّر أن سامية المسكينة كانت قد قضت العشر سنوات الأخيرة من حياتها كربّة بيت في تونس بعد أن تركت التدريس وتفرغت لبيتها وأولادها. لتجد نفسها بعد ذلك وقد أجبرها

زوجها - من أجل كسب أقصى ثروة ممكنة وفي فترة زمنية قصيرة - على العودة إلى العمل ثانية حين حصل على عقد عمل للتدريس في جامعة نزوى ولأربع سنوات.

- هذا بالفعل ما ينقصنا أستاذة سامية، الثقافة العامة. أولادنا وبناتنا يتأثرون بالآخرين لأنهم لا يقرؤون سوى دروسهم، وبالتالي لا يستطيعون مناقشة من يقرأ ويبحث في أمور الحياة المختلفة.

حين اجتمعوا داخل الخيمة لتناول وجبة الغداء، كانت مروة صاحبة اليد الطولى في الحديث. في حضورها غابت بقية الأصوات لفترة وجيزة. حتى سلطان ظل متلفعاً بالصمت على غير عادته في مثل تلك المناسبات. لاحظ سالم أن الجميع قد اتفق ضمنيا على ترك المجال لمروة للإسهاب في حديثها وعدم مقاطعتها. لاحظ تركهم المجال لأعينهم للتمعّن بأطول وقت ممكن في حركات يديها وهي ترتفع وتهبط، ولشفتيها المكتنزتين في أن تتحركا وهي تتحدث باستفاضة عمّا تعرفه من علم.

لقد أصبح الأمر شبه عادة لدى مروة أن تشكك فيما ذهب إليه زملاؤها من الجيولوجيين قبلها. فعلى الرغم من تأكيدها لهم بقِدَم جبل قهوان وطبقات صخوره التي تحكي كل طبقة منه بوضوح عن عصر مختلف من العصور الجيولَوجية، إلا أنها جزمت في الوقت نفسه أن ما رأته لا يمكن أن يُعد الأقدم في العالم كما «يتوهم البعض».

هل قصدته هو بـ «البعض؟». أحسّ بأنها قصدته. فقد لاحظ بأنها تحاشت أن تلتقي عيناها بعينيه وهي تقولها. إنها بلا شك تتحداه. إما ذلك أو أنها تحاول استفزازه من جديد.

في كل الأحوال، لا يهمه ما تحاول إثارته في وسطهم. سيبقي على صمته.

- هي الأقدم أستاذة مروة.

ينطق سلطان أخيراً وقد أحسّ بالامتعاض مما يسمعه منها، ويكمل:

- أنا الآن أكمل سنة في البحث والدراسات اللي أجريت على عمليات التحلل الإشعاعي على هذه الصخور. أنا متأكد من أنها الأقدم، لا يمكن للأجهزة أن تكذب...

تقاطعه مروة قبل أن يكمل حديثه وكأنها على علم مسبق بما سيقوله:

- كلامك صحيح، لكن هناك أجهزة حديثة الآن للقياس أكثر دقة أنتم لا تملكونها. الأجهزة الحديثة أثبتت أخطاء كثيرة في تحاليل الأجهزة القديمة التي سبقتها، الجهاز الذي تستخدمونه قديم جداً، عفى عليه الزمن. لا أفهم لماذا أنتم مستمرون في استخدامه حتى الآن. ألم تسمعوا أو تقرأوا أو تبحثوا عن الأجهزة الجديدة المتطورة جداً؟! الجهاز الذي تستخدمونه من الجيل الثالث، بينما العالم يستخدم الآن الجيل الخامس، ليس الرابع، بل الخامس.

هل ما قالته صحيح؟ يتساءل وهو ينتظر ما سينطق به خلفان الذي يحمرُّ وجهه، بينما يُقطِّب سلطان جبينه وهو يقول لها بنبرة ساخرة وغاضبة في آن، غير مصدقٍ على ما يبدو ما سمعه منها للتو:

- لو تسعفينا بهذي الأجهزة الحديثة أستاذة مروة نكون من الشاكرين.

تعمدّت حينها عدم الرد عليه، وبدلا من ذلك وجهت انتباهها فجأة إلى المشرف على بحثها والذي منذ لحظة وصولهم إلى الجبل التزم الصمت حيال ما يقال، فلا هو بادر في الحديث ولا هو عقّب على ما يدور من حوار أمامه. حتى حين طلبت منه الإدلاء برأيه حول ما سمعه منهم، اكتفى أن قال جملة واحدة وبصوت هادئ نمّ عن عدم الرغبة في الخوض في مثل ذاك النقاش:

- عندما ننتهي من بقية جولاتنا سنناقش مثل هذه الأمور. علينا أن ننتظر حتى نهاية رحلاتنا الحقلية.

لم يعجبها كلامه. قطّبت حاجبيها بإتقانٍ ممثلٍ محترف. قالت موجهة كلامها إليه:

- بروفيسور، هذه صخور جرداء خاليةَ من بقايا أية كائنات حيّة.

ها هي تبدأ القصة من جديد، أصبحت الآن شبه مكشوفة لديه فيما تحاول الوصول إليه. قال بهدوء وقد عزم على مجاراتها هذه المرة:

- صحيح كلامك، صحيح مائة بالمائة، لا أحد يمكنه أن يقول خلاف ذلك.

- لا يوجد في هذه الصخور ما يدّل على وجود حفريات عليها؟!

- لا، لا يوجد..

يجيبها ببرود شديد. لكنها لا تلبث أن تُغيّر من طبقة صوتها لتبدو في وضع الغاضب:

ولكنك في كتاباتك ذكرت وجود صخور قديمة في عُمان بها حفريات لإنسان، أليست هي هذه؟ وهي تشير بإبهام يدها اليمنى ناحية الجبل.

لقد تجاوزت حدودها كطالبة بطريقة حديثها ذاك، ومع ذلك بقي هادئاً. لن يُمكِّنها من استفزازه، سيُحافظ على هدوئه المعتاد قدّام طلبته. قال بصوت موزون وهادئ في محاولة لإعادة الهدوء إلى الجلسة وقد أحسّ بأن شيئا من التوتر قد بدأ في فرض نفسه على المحيط، وجه سلطان بالذات كان متكهرباً:

- لا تتعجلي الأمر آنسة مروة، اليوم أنت رأيتِ ما تعتبرونه أنتم أقدم الصخور في عُمان على الإطلاق، وربما الأقدم في العالم. رحلتنا القادمة ستكشف جوانب أخرى ستعرفينها في حينها.

قالت تستفزه أكثر:

- لا يوجد في عُمان أقدم من هذه الصخور يا بروفيسور، وهذه لا يمكن أن يكون عمرها أكثر من 1000 مليون سنة، أنتم تعلمون أنه يوجد في العالم من الصخور ما يتجاوز عمرها 4000 مليون سنة

يجيبها بنفس الهدوء، بينما تتنقل أعين الآخرين بينهما في انتظار النهاية التي سيسفر عنها ذلك الحوار الساخن:

- كما قلت لك، سنؤجل الحوار في هذا الأمر حتى نهاية الزيارات الحقلية. لكل شيء أوان، والجواب على سؤالك لم يحن وقته بعد.

- ولماذا كل هذا الغموض والتأخير؟ نحن وسط شأن علمي وليس ألغازاً وتسالي.

يعلو صوتها هذه المرة، ونبرة الاعتراض وعبارة الاستهزاء التي صدرت عنها لم تعجبه ولم يستسغها. خيّم بعدها صمت عميق وسط تبادل النظرات المكثف بين الحضور وكأنهم في انتظار ردّة فعله على ما سمعوه للتو.

ولأنه لم يستسغ طريقة كلامها الساخر ذاك، والذي شعر معه بشيء من الانزعاج وتعكّر المزاج؛ وكان لزاماً عليه أن يردّ عليها بما هو مناسب بعد أن تطاولت عليه أمام طلبته؛ قرر أن ينهي ذلك الحوار ومعاقبتها على ما بدر منها من تهكم. استقام عن كرسيه أمام الجميع راسماً على وجهه أمارات غضب واضحة وهو يقول لها بطبقة صوت عالية لم يستخدمها من قبل، بل لم يعتد على سماعها منه كل من كان بالخيمة:

- آنسة مروة أنا المشرف هنا وأنا من يقرر متى وكيف. هناك دائماً طالب ومعلم، طالب ومشرف، وينبغي على الكل عدم تجاوز الحدود المسموح لهم بها، أرجو ألا تنسي ذلك.

عمّ بعدها صمتٌ عميق يشبه صمت الميت، ليبادر خلفان الحضور في محاولة منه لضرب عصفورين بحجر؛ تلطيف الجو المشحون الذي يحسّه مقبلاً على انفجار ما، وتعليم مروة أسلوب الردّ المناسب في مثل تلك المواقف. قال:

- ونِعمَ الكلام بروفيسور، على العين والراس.

لكن غضبه لم يهدأ، ولم يكتف بما سمعه من خلفان، فأردف:

- أطلب منك آنسة مروة أن تلقي علينا عرضاً في الكلية عن زيارتك لمنطقة الحُقف وحديقة الصخور وجبل قهوان وذلك بعد أسبوع من اليوم. من المهم أن يستمع زملاؤك إلى ما تحصلتِ عليه من معلومات عن تلك الزيارات، وأيضا لكي تستمعي إلى مداخلاتهم وآرائهم عن تلك المعلومات.

وتأكيداً منه على انزعاجه وعدم رضاه من الموقف ومما قالته؛ قرر إنهاء الرحلة والاكتفاء بما تمت زيارته والعودة مبكراً إلى الجامعة.

سلطان الذي لم ينبس بكلمة واحدة حين أحسّ بتكهرب الجو، همسَ لخلفان وهما يطويان الخيمة:

أول مرة أشوف البروفيسور متضايق، هذه الفتاة ما سهلة، غرورها واصل للسماء!

. أحد أنواع صخور الجرانيت

كانت منزعجة وغاضبة حين دخلت عليه المكتب لتقف خلف أحد الكرسيين القابعين أمام طاولته والذي اعتادت الجلوس عليه في المرات السابقة.

كانت متوترة بشدّة. وجهها محمرّ، ويداها ترتعشان، وأصابعها عصبية وهي تمسك ظهر الكرسي، وكان قد توقع منها أن تدلف عليه أول الصباح لتقدم إليه اعتذارها عمّا بدر منها بالأمس.

- بروفسور، لم تقنعني بإجابتك ونحن أسفل الجبل، كما أننا لم نتفق مسبقا على فكرة العرض، ولا يوجد ضمن برنامجي الدراسي معك أن ألقي عرضاً على أي أحد، فمن أين جئت بتلك الفكرة؟

استعد لها وجهز مسبقاً ما سوف يقوله. سيكون هادئاً جداً معها رغم أنه لا يزال منزعجاً مما حدث. فما قامت به، كما شعر لحظتها، ليس إلا هجوماً واضحاً عليه، وكأنها تقصّدت إهانته أمام زملائه وطلبته، وكأن أمر التشكّيك في صحة قناعاته العلمية متاح في أي وقت وقدّام أي أحد، على الرغم من أن ما قاله لم يحمل قناعاته هو، بل قناعات من سبقها من بني حقلها. وكان الأجدر بها أن تطرح عليه مثل تلك التساؤلات بينه وبينها، عندما يكونان وحدهما، فما الذي كانت تحاول الوصول إليه؟ حيره السؤال طوال البارحة، ولم يصل إلى إجابة مقنعة.

قد لا تدرك مدى الضرر الذي تسبب فيه كلامها ذاك. لا تدرك إلى أي مدى عكّرت مزاجه؛ فظلّ صامتاً لا يتحدث مع أحد وهو في طريق عودته إلى نزوى. ولذات السبب لم يشأ الطلبة الذين كانوا معه فتح باب الحديث بعد أن أحسّوا بما يغلي في صدره. لكن الأسوأ من كل ذلك أنه لم يستطع التخلص من غضبه وكآبته حتى وهو يعود أدراجه إلى عائلته. لقد حمل معه ذلك المزاج السيء إلى داخل بيته، ونثره على زوجته وأولاده الذين فضّلوا كذلك عدم التحدّث معه ليلتها.

هل تذكّر أنه قطع على نفسه عهداً ببدء سلسلة من الجلسات اليومية مع محمد من أجل أن يبني معه جسوراً جديدة من التواصل وليشعره بقربه الشديد منه وبوجود صديق يحبه جداً، متوفر في أي وقت لطلب المشورة والمساعدة وفي كل قضايا الحياة؟! لا، لم يتذكر، فقد أنسته حدّة غضبه حينها وتعكّر مزاجه كل شيء عدا مروة.

بقيت أحاسيسه المتنافرة تجاهها حاضرة ليلتها. لعلّ أكثر ما أثار غضبه منها هو ذلك الغرور «القميء» الذي يتلبّسها بين الحين والآخر فتنسى معه ذلك الخط الذي لا يجب عليها تجاوزه معه. في قناعاته ينبغي على الطالب أن يحافظ على مستوى معين من الاحترام لمعلّمه، خط فاصل بين ما هو مقبول وما هو غير مقبول في التعامل بين الطالب والمعلم بحيث لا يسمح الطالب لنفسه بتجاوزه بأي حال من الأحوال. علاوة على أنه هو، سالم الكندي، ليس بأي مدرّس، ليس بأي بروفيسور حتى تستسهل تجاوز تلك الخطوط معه. هو يملكُ اسماً معروفاً في حقل علمه. عالِمٌ له سمعته ومكانته بين علماء الأنثروبولوجيا على أقل تقدير. في حين لا تزال هي مجرد طالبة تخطو خطواتها الأولى في سماء البحث العلمي الشاسعة، لا تزال «هاوية علم»، كمن بدأ للتو في تعلّم قيادة السيارة. فعلى ماذا ارتكزت لتسمح لنفسها بتجاوز خطوط الاحترام تلك والتطاول عليه وهو الذي لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بعد مثابرة وعناء مضنٍ وجهد جهيد من القراءة وتقصي الحقائق؟ أكثر من ستين منجزاً علميا حققها حتى الآن ما بين أوراق علمية محكّمة وبحوث واكتشافات، في مقابل صفر من الإنجازات المقترنة باسمها.

لا يهتم بما يُحكى ويُقال عن طرق التدريس في أمريكا أو غيرها من الدول والتي تذوب فيها الحدود بين الطالب والمعلم. لا يهتّم ولا يُقرُّ بصحتها مطلقاً. تلك الحدود من وجهة نظره يجب أن تبقى، وعلى الطالب أن يحترمها.

لقد شعر وهو يلقي بنفسه على السرير أن مشاعر الإعجاب تلك التي يكّنها لها قد تحوّلت فجأة إلى مشاعر كُرهٍ وسخط. نام وهو يعد نفسه بألا يعود معها كما كان، وأن يبدأ معها أسلوباً جديداً أساسه

الاحترام للمعلم، وإلا فسيطلب منها البحث عن مشرف آخر لها أو العودة من حيث أتت.

لكن كل ذلك سرعان ما تبخّر وانمحى مع بدايات الصباح الأولى وقد أحسّ بتغيّر كبير في حالته النفسية مقارنة بالأمس. بل حلّ محله نوع من الندم على ما تفوّه به أمامهم. شعر بأنه قسى عليها وأنها ربما لم تقصد ما ذهب إليه ظنُّه. كان ينبغي عليه أن يُراعي اختلاف الثقافة بينهما، فليس بالضرورة أن تكون بتصرفاتها تلك قد عنت ما فهمه أو ما فسرُّه لنفسه.

لم يلبث أن طلب منها الجلوس وهو يبتسم لها بعد أن استقام واقفاً من كرسيه واتجه للجلوس أمامها على الكرسي المقابل. كان قد منّى نفسه أن يلتقي بخلفان أو سامية أولاً قبل أن يلتقيها، ليسمع منهما ردّة فعلها بالأمس وهم عائدون بالسيارة إلى نزوى؛ هل علّقت على ما حصل؟ هل قالت شيئاً؟ هل كانت غاضبة أم فضّلت الصمت مثله؟

بادرها بعد ذلك بشيء من اللطف والهدوء والابتسامة القصيرة لا تفارق شفتيه:

- أنتم جيولوجيون، وأنا أنثروبولوجي، لا يجب أن نتفق، بل الأجدر بنا أن نختلف في سبيل إثبات الحقيقة. أنا ما زلت عند قناعاتي بما كتبته وقلته وستدركين لماذا أنا مُصرٌّ على رأيي في الأيام القادمة. لكن لا أرى لغضبك من مبرر آنسة مروة.

- وماذا بشأن العرض؟ لماذا العرض وأنا لم أكمل بعد شهري الأول من وصولي إلى هنا؟

يبتسم لها ثانية. تمنى لحظتها، في شعور مفاجئ باغته، لو أن بإمكانه لمس خدِّها الملتهب أو تناول كفها بين كفيه وتمسيده ريثما يهدأ الغضب في جوفها ويبرد الدم الملتهب في عروقها.

كان وجهها المليء بالدم قد بدأ بالفعل في التراخي بفعل الهدوء الذي أسبغه على نفسه وتلك الابتسامة التي أتقن رسمها على وجهه. رويداً حتى عاد إلى وجهها لونه الطبيعي، عدا الخدود، فقد ظلّت محافظة على حمرتها الغسقية.

قال وهو يُرسل عليها نظرة الأستاذ لتلميذته بعد أن تأكد من أنه ملأها بما يكفي من حنان وعاطفة، دون أن يغفل الحضور الأبدي لابتسامته تلك:

- أنت لا تحتاجين إلى الكثير من الوقت لتكوني جاهزة للعرض آنسة مروة. ثم إن المطلوب منك شيء بسيط جدا لا يدعو إلى القلق؛ لماذا أنت هنا في عُمان؟ وماذا وجدتِ حتى الآن فيما زرتِه من مواقع؟ فقط لا أكثر.

يتعمّد أن يصمت للحظات وهو يركّز نظراته في عينيها والابتسامة «شبه الأبوية» لا تبارح وجهه قبل أن يُكمل الحديث الذي بدأه:

- أنا لم أطلب منك الحديث عن رسالتك إذا كانت هذه نقطة اعتراضك. أنا طلبت مشاركتك لمعلوماتك الجديدة مع زملائك، فقط، لا أكثر. ومن يدرِ؟ قد تستمعين لما يفيدك منهم. لا تنسي أن بين من سيحضر طلبة عمانيون في سنتهم الأخيرة في الجامعة، وهؤلاء زاروا الكثير من المواقع الجيولوجية في عُمان، ومن بينها المناطق التي زرتِها، ويعرفون بلدهم وصخورها أكثر منك بكل تأكيد، وبكل تأكيد ستستفيدين منهم.

يُوسِّع من ابتسامته لها وعيناه متسمرتان في النظر إلى وجهها. يستقيم واقفاً كمن يشرعُ في إنهاء الحديث معها:

- وعموماً لو كنت أشك في قدراتك لما طلبت منك القيام بذلك. أنت لا خوف عليك. ما شاء الله ذكاء وسرعة بديهة. أنت آخر شخص يمكن أن أخاف عليه من مثل هذه المواقف. أنا لا أشكُ أبداً في إمكاناتك.

غادرت مكتبه وقد هدأت تماماً. ذلك الغضب الذي ارتسم على وجهها وحوّل معه خديها إلى كرتين

محمرتين من التفاح أرغمه حينها على التعاطف معها. خلق ما شاهده فيها من زعل شعوراً بالندم في داخله على ما بدر منه بالأمس. كيف أتاح للموقف أن يؤثر فيه ولغضبه أن يسيطر عليه؟

أحمق كان حين عاملها بتلك الطريقة الرعناء. كيف فعلها وكان يتمنى وما يزال أن يلتقي بأنجلينا جولي ولو لدقائق. فعلى الرغم من وصوله إلى ذلك المستوى من العلم والشهرة ففي دمه بقيت تلك الرغبة حاضرة بقوة؛ أن يتيح له الزمن فرصة الجلوس أمام أنجلينا ولو لدقائق بسيطة. تلك الممثلة التي سحرته منذ أن رآها، والتي لم يرض أن يُصدِّق بأنها من بنات البشر حتى اليوم، يجد فجأة أُختها، توأمها، تقف أمامه، لتصبح بقدرة قادر إحدى طالباته، بينما هو وبكل حمق أحمق، يركبه الغرور و«الغباء» فيتصرف معها بتلك الطريقة الهوجاء، ولأجل ماذا؟ لأجل «كرامته ومكانته بين زملائه».

«لو أن قابيل قتل هابيل لأجل واحدة مثل أنجلينا فعلى الله أن يسامحه»

«لو أن أنجلينا زوجة لجاري لقتلته أنا أيضاً وظفرتُ بها».

«كم كان غبياً زوجها براد بيت حين طلّقها وحكم على نفسه بالموت. هل يوجد عاقل في هذه الحياة يفرط في واحدة لم يخلق الربّ من ملاك بشري على الأرض مثلها؟»

ثمة تحوّل إذن، لا ريب في ذلك، قد بدأ ينمو في داخله تجاه تلميذته الجديدة. فهو يجد نفسه رغم غضبه المؤقت عليها، في انتظار دخولها مكتبه بفارغ من الصبر. وحين رآها شعر بتسارع غير معتاد في دقات قلبه.

«يا الله» إنها هي ذاتها تلك المشاعر القديمة تداهمه من جديد، ذات المشاعر التي كانت تتخاطفه حين كانت زوجته في سنِّها أو أصغر منها بقليل. وقتئذ كانت تعتريه رغبة عارمة في ضمها إلى صدره بقوة، بكل ما يملك من قوة. إحساس حاد في أن يتملّكها بين أحضانه كلما حضرت قدّامه.

ما الذي يجري له وقد قرر بالأمس فقط نسيان خضراء تماماً وكل ما له علاقة بالنساء؟

يعي بأن مثل هذه المشاعر مصيرها أن تنكشف ذات يوم. ستنكشف أمامها هي أو أمام الآخرين. ذلك أمر مسلّم به. لقد شبع في مشوار حياته من القراءة عن حالات الإنسان والتغييرات التي يمر بها. ويعلم بأن مثل تلك الأحاسيس التي تجذبُ الذكر للأنثى لن تتوقف في مشوار حياة الرجل.

«كل الخيارات صحيحة». يقولها كثيرا حين يتصادف أن يكون وسط العدد القليل من أصدقائه. «يستطيع الفرد أن يتزوج اثنتين وثلاثا وأربعا إن اعتقد أن ذلك هو ما يصلح لحياته، أو حتى أن لا يتزوج أبداً».

ثم يمضي في حديثه «لا يوجد للمخلوق من عند الخالق بنود مرجعية لحياته، لم يتم تحديد ما يجب وما لا يجب على الفرد فعله في حياته. كل الخيارات متاحة له. على كل واحدٍ منا أن يقرر ما يريد وأن يسعى إلى تحقيق ما يرضيه ويجعله سعيداً في حياته. لذا «فكل الخيارات سليمة، وكل فرد مخيّر في اختيار ما يريده، لا يوجد خطأ أو صواب في الأمر».

لكنه يجزم في المقابل بأن الإنسان لا يمكنه أن يُعجب بأكثر من شخص واحدٍ في حياته. يُقسم بأن المرء لا يعشق إلا شخصاً واحدا طوال مشوار حياته. الرجل مثلا، يقول، لا يحب أكثر من امرأة واحدة في حياته، أما الأخريات ففي واقع الأمر إنما يحاول من خلال وجودهن في حياته سحب نفسه من سجن تلك الواحدة، ولكن بلا نتيجة.

كان ينصحهم: لتتعرفوا على من تحبون تخيلوا أحدهم يخطف منكم زوجاتكم وأيضا حبيباتكم، ثم يطلب منكم اختيار واحدة لتبقى على قيد الحياة. حينها ستعرفون من تكون تلك.

لا يعشق المرء مرتين، ذلك هراء. يقول. وفجأة يعاوده شعورٌ كان قد تركه منذ زمن، نسيه، أو اعتقد بأنه نسيه. ذلك الشعور الجديد في داخله نحو مروة، والذي لم يكتمل وضوحه، أعاده إلى فترة قديمة اعتقد أنها اندثرت وانتهت. لا يريد أن يعود إلى هناك. حلف مرة بأنه لو جاء أحدهم وذكره بتاريخه

القديم ذاك؛ لقتله وشرب من دمه.

ثمة ذلك «الجزء المظلم» من حياة البروفيسور سالم الذي يشهد له كل من حوله بإخلاصه وتفرغه لعلمه وعمله وفقط. ماضٍ قديم مختلف عمّا يعيشه الآن، بالذات حين يأتي الذكر على النساء.

لا يريد الآن أن يتّذكر سنوات دراسته في بريطانيا، ولا مغامراته العديدة مع زميلاته حينذاك. كم عدد اللواتي جرّهن نحو شقته في آخر الليل؟ لا، لا يريد أن يتذكر تلك الفترة. هو يعتبرها فترة «غاب فيها ضميره ووعيه عنه».

لا يتمنى أن يأتي زمن يعود به إلى تلك الحياة المكتظة بالفوضى الصاخبة والتي عاشها وهو يلهث «وراء نزواته وشهواته». لا، لا يريد أن يتذكّر عدد المرات التي عاد فيها إلى شقته وقد امتلأت معدته بالشراب ورأسه بالكحول وذراعه بأنثى؟

بدأ مغامرته مع الشراب بالبيرة، وكان الوحيد من بين زملائه الذي لا يشرب عدا «لندن برايد»، قال «اسمها وحده مؤثر». ترك بعدها البيرة ليلجأ إلى النبيذ الأحمر بعدما لاحظ تمدد وتكوّر «كرشه». ثم تحوّل بعد ذلك إلى النبيذ الأبيض، وكان ذلك آخر نوع يتعاطاه من الشراب قبل أن يعود أدراجه إلى عُمان «وإلى رشده».

مع النبيذ الأبيض كان الوحيد الذي يضيف قطعتين من الثلج في الكأس البارد أصلاً. زملاؤه كانوا يضحكون عليه وكان يجيبهم ساخراً «أنتم لا تفقهون شيئاً في الشراب».

حكايته مع قطعتي الثلج ارتبطت هي الأخرى بأنثى. يومها كان يشارك في مؤتمر في باريس يخصُّ مجال دراسته. تصادف أن تعرّف على فتاة فرنسية ذات جمال باذخ، أقل ما يقال عنها بأنها ملكة جمال الكون. كانت «شفافة كالورق». يستطيع بالعين المجردة تتبع مسالك العروق في جلدها، بل وتتبع تدفق جرعات النبيذ وهي تتزحلق في مجرى نحرها حتى تصل إلى أمعائها. لم ير من قبل لون عينين بمثل تلك الزرقة التي تشبه زرقة البحر في صفائه التام، شعر وهو يحدّق فيها بتقاذف موج البحر نحوه من مقلتيها.

كانت ترتشف من كأس النبيذ وقد وضعت عليه قطعتين من الثلج. قالت حين سألها عن السبب بأن «ذلك يجعل النبيذ أكثر لذة ويقلل من حدّته». تمنى يومها أن يتمكن من الحصول عليها ولو لليلة. لكنها لم تكن منهن. حفظ عبارتها تلك وأصبح يرددها على كل من يسأله عن تلك العادة.

ليس ما قالتهُ ليلتها هو ما دفعهُ إلى شُرب النبيذ الأبيض بالثلج، بل من قالته. لم يرَ في حياته أنثى بمثل جمالها. بحث عنها في اليوم التالي بين الحضور فلم يجدها. سأل عنها ومدد إقامته ليومين إضافيين على أمل أن يلتقيها في شوارع باريس المكتظة بالبشر فلم يفلح. جزم بعدها بأنها إنما كانت ملاكاً أرسل إليه فجأة لسبب ما لم يتبينه حتى اليوم. لكن ذلك الملاك سرعان ما اختفى حين لم يُحسن هو التصرف مع الهدية الأثمن والأهم التي بعثتها إليه السماء في حياته.

- أنت تحب ذلك لأن جسمك دائما مشتعل.

تقول له إحدى صديقاته، وكان قد سمع مثل تلك الملاحظة أكثر من مرة. يشعره ذلك الكلام بالغبطة والزهو وهو يحسُّ بذلك الانفراد والتميّز في الرجولة والصلافة بين من حوله من شباب.

- هذا كله بسبب هذه، خذي منها.

يضحك وهو يمد لها صحن الحلوى «السيفية[13] » التي اعتادت صديقاته على تذوقها في شقته.

لكنه حين عاد وقد أنهى دراسة الدكتوراه قرر إلغاء ذلك الجانب من حياته إلى الأبد بحبسه في قبوٍ مظلم محكم الإغلاق تحت الأرض، لا يصله ضوء أو هواء حتى يضعف ويذبل ويموت موتاً أزلياً، ليجده فجأة وقد تمكن من الخروج من قبوه والتحرر من قيوده والظهور له من جديد بعد كل تلك السنين، وبنفس القوة التي كان عليها قبل الغياب.

أجل، هي ذاتها تلك الأحاسيس المنسية، تعاود الظهور، وكأن مشروع حياته يصل الآن به إلى مرحلة جديدة ينسلخُ فيها جلده الحالي ليعيد إليه جلده السابق. «هل يمكن أن يحدث ذلك؟».

هل شعر بأن دقات قلبه أمام مروة هي ذاتها دقاته أمام تلك الفرنسية وأمام سميرة؟ نعم، كانت هي بالضبط.

قراءاته الكثيرة تقوده نحو التصديق بأن العواطف القديمة بإمكانها أن تعاود الظهور في وقت متأخر من العمر، خصوصاً إذا شكّلت تلك العواطف فترة جميلة من ذاكرة الفرد، وبالأخص إذا كانت تلك الفترة هي الأجمل في حياته على الإطلاق.

هل يعتبر الآن أن تلك المرحلة التي ملأها عبثاً ولعباً كانت الأجمل في حياته بعد أن كان يعتبرها الأسوأ؟ الإجابة لا تزال غير واضحة لديه، فالمشهد ما زال مهتزاً أمامه، لم يزل في بداياته.

لم تغب عنه تلك الأوقات تماماً حتى لو حاول ادّعاء ذلك، فقد كانت تداهمه ذكريات تلك الفترة بين الحين والآخر. يتذكر أوقات الحرية المطلقة التي كانت بين يديه. لم يكن يحدّه شيء، كان يفعل كل ما يحلو له بلا خوف وبلا منغصات. حينها كانت مسؤوليته الوحيدة أن ينجح في دراسته. تداهمه الذكريات لكنه لا يلبث أن يعود أدراجه رافضاً بشكل قاطع مجرد التفكير في العودة إلى مثل تلك الحياة الزاخرة بالعبث والفوضى ولو ليوم يتيم. فبعد زواجه واتته العديد من الفرص لتكرار جنون حياته السابقة وذلك حين يكون في مهمات سفر خارج عمان، خصوصاً في المدن الأوروبية، لكنه كان حازماً مع نفسه بشكل لم يتوقعه.

لا، لن يترك لمثل تلك المشاعر بأن تخرج إلى الحياة من تحت الرماد، فقد انقضى زمانها وولت. لا يمكن لها أن تظهر من جديد بعد كل تلك السنين من السبات، ذلك أمر يرفضهُ جملة وتفصيلاً. لن يسمح بعد كل ما بذله من جهد لنسيان سالم المراهق المولع بالنساء والشراب في أن يعاود الظهور في الحياة مرة أخرى. عليه أن يصرع قلبه الذي بدأ يخنعُ مجدداً وبسرعة للجمال. ففي الوقت الذي اعتقد فيه أن نواح خضراء في أعماقه قد شرع في الاضمحلال شيئاً فشيئاً، تظهر له مروة من رحم الغيب، لتبدو أكثر عنفاً في قدراتها من الأولى. هذه الفتاة الجديدة الموسومة بحدّة الذكاء واكتمال تشكّلها الأنثوي قادرة بلا شك أن تنسيه خضراء الصغيرة الساذجة التي لم يرَ من مناطق الجذب فيها سوى عينيها.

لكنه يأبى الاستسلام. لن يترك الأمور تجري على هواها مهما كانت حدّة المغريات. لن يحصل ما يدفعه إليه قلبه، ولن يسمح لنفسه أن تجرَّه نحو تلك المتاهات التي لا طائل منها سوى الألم والمعاناة. «ما ذنب سميرة الرائعة التي ضحّت بكل شيء لأجلك؟».

حانت منه بعدها تحديقة طويلة مركّزة في صورة محمد وزهراء الموجودة بمكتبه، كانا لا يزالان في الصفوف الابتدائية حينها. تذكّر سميرة وأهلها وأهله ثم تنهد بصوت مسموع. قرر بعدها، وسط ذلك الألم والتيه، الابتعاد عن مكتبه ولو لساعة من الزمن، ريثما يعيد إلى نفسه توازنها.

ركب سيارته واتجه نحو جامعة السلطان، معللاً قراره المفاجئ برغبته في الحصول على بعض المراجع من المكتبة الكبيرة هناك. تذكر حينذاك الفلاش الذي وضعه في الجيب الجانبي لباب السيارة والذي أهدته إياه مروة كي يستمع له «كل صباح» بعدما وصفت محتوياته بأنها «أروع أغاني الصوت الملائكي الخالد» و«ستجعل يومك أروع من الروعة».

وضع الفلاش في جهاز التسجيل فخرج صوت فيروز «يا هموم الحُب يا قُبل» أولاً، تبعتها أغنية «أهواك بلا أمل» فأيقن بأن من أهدته الفلاش لا شك تقصّدت ترتيب الأغاني بتلك الطريقة وأنها إنما أرادت من خلال ذلك لفت انتباهه.

مكث يستمع بإنصات شديد إلى كل ما غنته فيروز حينها، ولم ينتبه إلا وهو يركن سيارته في المواقف العمومية للجامعة.

لم يبرح مقعده ولم يطفئ محرك سيارته. لزم مكانه لأكثر من عشر دقائق ليقرر بعدها العودة أدراجه من حيث أتى، وقد اكتفى بما اعتراه حينها من هموم وأفكار ومشاعر داهمته وتعّمقت في نفسه، والتي بسببها استثقل زيارة المكتبة ورؤية ومصافحة زملائه القدامى.

ستكون لديه ساعة ونصف أخرى وهو في طريق العودة للاستمتاع بالمزيد من الألم والشجن الملازمين لصوت فيروز. لقد أعاد سماع تلك الأغنية بالتحديد «يا هموم الحُب يا قُبل، في بحار الشوق تغتسل، كلما قلنا صفا زمنٌ، رجعتك الريح تشتعلُ» أكثر من مرة.

حين وصل البيت لم يشأ تناول وجبة الغداء على الرغم من أن سميرة كانت قد طبخت له كبسة سمك الكنعد التي يُحبها. طلب منها أن تتركه لينام نصف ساعة أولاً. قالت له:

- شكلك اليوم كما المفصول من عمله.

. نسبة إلى مصنع السيفي للحلوى العُماني، أحد أشهر مصانع الحلوى في نزوى.

ستلاحظ سميرة ذلك التغَير الذي طرأ على زوجها. لا يمكن لامرأة مثلها أن تغفل عن ذلك، وقد اعتادت على خطهِ الواضح في الحياة اليومية والذي لا يحيد عنه منذ فترة طويلة. ستلاحظ ذلك بكل تأكيد، وعليه أن يفكّر فيما سيقوله لها بعد أن يستيقظ من غفوته القصيرة تلك. سوف تسأله بلا شك، وسيكذب عليها بكل تأكيد. لكنه عجز حتى على استعطاف النعاس واستدراك النوم نحو سريره ولو لنصف ساعة. عقله مشتتٌ بشدة أكثر مما كان يتصوره. الأسئلة ترجُّ في أعماقه عن أسباب تلك التغيرات التي يَمرُّ بها دون إرادة منه، عن عجزه الغريب للتصدي لها والوقوف في وجهها ونزعها من أعماقه بكل عزيمة وإصرار.

لم يُجدِ نفعاً كل ما درسه وتعلّمه وقرأه عن علوم الإنسان الاجتماعية والثقافية وعلوم الفلسفة وعلم النمو السلوكي ومبادئ الأخلاق وغيرها. حين التقت عيناه بعيني خضراء أول مرّة، تدفق من العدم دم المراهق في دمه، اشتعلت فيه تلك الرغبة التي يخجل من البوح بها، لكنها رغبة جنسية لا أقل ولا أكثر، هكذا حددها.

اهتمامه الجديد بعد ذلك بمروة برهن له أن مناطق الضعف لديه أمام الأنثى ما تزال حاضرة، وأن خلايا الغرام تلك التي ظنّها ماتت منذ ردح طويل من الزمن لا تزال على قيد الحياة.

رويدا رويدا سيخرج الأمر عن نطاق السيطرة، وسيتخطى قدراته على التحكم فيها. ذلك بالضبط ما حصل معه حين ازدحم بحب بسميرة.

جرب مثل تلك المشاعر من قبل مع زوجته. يومذاك لم تترك مشاعره من فرصة سوى القتال من أجل أن تُصبح مُلكا له في بيته. أجبرته أحاسيسه المتدفقة كشلال على الإسراع بالزواج منها حتى قبل أن تنهي تعليمها.

الأمر يبدو له مختلفا قليلاً مع مروة، فحتى وإن تملّكه تجاهها، حديثاً، ذات الشعور الحسي مع خضراء، مثلما كان حاله مع سميرة؛ إلا أن الأمريكية الأُردنية تحضر كذلك بقوة في عقله. مروة موجودة وسط رغباته الجسدية والعقلية معاً، بل إن حضورها القوي في أعماقه بسبب ذكائها أكبر بكثير من حضورها بسبب جسدها.

عقله الذي بدأ يخونه ويتمرد عليه وعلى قوانينه، يغافله بين الحين والآخر، يئز في أذنيه كي لا يتركها تفلت من بين يديه. يقنعه بأن فتاة مثلها، في حدّة ذكائها ورغبتها الجارفة للتعلم لا يفوّتها إلا الأحمق. مروة الفطنة تمثل لك نصفك الثاني الذي تمنيته. ليس نصفك العاطفي وحسب، بل العقلي والروحي في آن. إنها هي من كنتَ تبحث عنها وتحلم بأن تكون شريكة حياتك القادمة. مروة الآن، في هذه الفترة المختلفة تشكل لك كل أحلامك القادمة في الحياة. سميرة كانت هناك كأفضل خيار متاح حين غاب الخيار الأفضل على الإطلاق. جسد سميرة هو ما كان يهمك يومها، لكنك اليوم محتاج إلى عقل مثل عقلك. مروة هي الوحيدة القادرة على أن تكون المرأة الكاملة لك جسدا وعقلا. الوحيدة القادرة أن تكملك علماً وذكاءً. معاً ستشكلان قوة علمية مهيبة. معها ستكون قادرا على تحقيق أحلامك العلمية تلك. ستساعدك تلك الفتاة الصغيرة المشحونة بالنشاط والدافعية والعزيمة على الوصول بسرعة إلى ما تريد تحقيقه من قفزة علمية غير مسبوقة.

لن تستطيع سميرة في وضعها الحالي أن تحقق لك ذلك. نمو عقلها وتفكيرها توقف منذ أن أن تزوجت بها أو منذ أن تزوجت بك، فظلّ على معتقداته وعلومه وأفكاره القديمة لم يتقدم. الأمر مختلف مع مروة الصارخة بالشباب والضاجة بالحيوية والطافحة بالموهبة، فهي الوحيدة ممن قابلتهن في سنوات حياتك الأخيرة القادرة على أن تمدّ لك يد المساعدة وأن تسرّع من خطاك العلمية لتوصلك في أقصر وقت ممكن إلى مبتغاك وأهدافك التي تحلم بها.

لقد دخل عقله في الخط بقوة. عقله الذي غاب في كل علاقاته السابقة مع الجنس اللطيف حين لم يكن

بحاجة إليه، يفرض نفسه عليه الآن بقوة ليصوّر له الأمر بشكل مختلف عن السابق.

«هل يحاول أن يشفع لنفسه ما ينوي القيام به؟»

جفل في فراشه. دخل الحمام وغسل وجهه بماء بارد ثم جلس على طاولة الطعام مقابل سميرة، التي انتظرته على الرغم من شعورها بالجوع. كان موعد أذان المغرب يقترب حينها. تلك كانت المرة الأولى التي يتناولان فيها طعام الغداء في ذلك الوقت المتأخر من النهار.

لا بد أن الشك خامرها. حدث وأن مرّ في السابق بمثل تلك الحالات. يأتي مرهقاً ولا يتناول غداءه. ينام قليلاً ثم يصحو ليجدها قد تناولت نصيبها من الطعام تاركة له ما تبّقى منه. اليوم قررت أن تنتظره. ليس ذلك من عادتها. لم تفعل ذلك من قبل، فأيقن بأن ثمة أسئلة تدور في رأسها منعتها من تناول طعامها هذه المرة.

- شكلك ما طبيعي يا أبو محمد، يا ليت تخبّرني عن هذه الهموم اللي تشغل راسك؟

تسأله في حين يحاول، من خلال علامات وجهها، استطلاع المدى الذي وصل إليه انزعاجها. يرتاح. وجهها وطريقة كلامها لا يوحيان بأكثر من انزعاج بسيط يسهل التعامل معه.

- ليست هموماً، ولكن الشغل أصبح ثقيلاً، أنا وحدي في القسم وما قادر أحصل أحد أعتمد عليه حتى يساعدني في العمل. عندي خمسة طلبة ماجستير وثلاثة دكتوراه علاوة على التدريس وكتابة الأوراق. أحس إني محتاج إجازة أو سفرة لأسبوع حتى أغيّر جو وأستعيد نشاطي.

يجيبها.

لم يُحضِّر هو تلك الإجابة، إنما خرجت وتدفقت هكذا وحدها. لا تزال سرعة بديهته حاضرة لتخرجه من الورطات التي يوقع نفسه فيها.

- حلو، من زمان ما سافرنا مع بعض، خذ إجازة ونطلع أنا وأنت، حتى ولو إلى دبي.

للوهلة الأولى وهو يسمعها تنطق بكلماتها تلك أيقن بأن «سرعة بديهته» إنما أوقعته هذه المرة في ورطة بدل أن تنقذه. لكن لم يلبث أن أعاد التفكير في ما سمعه منها من اقتراح. لما لا؟ يقول لنفسه.

- صحيح، عندي نفس الفكرة، سأرجع إلى جدولي خلال اليومين القادمين وسوف أخبرك عن الوقت المناسب.

- ولكن أنت طول عمرك تشتغل وتتعب دون أن تشتكي، ما الجديد الذي حصل وجعلك مشغول البال ليل نهار؟

عليه أن ينهي ما تبقى في داخلها من قلق.

- أعتقد أنه السن، أعتقد إني بدأت أشيّب.

- بعدك شباب أبو محمد. لكن فعلا الإنسان ما الذي يأخذه من الحياة؟ صار لنا زمان ما سافرنا كما كنا نفعلها في أول أيام زواجنا.

تبتسم، ويبتسم لها. لقد نجح في القضاء على بقية قلقها.

تذكّر حينها رحلاتهما العديدة إلى بانكوك. كانا كلما وجدا فرصة للسفر، حجزا سريعا وكانا في أول طائرة مغادرة إلى حيث بلد الأسواق والناس المكتظة القادمة من كل أصقاع العالم. حدث ذلك حين كان الغرام ذا أولوية ولا يأتي العمل والبحث إلا في مراتب متأخرة جداً من الأهمية. لكن آخر سفرة مشابهة مضى عليها الآن أكثر من خمسة عشر عاماً. يذكر يومها، بشيء من المرارة، أنه حين عاد من سفرته تلك تفاجأ بأن الكلية عيّنت زميلاً له أصغر منه سناً رئيساً للقسم الذي يعمل فيه. كان ذلك زميله الذي سبقه في الوصول إلى درجة «أستاذ مشارك» قبله. علّلت الكلية قرارها ذاك بتفوق زميله في كتابة الأوراق العلمية مقارنة بما حققه هو والذي كان سبباً كذلك في بقائه «أستاذاً مساعداً» لا أكثر. قرر

منذها التفرغ للبحوث وكتابة الأوراق العلمية ومسابقة الزمن للحصول على درجة الأستاذية في حقله والتفوق على كل من هم من أبناء جيله ومن سيأتي بعده.

أصبح لذلك يقضي معظم إجازاته إما في بلدته نزوى، أو في زيارات محدودة الأيام إلى ماليزيا أو زيارات خاطفة وسريعة إلى خريف صلالة أو أسواق مدينة العين القريبة والتابعة لإمارة أبوظبي خصوصا خلال إجازات أيام الأعياد.

وسميرة التي تربت مع أهلها على حب السفر منذ نعومة أظافرها بحيث لا تمر عليها سنة دون أن تتعرف على دولة جديدة في الشرق أو في الغرب؛ اقتنعت برغبة زوجها في أن يقضي السنوات العشر القادمة على أقل تقدير في البحث والكتابة أو إلى أن يحقق طموحه ويصبح «بروفيسوراً» مشهوراً يشار إليه بالبنان، بعدها، كما وعدها، سيعودان إلى حياتهما السابقة الثرية بالسفر والترحال.

لم يُخطط تماما أن يستمر به الحال هكذا، لكن حب المعرفة وشغفها، وألق التفوق البحثي طغى عليه. أصبحت حياته منذها مجردة من أي معنى للمتعة والراحة.

تلك الحياة، القديمة، حضرت بكل تفاصيلها اليوم، في لحظة ما، حين كانت مروة بمكتبه هذا الصباح. تمنّى لو أن بإمكانه سحب تلك الفتاة من يدها وجرها إلى المطار، ومنه إلى الطائرة، ثم إلى غرفة في فندق أو منتجع لتكون وحدها معه، ويكون وحده أمامها ليل نهار.

انتبه للجالسة أمامه وهي تحدق في وجهه وقد أحس بأنها لاحظت سرحانه وإبحاره بعيداً عنها من جديد. قال:

- أحاول أن أُرتب لسفرة سريعة لنا حتى ولو لثلاثة أو أربعة أيام. أعتقد أن الوقت مناسب كي نقضي أنا وأنت وقتاً مع بعضنا، منذ زمن لم نسافر وحدنا، الآن محمد وزهراء كبرا وأصبحا عاقلين ولا خوف عليهما حتى لو بقيا وحدهما في البيت.

قرر ذلك في لحظتها، وقد أقنع نفسه بأنه ربما لو سافر معها، وأعادا معاً ذكريات وتفاصيل سني حياتهما القديمة، الجميلة؛ فسيعينه ذلك على استعادة مشاعر تلك المرحلة، وبالتالي يستعيد ما اعتقد أنه فقده من حب لزوجته، وسيعود بعدها من تلك السفرة وقد تمكّن من نبذ ذلك الضياع والتشتت من رأسه ودمه.

***

في الصباح كان قد طلب من عميد الكلية إجازة لثلاثة أيام، مقرراً أن يبدأها منذ اللحظة. لكنه امتعض من نفسه وهو يراها مجبولة على البقاء حتى تنهي مروة عرضها أولاً أمامه وأمام الحضور. اعتقد بأنه يملك من القوة والإرادة ما يمكنانه من المغادرة قبل ذلك، لكن عزيمته خانته ساعتها. شعور ما خالطه وألزمه أن يرى بأم عينيه طريقتها في الحديث أمام الحضور وكيف ستكون حركاتها وسكناتها ولو لمرة أخيرة قبل أن يعود من سفرته تلك وقد «تغيّر كل ما يحسُّ به نحوها!»؛ فأذعن للبقاء.

إن من بين الأمور التي تمكِّن المرء من التخلص من حبِّ شخص ما هو في قضاء أوقاتٍ طويلة مع الأصدقاء أو التفكير الدائم في الجوانب السلبية للمحبوب أو استعاضة المحبوب بشخصٍ آخر. يتذكر أن ذلك كان من ضمن ما درسه في السابق، لكنه يعي بأنه لا يملك الكثير من الأصدقاءِ. بل لا يملك في الأساس من أصدقاء يمكنونه من قضاء أوقات طويلة معهم. لم يتبقَ له إذن إلا الابتعاد والسفر مع سميرة، حبه الوحيد، والتي ستكون قادرة على أن تنسيه مروة وانجرافه المحموم نحوها ونحو مخاطر لا أول لها ولا آخر. سميرة الوحيدة القادرة على أن تعيده إلى صوابه وأن تعيده إلى سابق عهده.

هل هذا اعتراف منه بأنه يُحبها؟! لا يحصل العشق في هذا العمر بذات السرعة التي يحدث بها في سني المراهقة. لا يجوز له أن يصنِّفه حبا بهذه العجالة، يجب أن يبقيه في خانة الإعجاب فقط. لديه

أربعة أشهر من الإعجاب قبل أن يتحول ذلك الشعور إلى حب «اليوم الأخير المسموح فيه أن يبقى الإعجاب إعجاباً هو اليوم العشرون بعد المائة، إذا زاد عن تلك الفترة بيوم واحد فهو حب». لم ينس ذلك.

لم تُخيِّب مروة ظنّ من حضر للاستماع إليها من زملائها أو حتى من الأساتذة المحاضرين بكلية العلوم بشكل عام. كانت حاضرة بقوة ولم يبدُ عليها أي نوع من الارتباك أو التوتر في الحديث وهي تلقي عرضها ذاك. لقد اجتازت الاختبار أمامه بأكبر درجة ممكنة. حتى تلك الأسئلة التي وجِهت إليها، خصوصا من سلطان، أجابت عليها بشكل لم يتوقعه هو نفسه. كانت تتحدث باللغة العربية وأحيانا بالإنجليزية، لكن تأتأة واحدة أو نسيانها لكلمة ما عربية كانت أو إنجليزية لم يحدثا. اكتشف حينها موهبة أخرى لديها.

- هل تقولين لنا بأن جبل قهوان العظيم يخبئ في أعماقه الكثير من تاريخ نشأة الأرض؟

يسأل سلطان بخبث. تبتسم وهي تنظر إليه شزراً. تعرف أنه ينتظر منها زلة لسان ليبدأ هجومه. لكنها أخرسته. أجابته مبتسمة:

- أعرف أنك من أنشط تلاميذ الجيولوجيا في الجامعة ومن أكثر المهتمين بتاريخ صخور هذا البلد الجميل. بكل تأكيد صخور قهوان عريقة عرق التاريخ الجيولوجي، لكنني ما زلت في بداية الطريق وسأكون في وضع أفضل في أن أجيبك بكل دقة وذلك بعد أن أنهي كتابة الأطروحة.

«الأطروحة»!! لقد نسي تلك الكلمة، لم يسمعها منذ زمن بعيد. لكن إجابتها تلك جعلت الحضور يلتفتون نحو بعضهم من فرط إعجابهم بما سمعوه منها.

يُقر ويقر معه من سمعها ورآها بأنها طالبة متأسسة بشكل غير عادي. طالبة من الصعب أن تجد ما يمكن أن يؤخذ عليها. لا مجال حتى لتوجيه النصح لها لكي تصبح أفضل في المستقبل، فقد كانت الأفضل بلا منازع. كانت ساحرة في طريقتها، لبقة في طرحها، وخبيثة في حركاتها وتوزيع ابتساماتها لهم. يراهن على أن أكثر من نصف الحضور لم يستطع التركيز على ما قالته مع حضور حركاتها وسكناتها. كان واضحا كذلك، وهو الذي لم يطرح عليها سؤالاً واحداً، أن بعضهم إنما وجه إليها الأسئلة لأجل أن يبقيها أطول فترة ممكنة واقفة أمامه، رغبة منهم في التمعّن في الجمال المُباح أمامهم بعد أن اعتادت أعينهم على رؤية الفتيات الغارقات في عباءاتهن السود من الرأس وحتى أخمص القدمين.

خلفان كان يجلس بجانبه وكان من الذين بقوا يهزون رؤوسهم ويبتسمون لمروة كلما التفتت إليه، مال في لحظة على سالم وهو يهمس في أذنه:

- هذه المروة ما تتفوت أستاذ سالم، أكيد بترفض الزواج مني، لكن لو كان عندي ولد في سنّها لما ترددت في خطبتها له.

ثم حين لم يجد من سالم سوى شبح ابتسامة باهتة ارتسمت على وجهه، أردف:

- لو عندي ولد مثل محمد لكان خطبتها له.

انتبه حينها.

أجل، في واقع الأمر هو معجبٌ بفتاة من سنّ ابنه. لم يُعر ذلك الأمر اهتماماً كبيراً من قبل ولم يمنحه الوقت الكافي من التأمل والتفكير. مروة بالفعل في سنّ محمد، ربما تكبرهُ بعام لا أكثر، فكيف يفكر فيها وفارق العمر بينهما كبير لا يمكن إغفاله؟ وكيف تمادى سمح لنفسه إذن أن يعجب بها؟

في سرّه شكر خلفان على ملاحظته تلك التي قرر أن يضعها على رأس قائمة أسباب رفضه للمهزلة التي يسعى قلبه إلى أن يجره إليها.

مروة بالفعل أقرب إلى أن تكون لمحمد من أن تكون له. أصاب خلفان فيما قاله، حتى وإن كان له من وراء ذلك مآرب أخرى.

هل شعر خلفان بأن رئيسه في العمل معجب بالفتاة الصغيرة فأراد تذكيره بفارق العمر بينهما من

خلال مقترحه؟ هل كان يريد جسّ نبضه ليتعرف على ردّة فعله؟ يستبعد ذلك خصوصاً بعد حادثة جبل قهوان التي لم يمضِ عليها الكثير.

هل أحسّ بقرصةَ في قلبه وهو يسمع لقول خلفان؟ نعم أحسَّ.

وفي الحال تخيّل لو أنها صارت لابنه. سيكون الأمر بالغ الصعوبة عليه آنذاك. كيف وهي الآن تتسلل بخفة ويُسر ناحية أعماقه وقلبه؟ وكيف وقد شعر بتلك الغيرة القديمة تغزو وجدانه وهو يلمح العيون تأكل منها قدّامه دون أن يقوى على فعل شيء؟

«إذن وصلت إلى قلبك؟!». «يا لها من مشاعر غريبة تلك التي تعيشها يا سالم، أيها البروفيسور المعروف، المشهود له بالعقل والمعروف بالرزانة والشخصية الجادة المستقيمة كحد السيف، يا لك من معتوه لا يدري ما الذي ينتظره».

«ما هذه الأفكار التي تمر برأسك يا أبا محمد، كيف جرفتك مشاعرك إلى تلك الأماكن الغريبة جداً عليك؟ كيف استطعت أن توصل نفسك إلى بداية المتاهة التي لا تدرك إلى أين ستأخذك دروبها وأين ستلقي بك نهاياتها؟».

لم يطرح عليها سؤالاً إذن، اكتفى بأن صفق لها مبتسما علامة على رضاه الكامل بما قدمته. لكنها فاجأتهم في عرضها ببعض المعلومات عن حديقة الصخور والأنهار الجليدية وجبل قهوان لم يعلم عنها مسبقاً بها ولم يسبق أن قرأ عنها من قبل. حتى خلفان الذي دائماً ما يفتخر بأنه «وإن كان أخصائي مختبر جيولوجيا، وليس محاضراً» يعرف من المعلومات الجيولوجية أكثر بكثير من «الدكاتره في تخصصه»، وأن على الجامعة أن ترقيه ليصبح محاضراً؛ لم يعرف عن تلك المعلومات شيئاً في السابق.

«أشك في أن تلك المعلومات صحيحة» يهمس له خلفان، رغم أن مروة لم تبخل بذكر المراجع التي لجأت إليها للحصول على تلك المعلومات التي كان معظمها متوفرا في مكتبة جامعتها بنيويورك كما ذكرت.

غادر القاعة باتجاه مكتبه ليجدها بعد خمس دقائق تقف أمامه وقد رسمت على وجهها ابتسامتها الفاتنة تلك. اليوم يراها أجمل من أي وقت مضى. كانت ترتدي قميصا رصاصيا هذه المرة، تجاوبت معه عيناها فتحولتا هما الأخريان إلى اللون الرصاصي. ألوان مروة محددة، فمنذ وصولها لم يرها ترتدي سوى أربعة ألوان: البني والفستقي والأزرق الغامق واليوم جاء الدور على الرصاصي.

- لم تعطني انطباعك بروفيسور؟

بادرته سريعا وهي تفتح باب مكتبه متجهة بخطوات سريعة ناحيته. كان يقف خلف طاولته وهو يرتب بشيء من العجلة الأوراق المتناثرة على سطحها.

- أعتقد ما تحتاجي لرأي بعد كل ذلك التجاوب والرضى من قبل الحاضرين.

يجيبها.

- انطباعاتهم لا تشكل لي أي اهتمام، أنت من يهمني. يهمني أن أسمع رأيك بوضوح لو سمحت وبدون مجاملات.

وكأنها تحيط بما يجيش في عمقه عنها، وكأنها تعلم بأن هذا الجالس أمامها على مكتبه، أستاذها والمشرف على دراستها، قد بدأ في الانزلاق باتجاهها. قال:

- كنت رائعة جدا وحضورك ممتاز لا غبار عليه، رغم أنني سأسألك لاحقاً عن مصادر بعض المعلومات التي ذكرتِها في العرض، لكن ليس الآن، علي أن أخرج سريعا الآن.

تتحول تعابير وجهها من الفرح إلى التساؤل:

- إلى أين يا بروفيسور، يفترض أن يكون لنا لقاء اليوم لمناقشة الخطوات القادمة من رسالتي؟
- نعم، أعتذر لك، طرأت ظروف عائلية وسأكون مضطراً للغياب ثلاثة أيام قادمة. سأعود بداية الأسبوع المقبل. عليك أن تستعدي لرحلتنا القادمة إلى الجبل الأخضر، وهي الأهم.
- هل ستكون في عُمان خلال الإجازة بروفيسور؟
- لا، سأكون بدبي.

حدّثته بعدها وبشكل سريع عن حركات زميله خلفان وتحرشه بها. وعلى الرغم من شعوره بالغضب مما سمعه ؛إلا أنه حاول أن يبدي أمامها عدم اكتراثه بالأمر. شددّ على أنه واثق جداً في قدرتها على التصرف مع زميله و«إخراس محاولاته الصبيانية الطائشة التي لا يجب أن تصدر عن شخص مثله» لكنه لم يشأ أن يخوض معها في حوار مطوّل عن الأمر خشية أن تُفسّر اهتمامه بشكل مختلف.

ثم وهو يبرحُ مكتبه حاملا كومة من تلك الأوراق، وقد حشرها بشكل عصبي في شنطته المصنوعة من الجلد الطبيعي، وقد وضح من جملة التشققات عليها أنها قد شاخت أو أنه من أولئك الذين يسيؤون استخدام الشُنط؛ قالت تودعه:

- بالسلامة بروفيسور، نفسي مرة أزور دبي معك، يا ليت لو تحقق لي حلمي بروفيسور، سأغدو شاكرة لك.

كيف يمكن لذلك أن يحدث صدفة؟ فللتو وهو يُبلغها بنيته السفر إلى دبي، داهمته ذات الرغبة في أن تكون رفيقته في تلك الرحلة؛ ليجدها تنطق بما يجول في ذهنه. هل تقرأ ما يدور في خَلَده؟ كيف يمكنه تفسير ذلك لنفسه؟ هل هو «توارد خواطر؟!» ربما، فالمسافة بينهما كانت أقل من عشرة أمتار لحظة بوحها برغبتها تلك. لن تهمه التفاسير، ليس التقرب منها هو ما يريده الآن، بل العكس. سيمضي فيما عزم عليه. سيعتبر ما حصل الآن مجرد مصادفة بحتة، لا أكثر.

لكنها بالنسبة إليه عنت ما قالته. لقد قصدت أن ترمي إليه تلك الجملة. كان بإمكانها أن تتوقف عند «نفسي أزور دبي». لماذا أضافت لها كلمة «معك»؟ لقد قالتها عن سابق إعداد. إنها تتعمد كل كلمة تقولها. ليس مغفلاً حين يأتي الأمر على الكلمات وإيحاءاتها المدسوسة فيها. تلك الإيحاءات تمرّس عليها في السابق، خبِرها وجرّبها بنفسه، بل كان أستاذاً لا يجاريه فيها أحد. هي الآن تلعب معه تلك اللعبة التي تمرّس عليها وأجادها حق الإجادة. إنها تستخدم معه سلاحه القديم. تذيقه من ذات الكأس التي تعوّد أن يذيقها غيره.

في عرضها ذاك أمامهم، ذكرت خلال أقل من ساعة اسمه أكثر من عشر مرات. لم تذكره بالطريقة المعتادة، لا، ليس كما تذكر الطالبة أستاذها الذي يشرف على مشروع بحثها، ليس كما نطقت به زميلاتها ممن سبقنها في إنهاء دراسة الماجستير تحت إشرافه. كانت تنطقُ باسمه وكأنه زميلها في البحث، وكأن فارق العلم والتجربة والسن لا يشكل لها هاجساً حين تتحدث عنه.

«الأستاذ سالم بعثه لي القدر»

«الأستاذ سالم من أكثر العقول ذكاءً في علوم الإنسان وحتى في علوم الأرض»

«الأستاذ سالم عالم عالمي وليس محليا أو عربيا وعلينا أن نفتخر به جداً»

«أتمنى أن أقضى كثيرا من الوقت لأنهل من علم الأستاذ سالم الواسع الغزير»

تقول ذلك وكانت حتى الأمس القريب غاضبة لما بدر منه تجاهها أسفل جبل قهوان. «هل أحسّ خلفان بما أحسّ به هو وهي تكرر اسمه على مسامع الحاضرين بتلك الطريقة، ولذا قال ما قاله من أجل جسّ نبضه؟».

لم تكتفِ بذلك، بل لحقت به في الممر المؤدي إلى مواقف السيارات مستأذنة أن تأخذ من وقته دقيقة

قبل أن يمتطي سيارته.

- بروفيسور، لاحظت أنك لا تملك أي منبر من منابر التواصل الاجتماعي، لا فيسبوك ولا تويتر. أعتقد على كثرة الأوراق العلمية التي كتبتها والاكتشافات العلمية الهامة فيها، من المهم أن يكون لك متابعون ومعجبون، لا يجب أن تبخل عليهم بذلك.

لقد سمع ذلك من ابنه محمد قبل أشهر. أسدى إليه ذات النصيحة، لكنه تجاهلها. لا يؤمن هو كثيراً بذلك التطور التقني «المحموم» الذي يربض تحت وطأته عالم اليوم، ولا بأهداف من اخترعه وورط الناس به، فأبقى على القليل مما تعلمه عن التقنية وتحديدا على ما يساعده في الكتابة.

لم يُكلّف نفسه بعد كل ذلك العمر عناء الإلمام بما يجيده الشباب اليوم، بل يجيده حتى الأطفال، وربما الرُّضع. امتنع حتى عن امتلاك هاتف محمول حديث يمكّنه من التخاطب مع ما يعرف بالواتس آب أو غيره من وسائل تتزايد كل يوم، فأبقى على هاتف «نوكيا» القديم القادر على استقبال الرسائل النصية القصيرة بعد أن يُجزئها.

اقتنع بأن ما يسمى وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة لم تُخترع سوى لهدر الوقت الثمين للبشر، فبقي وحده في الجامعة وربما في عُمان ككل ممن لا يزالون صامدين ومبتعدين عن إغراءات التقنية الحديثة.

قال لزوجته المدمنة على الواتس آب:

- تماما تماما كما هو الحال معك...

كانت تحاول معه للمرة المائة أن يقتني هاتفاً نقالاً حديثاً تستطيع من خلاله أن تتواصل معه، ويستطيع هو أن يرسل لها صوره حين يحضر المؤتمرات والندوات خارج عُمان. لكن رفضه بقي كما هو قاطعاً.

يكمل حديثه معها:

- حالك أنت الآن يبعث على الشفقة والحزن، كم هي عدد الساعات التي تضيع منك وأنت تقضينها مع الواتس آب والإنستجرام والسناب شات؟ أليس من الأفضل بدلا من ضياع كل هذا الوقت في اللاشيء أن تمسكي كتاباً هادفاً أو تشاهدي برنامجاً ثقافياً مفيداً؟

- التلفون فيه كل الأخبار وكل الكتب وكل البرامج الثقافية، ما لازم ورق ولا شاشة تلفزيون. العالم تطور يا أبو محمد.

- لكن وجود هذا الجهاز طوال اليوم بين يديك ليس إلا هدراً للوقت ومضيعة للصحة والعقل، وبعد كم يوم سوف تضطرين إلى أن تلبسي نظارات سميكة على عينيك وتضعي مخدّة قاسية وغير مريحة أسفل عنقك المصاب بانزلاق الغضروف، وقد يتطور الوضع معك إلى أن تخضعي مرغمة لعملية جراحية خطيرة في فقرات الرقبة.

بينه وبين نفسه يُقرُّ أن العالم تطوّر فعلاً، وأنه لا مناص من استخدام برامج التواصل الحديثة، لكنه قرر تأجيل تلك الخطوة حتى ينتهي من مشاريعه العلمية أولاً حين لاحظ انشغال زملائه المتزايد بهواتفهم، واضطرارهم في أحيانٍ كثيرة إلى مغادرة قاعات الاجتماعات بحجة «اتصال مهم» أو «اتصال عائلي وضروري أرد عليه».

قالت تُكملُ ما بدأته:

- اسمح لي بروفيسور سأقوم نيابة عنك بفتح مواقع لك وسأضع عليها أهم أفكارك ومساهماتك العلمية، طبعا بعد استشارتك وموافقتك.

أعجبته الفكرة وهو في عجلته تلك. لم لا طالما العالم الآن لا يتابع سوى تلك المنصات؟ وطالما

ستساعده هي بالذات دون سواها على تحقيق ذلك؟

هزّ رأسه علامة الموافقة، تراجعت للخلف وهو يحشر جسده داخل سيارته، ثم قالت مكملة حديثها وهو يتناول من فوق رأسه وبيده اليسرى، الطرف الحديدي لحزام الأمان:

- ولكن عليك أن تجد شخصاً آخر عندما أعود إلى نيويورك، يجب ألا تتوقف تلك الصفحات عن المتابعين.

وقفت بابتسامتها على مقربة من باب السيارة، فحفّزه منظرها ذاك على الاستعجال في إدارة محرك السيارة ورفع صوت جهاز التسجيل على صوت فيروز. ابتسم لها وهو يلمح علامات السرور مرتسمة على صفحة وجهها. لم تلبث أن غمزت له بعينها اليسرى رافعة إبهام يدها اليمنى علامة على التأييد. حرك السيارة وهو يقول:

- صرنا نسمع فيروز يا ست مروة.. على ذوقك.

خلّفها وراءه وهي تلوح بيدها اليمنى مودعة، والابتسامة لا تزال تملأ وجهها.

لم يلبث قليلاً حتى عاودته تلك الأفكار ثانية. فكيف يفسُّر لنفسه ما للتو قد قام به من فعلٍ طائش غير مسؤول؟!

لماذا قام به في الأساس؟! ما كان دافعه من ورائه؟ ولماذا هكذا بسهولة يوافق ومن دون أدنى تردد على مقترحها بإنشاء وإدارة حساباته تلك بعد أن رفض الأمر برمّته حين عرضه عليه ابنه؟

ثم كيف يبرر لنفسه الدافع من وراء إخبارها بأنه يستمع لفيروز؟ «على ذوقك» لماذا تلك العبارة؟ ما الذي قصده من ورائها؟ أهذا حقاً ما يريده بعد طول التفكير ذاك وبعد أن حسم أمره بوأد مشاعره نحوها قبل أن تستفحل؟! كيف يأتي الآن وبكل استهتار ليوصل إليها تلك الرسالة الواضحة: لقد أثرت فيَّ يا مروة!

كيف حصل منه ذلك؟! وكيف سمح لذلك بالحدوث؟!

يقضي يوما وأكثر في البحث عن الطرق التي يبعدها بها عن أفكاره ووجدانه. ساعات طويلة من التفكير المضني على ما ينبغي عليه القيام به كي لا يقع في المحظور، ليتصرف بعدها بتلك الطريقة الصبيانية غير المسؤولة.

لحظة مشاعر فياضة سيطرت عليه خلال فاصلة زمنية قصيرة لا تتعدى ثواني معدودات وأعادته إلى المربع الأول؟!

ذلك هو الفشل بعينه؛ أن يستنزف كل تلك الساعات من وقته في رسم سياسة واضحة فيما تبقّى لها من أشهر معه، ويقرر بحزم شكل العلاقة التي ينبغي أن تكون بينه وبينها من الآن فصاعداً، يفكر ويخطط لساعات، لتأتي لحظة مشاعر خاطفة فتلغي في ثواني معدودة كل ما خطط له!

ليس قراراً واحداً بعينه، بل جملة قرارات وعد نفسه القيام بتنفيذها منذ الغد الباكر؛ سيقلل فرص التقائه اليومي بها، ولن يبتسم في وجهها إلا فيما ندر، كما لن يخوض معها في الأحاديث التي تبتعد عن الجوانب العلمية والعملية في علاقتهما. لن يبين لها بعد اليوم وبأي حال من الأحوال مدى استلطافه لها، وسوف يتصرف معها بطريقة يُحسّسها فيها بأنها لا تمثل له سوى طالبة من طالباته لا أكثر. سيغضب عليها كلما كانت الفرصة سانحة، وسيُكثر عليها من الواجبات الدراسية التي ستجعلها منشغلة ليل نهار. سيجعلها تقرأ العشرات من المراجع لبحثها، بل المئات أو الآلاف إذا تطلب الأمر. سيغرقها في العمل ولن يترك لها من مجالٍ حتى لحكّ شعر رأسها.

قرر الكثير وعزم على التنفيذ حتى قبل بدء سفرته مع زوجته، لكنه فشل.

هو الوحيد الذي يعرف عن وعده الحازم لنفسه بعدم حضور عرضها ذاك، ومع ذلك فشل في الوفاء

بوعده. لو فعلها لكان الأمر بمثابة لطمة قوية لعلاقتها به. لو أصرّ على قراره وغاب صباحها عن ناظريها لكانت كرهته ولكانت قد قررت من جانبها الابتعاد عن محيطه. وقد يصل بها الحال إلى أن تُذعن إلى العودة من حيث أتت مكتفية بما رأته وتعلمته. لكنه لم ينجح في تحقيق ذلك. وعدَ نفسه بالكثير، لكن الأمور تداخلت عليه فجأة وبسرعة وتعقّدت أكثر ساعة أن دلفت مكتبه حاملة معها تلك الابتسامة الرائعة، يسبقها عطرها الفرنسي. فقَدَ تحكّمه في نفسه لحظتها، فشمله شعور مختلف، ذهب معه كل ما أبرمه مع نفسه من اتفاقيات هباءً منثوراً.

إنها تُسكره بحضورها أمامه، ربما بعطرها الغريب.

كم هي المرات التي قررت فيه شقراوات بريطانيا الابتعاد عنه بعدما اكتشفن أنه غير جاد في علاقته بهنّ، وأنه إنما يلعب بمشاعرهن من أجل الوصول إلى ما يريد منهنّ فقط. كان يجرّهن بعد ذلك إلى جلسة اعتذار وتصالح. «لنصبح مجرد أصدقاء بعد اليوم» يقول لهُنّ فيرضين، لينتهي بهن المطاف على سريره مرة أخرى مع نهاية الكأس الرابعة أو الخامسة.

إنها بالفعل تذيقه من ذات الكأس التي جرّعها لغيرها من بنات جنسها. إنها هنا لتنتقم لهنّ. وفي المقابل، يقوم هو معها، بكل خنوع واستسلام، بدور تلك الشقراوات، وبدلاً من الكؤوس المليئة بالغياب، تكتفي هي بخمرة عطرها وابتسامتها لتسكره وتعيده إليها من جديد.

شيءٌ ما يقول له بأن في الأمر مكيدة. سحراً، أو لعبة الغاية منها الفوز بأمرٍ ما لا يستطيع تبيّنه. لكنه يعود ليسأل نفسه مجدداً: ما الذي يمكن لمروة أن تكسبه منه؟ علمه مثلاً؟ هو يبحث في الإنسان وتجمعاته وهي تبحث في الصخور. اكتشافاته العلمية؟ لم تعد لديه اكتشافات علمية منذ أن كتب عن طول الإنسان الأول الذي عُثر على بقاياه في بعض الجبال في عُمان. لكنه حينها لم يقل من هو بالتحديد ذلك الإنسان.

كان ذلك أكبر اكتشاف علمي له ولبلده حينها. فيه برهن على صدق النظريات التي ذهبت إلى القول بأن طول الإنسان القديم يزيد عن العشرين متراً، حين كان الإنسان كبقية الحيوانات التي تعيش معه، يقتات على أوراق الأشجار العالية الضخمة وثمارها، فكان لزاماً عليه أن يكون بمثل ذلك الطول. استشهد حينذاك بعظام إنسان عَثر عليها هو ومن معه من طلبة جامعة السلطان داخل كهف الهوتة الشهير. تلك العظام كانت لإنسان عاش قبل أكثر من 7 ملايين سنة لا أكثر. لكنه اختتم ورقته تلك التي ما كانت تخص الجيولوجيين بأي حالٍ من الأحوال بقوله إن هناك اكتشافات جديدة عن طول الإنسان الأول على الإطلاق، أولاد وأحفاد آدم الأوائل الذين تجاوز طولهم الثلاثين متراً، وصمت. لم يزد على ذلك كلمة أخرى. بعدها لم يكتب شيئاً آخر بذات الأهمية.

وحتى ذلك الاكتشاف، الذي لا يساوي شيئاً أمام المفاجأة القادمة التي يعدّ لها العدّة، وإن قوبل بالترحيب والتصفيق والتشجيع والجوائز حينها، إلا أن كتابات كثيرة جاءت بعد ذلك كذّبت صحته. خرج من ثنايا العالم من وجه إليه أصابع الاتهام بأنه تلاعب بالعينات التي عثر عليها، وأن الإنسان القديم الذي يصفه في أوراقه لا يمكن أن يكون قد عاش حينها وسط صحراء خالية من أي عنصر من عناصر الحياة.

تلك الانتقادات والتشكيكات في مقدراته العلمية هي التي خلقت في أعماقه رغبة التحدي في أن يسبر أعماقاً أكثر خطورة من ذلك؛ أعماقا ستشكل منحنى جديداً في علم الإنسان وتاريخه على الأرض. ظل يسخر من منتقديه طويلاً، فمن قال لهم بأن كهف الهوتة موجودٌ في الصحراء؟ ومنذ متى قررت الصحراء أن تخبئ في عمق رمالها كهوفاً؟!

لكنه يتذكر بأنه أخطأ في مرة واحدة لن ينساها. ركبه الحماس يومها فقال وهو يستعرض ورقة في إحدى مشاركاته في مؤتمر عقد في لندن خُصص عن تاريخ البشر الاجتماعي؛ بأنه أصبح قريباً جداً

من «تحديد المكان الذي حط فيه أبو البشر آدم رحاله بعد أن هبط من الجنة». كان ذلك خطأ جسيماً لا يغتفر. بسببه، ربما، سُلطت الأعين عليه، وتسلطت الأفواه.

لا يوجد لديه اكتشافات أخرى حتى يمكن لمروة الجيولوجية أن تستفيد منها في الوقت الراهن، بل العكس، هو من يخطط للاستفادة من وجودها معه في هذه المرحلة التي يعتبرها أهم مرحلة علمية في حياته.

لا، ليس في الأمر مكيدة. ليست المشكلة في مروة حتى وإن كان لها ما تضمره من نوايا. المشكلة تقع فيه هو، في تلك الحمم الملتهبة التي ظهرت على السطح من جديد. ما يراه الآن ليس إلا انبثاقاً لتلك الصهارة «العاطفية» المختبئة منذ سنين.

هل يمكن للإنسان أن يكون مثل الأرض؟ يتساءل.

في عمق الأرض يوجد دائما ماجما منصهرة لا تُرى ولا تُحس، بإمكانها الانبثاق على السطح فجأة إذا ما تسبب أمر ما في تحريك نومتها الهانئة؟ هل الإنسان مجبول في كل حالٍ من الأحوال على حمل صفات الأرض؟ فهو المخلوق من طينها وترابها، يحوي بالضرورة جميع صفاتها. في أعماقه ترقد الماجما التي لا تخمد وإن هدأت دهراً. تنبثق وتظهر فجأة حين يحركها مسبب ما مثله مثل الأرض التي خُلق منها؟! الهزّة الأرضية تُحرك الماجما في باطن الأرض فتنبثق على السطح، والهزّة «المشاعرية» تُحرك الماجما في باطن الإنسان، فتنبثق هي الأخرى على السطح؟!

هل ما يحركه الآن ويقذف بحمم شعوره المستعرة من أعماقها إلى السطح هو إحساسه بقيمة ذلك الجمال الأنثوي فقط، أم أن الأمر أبعد من ذلك؟ هل للعقل دخل بالأمر حينما يُعجب بشيء ما؟ أم أن الأمر أعقد من ذلك بكثير؟

ليس غبياً، يستطيع أن يحلِّل ما يدور ويجري أمامه ومعه. صحيح أنه لم يكن يتحكم في عواطفه مع سميرة، لكنه يومها كان صغيراً، لم يكتمل فكره بعد. أما الآن فهو ناضج، يعي التحولات التي تطرأ على عقله وقلبه.

عليه إذن، أكثر من غيره، كونه عالم النفس والإنسان، أن يكون يقظاً لمثل تلك التبدلات الشعورية والوجدانية التي تغزو داخله وتستبيح دعته. عليه أن يجيد التعامل معها طالما يعرف مسبّباتها وطرق التخلص منها. عليه أن يمتلك في يديه زمام الأمور كلها ويصيّرها وفق ما يشاء هو لا وفق ما تشاء هي!

هل فعلاً لا يزال يملك زمام الأمور؟، يهزّ رأسه غير واثقٍ من الاجابة.

معها، لو كان العقل هو الذي شدّه إليها لكان هناك الكثيرُ من النساء اللواتي تعامل معهن ممن يملكن مواصفات مروة العقلية ولم يعرهن اهتماما.

هل العقل والجسد إذا اجتمعا معاً؟ هل صغر السن وحنين جسده وليس عقله للعودة إلى تلك الأيام الحارقة بحممها المشتعلة على الدوام؟

ثمة ما يجهله يعتمل في جسده دون أن يملك القدرة على تحليله بدقة والتحكم فيه. يحدث له ذلك وهو ليس في سن الأربعين ولا الستين حيث يؤمن البعض بأن الرجل يمرُّ حينها بحالة من المراهقة المتأخرة كتلك التي يمر بها وهو في العشرينيات من العمر. لكنه يمر بها وهو في الخمسين، تماما في الوسط، ما بين الأربعين والستين، فهل يُصنِّف حالته بالفريدة؟

«قد يكون الأمر كذلك» يهمس لنفسه.

أسكت جهاز التسجيل وهو يضرب بقبضة يده على مقود السيارة رافضاً للمرة الألف ما يمر به رأسه من تشتت وقلبه من ضعف. ليعود مرة أخرى إلى قراره الأول بنسيان مروة تماماً والعودة بجُل تفكيره ومشاعره وأحاسيسه إلى سميرة، أم محمد وزهراء، وشريكة مشواره فيما تبقى له من سنوات على

ظهر الأرض. فلا يمكن لتلك التضحيات التي قدمتها زوجته له أن تَنسى، وأن تجازى عليها في المقابل بحب امرأة أخرى وبعد أن مضى على زواجهما ثلاثة وعشرون عاماً وابنان جميلان. الأحرى به والأكرم له أن ينتحر بدل أن يدمّر حياة من ضحّت لأجله بحياتها.

كانت الساعة الرابعة عصر يوم الثلاثاء حين غادرا بالسيارة إلى دبي، متخيراً الطريق المؤدي إلى ولاية الحمراء ومنها إلى عبري دخولا إلى أبوظبي ومنها إلى دبي. ستأخذ الرحلة منهما أكثر من خمس ساعات، وسيكون بمقدوره حينها الحديث مع زوجته بإسهاب. سيحاول خلال ذلك الوقت أن يستعيد الحياة التي كانت حاضرة في أحاديثهما ذات زمان.

لا يصدق أنه قضى كل تلك السنوات حازماً مع ذاته تجاه علمه وبحوثه، راكلاً كل ما كان يمت لحياته السابقة بصلة. لا يصدق كيف قطع كل شيء مع تلك الحياة الجميلة بتلك الصرامة لمجرد أنه وجد من هو أقل علماً وسناً منه سيداً عليه في عمله.

كانت عائلة سميرة كذلك أحد أسباب قراره الصارم بالابتعاد عن كل ما له علاقة بحياته السابقة الطافحة باللعب واللهو. لم يقتنع والدها به. بل ظلّ على قناعة عمياء بأنها تستحق من هو أفضل منه؛ فقرر تحديه.

أبوها لا يزال مصمماً حتى اليوم على خيبة أمله فيه على الرغم من بلوغ سمعته ذلك المبلغ. فخلال كل تلك السنين بعد الزواج لم يزر الأب بيت سالم ولا مرة واحدة، ونادراً ما كان يُرحب بسالم بنفس راضية حين يزوره في بيته. يجلس مع محمد لساعات طويلة جداً ولا يطيق أن يجلس معه هو حتى لدقائق.

كان يحيط بأسباب ذلك، فأكثر ما حزّ في قلب الأب أن يَنِد ذلك الرجل القادم من مدينة نزوى التي يرفضُ أهلها حتى اليوم أن تظهر الفتاة وجهها للغريب؛ موهبتها اللافتة للنظر وطموحها الذي ما كان يقف عند حدّ. لم يقتنعه بتعهداته ووعوده -التي ذهبت هباء الريح- من أنه سيتركها تدرُس وتعيش حرّة كما كانت وكما أراد لها والداها وتمنت هي. لم يقتنع به حتى اليوم، ولم يفرحهُ أن زوج ابنته أصبح اسماً معروفاً في حقل علمه.

«هذا علم لا يُغني ولا يسمنٍ من جوع» يقولها له حين تقدم لخطبتها. كما رفض أن يناديه ب-«عمّي» أو ب-«الوالد» لاحقاً. اخبر ابنته بأنه لا يشرّفه أن يناديه واحد مثله لم يفِ بما وعد به وحلف ب-«الوالد».

- أبوه كان سجينا سياسيا يا بنتي.
- إيش ذنبه هو بابا، كان واجد صغير أيامها.
- اللي مثله ما لهم مستقبل، سيحمّلونه أخطاء أبيه.
- بس هو يقول إن أبوه مناضل ومات شهيداً.
- وهو فيه ابن يقول عن أبوه إنه كان مجرم؟! وفيه حد يموت شهيد وكان كل شغله إنه يحرّض على قتل أبناء عمومته؟ وين عقلك وذكائك يا سميرة؟

يأخذها جانباً، ويجلسها أمامه على الطاولة. قال: «ما سأقوله لك واحد من الأسرار التي لا يجب أن يعرف خطيبك أنك تعرفيها». فتهز له رأسها موافقة. يمضي «أبو خطيبك لم يكن مناضلاً كما يدّعي ابنه، بل مخادعاً، ضحك على الحكومة وكان السبب في هروب الإمام من الجبل وتشكيله فيما بعد حزباً عدائياً للحكومة خارج عُمان، كان حتى عهد قريب ما يزال يخطب ويتكلم ويحفز الناس ضد الحكومة، فكيف يكون مناضلاً وشهيداً؟!».

توقف لثوانٍ ثم أردف «قبل أن يهرب الإمام اتفق مع أبي سالم أن يذهب إلى الحكومة في مسقط من أجل طلب الصلح مقابل استسلامه. أبو سالم كان الشيخ الأكبر في نزوى، يعني كبيرهم. الحكومة استجابت له ووافقت على طلبه هدنة لمدة ثلاثة أيام ريثما يستطيع الوصول إلى الإمام في سيق وهو في أمان من الطلقات النارية وغارات الطائرات البريطانية وإحضاره للحكومة. وافقت الحكومة على طلبه، لكن أبو سالم نكث بوعده، وأيام الهدنة تلك كانت خدعة منه ومن الإمام لكي يفسح له المجال

للهرب عبر الجبال إلى خارج عُمان. وهذا اللي حصل بالضبط. الشيخ سعيد الكندي توقع بسبب كبر سنه وعلو مكانته في البلد أن تغضّ الحكومة النظر عن معاقبته علي خداعه وكذبه. لكنها زين فعلت إنها زجت به في السجن حتى مات. لو كانت تركته حُراً طليقاً لكان شكّل حزباً مع الإمام ولكانت البلد قد احترقت بسببه».

لينهي حديثه راسماً على وجهه أمارات أسف «لذلك يا ابنتي لا تتوقعي من زوجك أن يكون أفضل من أبيه المخادع أو أن الحكومة سوف تكرّمه وتُعلي من شأنه ومكانته وهو ابن من سبب لها وجع الرأس حتى عهد قريب».

لم يؤثر فيها ما سمعته من أبيها، ولم يُحرك، قيد أنملة، مكانته في قلبها وحبها الشديد له. في الواقع، لم تفهم كثيراً ما قصده أبوها من وراء حديثه ذاك كما لم يشكّل لها أن يكون زوجها ذا شأن في المستقبل أي أهمية في كل الأحوال.

لقد جعلها تجابه العواصف من أجله. ومن أجله كذلك تخلّت عن أقرب الناس إليها، ليجد نفسه الآن على شفا حفرة أو أدنى من الإقدام على أمرٍ سيثبت به صحة رأي أبيها فيه. لا لن يترك لأبيها أن يرفع سبابته وهو يشير إليه ويصفه بالخائن.

بادرها وهو يدير جهاز التسجيل:

- هذه فيروز، أعتقد أنها ستسلينا في طريقنا الطويل.

- فيروز مملة خلال السفر، فيروز نسمعها في الصباح فقط.

ترد عليه بتلقائيتها المعتادة.

- يمكن يكون كلامك صحيح، لكن أنا أختلف معاه. نحن فقط تعوّدنا نسمع فيروز في الصباح وأصبحنا ما نتقبل نسمعها في غيره من أوقات، لكن صوتها يصلح لكل وقت ولكل زمان.

يُعلق على ما قالته، وينتبه إلى أنه يكرر لها ما قالته مروة له.

- لكن الآن هناك مطربات كثيرات ومطربين عندهم أصوات حلوة. لو تتابع معي أكس فاكتور بتكتشف إنه فيه أصوات حتى أحلى من صوت فيروز.

يبتسم وهو يعقّب على كلامها:

- نحن شيّاب يا أم محمد، نسمع مال الشيّاب.

تحاول أن تعثر على قناة إذاعية تبث أغاني، لكن الإرسال كان غائباً في تلك البقعة.

كانا قد تجاوزا اللوحة التي تشير إلى بلدة «حمراء العبريين» حينما التفت إليها وهو يقول:

- سميرة نحن الآن عندنا محمد وزهراء، أولادنا كبروا وباكر بيتزوجوا. إيش رأيك ترجعي تكملي دراستك؟

تصيبها عبارته تلك بالدهشة، لم تتوقع أن تسمع من زوجها ما قاله للتو وظنت لثواني أن ما وصل إلى سمعها ليس هو بالضبط ما نطق به زوجها. لكنه عاد وكرر عليها جملته تلك دون أن يدخل عليها أدنى تغيير وهي تطلب منه إعادة ما قاله وعلامة الاستغراب الكبيرة مرتسمة على وجهها.

كيف قال لها ذلك بعد أن وأدت هي بداخلها كل أمل لها بالعودة إلى الدراسة، ومنذ سنين طويلة؟ كيف يقترح عليها مثل ذلك وقد أكدّ عليها بالأقوال والأفعال أنه يريدها ربّة بيت فقط. ظلّت تنتظر منه أن يطلب منها، كما وعدها ووعد أبويها عند زواجهما؛ أن تعود إلى مقاعد الدراسة وذلك بعد أن أنجبت له محمد وزهراء مباشرة. لكنه لم يفعل، فتأكد لها ما خشي منه والداها وما أحست به هي من أنها لن تعود إلى الجامعة ثانية.

الآن وبعد أن مضى على تركها العلم أكثر من عقدين من الزمن، وبعد أن نسيت كل ما تعلمته،

وفقدت مع الزمن موهبتها في التمثيل؛ لم يعد لعودتها إلى الدراسة من معنى.
عاجلها، وكان على دراية بما يدور برأسها:
- ليس للعلم سن يا أم محمد، وأنتِ الآن لديك وقت فراغ كبير وبإمكانك إكمال دراستك.
- وأنا عمري 42 سنة؟
- حتى لو كنتي 50.
- وبعدين، بعد ما أتخرج، إيش أعمل بالشهادة وأنا قريب سن التقاعد؟
تضحك ساخرة.
- العلم ما لازم يرتبط بالشغل، علمك يفيدك في حياتك، في ثقافتك، في معلوماتك، في كلامك، في حواراتك.
- الحين عاد أبو محمد؟ بعد فوات الفوت.
- العلم ليس له سن كما خبرتك، اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد، ولا نسيتي؟
- لا أبداً، بس أيضا ما نسيت أن العطار لا يُصلح ما أفسده الدهر.
- أفاااااا أم محمد...
- صحيح، لو رجعت أدرس يمكن لازم أرجع أعيد صفوف أول وثاني وثالث ثانوي. العلم الذي كان بالرأس تبخر كلّه يا أبو محمد، ما بقي في الراس سوى الطبخ والبيت.
- أنا بساعدك.
تلتفتُ إليه مستغربة. كانت تعتقد، حتى تلك اللحظة، بأن ما يقوله ليس إلا دعابة الهدف منها قتل الوقت.
قالت متسائلة:
- أبو محمد، إنت بجدك تريدني أرجع الجامعة؟
- بجد.
يرد عليها.
يثيرها رده، فتقول وقد تصاعدت في نفسها الحيرة:
- ولماذا الحين؟ لماذا ما كان هذا الكلام قبل سنة أو سنتين أو حتى عشر، لماذا الحين وبعد مرور كل هذه السنين؟
شعر بتغيّر طبقة صوتها الذي ارتفع قليلاً. ابتسم، كوّم أصابع يده اليمنى وحركها طالباً منها الهدوء. قال:
- لا لشيء، أنا فكرت أن زهراء الآن بتدخل الجامعة، وما رح يبقى معك أحد بالبيت غير العاملة، وفكرت إنه بالدراسة سوف تتسلي وسوف يزيدك ذلك علماً وثقافة. العلم نور يا أم محمد، وكما ذكرت لك؛ الرسول صلى الله عليه وسلم قال اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد.
يجيبها بكل هدوء.
ثم وهي تجاريه، رغبة في اكتشاف ما وراء اقتراحه ذاك.
- وبعد هذا العمر يعني رح تخليني أمثل وأطلع في التلفزيون، خلاص ما رح تغار؟
يفتح عينيه على مصراعيهما. نسي ذلك الأمر. يضحك وهو يقول:
- من صدقش يا أم محمد! تريدي ترجعي تمثلي بعد هذا العمر؟
تضحك هي:

- إنت اللي تطلب مني أرجع أدرس ما أنا، كيف يعني؟
- أنا ما قصدت ترجعي تدرسي المسرح.
- إيش تريدني أدرس إذن؟
- لا أنا ما أختار، إنتي اختاري.
تلقي عليه نظرة التعجب التي لم تبرح وجهها منذ أن بادرها باقتراحه ذاك.
- سالم، إنت بعقلك.
- أقولك بجد.
- خلاص أرجع للمسرح إذن.
يضحك قبل أن يقول:
- قلت لك كبرنا على التمثيل الآن، زين يشوف محمد وزهراء أمهم تمثل قصص حب في التلفزيون!
يضحك وهو يكمل حديثه.
- شوفي لك تخصص ثاني.
تضحك مرة أخرى. تنظر إليه بتلك النظرة المعاتبة التي يعرفها. نظرتها التي لا تقول عدا شيئاً وحيداً «لولاك ربما أكون الآن من المشاهير، ويكون أبي فخوراً بي كما كان يتمنى ويحلم». لقد قالت له ذلك صراحة من قبل في أكثر من مناسبة كان آخرها قبل عشر سنوات على الأقل.
طيب أريد أدرس الأنثروبولوجيا مثلك.
كانت تحدق فيه كمن ينتظر إجابة هي على علم مسبق بها.
- الأنثروبولوجيا؟
- نعم هي.
- لماذا؟
- عشان انت اللي راح تدرّسني، وتقدر تساعدني أدرس بالبيت.
- لماذا لا تدرسي الجيولوجيا مثلاً؟
يباغتها مقترحهُ. تدير وجهها كاملاً باتجاهه وهي تسأله بنبرة استغراب حادة:
- الجيولوجيا؟
- بالضبط.
- لماذا بالذات الجيولوجيا؟ لا أطيق هذا العلم، لا له طعم ولا رائحة.
- بالعكس علم جميل وأنا وأنت بنكمل بعض لما تتنهي الدراسة.
- لماذا؟ هل ستسمح لي أن أشتغل معك في الجامعة؟
- أكيد، لم لا.
- أذكر أنك حتى كنت تريد تلبسني غشاة على وجهي عشان ما أحد يشوفني.
- هذاك زمان يا سميرة، كنّا مراهقين ودمنا حامي. كنا صغّار، الحين كبرنا وعقلنا.
- وهذا العقل ما جاك إلا بعد ما مر 23 سنة على زواجنا؟
- أكيد لله في الأمر حكمة.
تصمت للحظات، كانت فيروز تغني «أنا عندي حنين ما بعرف لمين». قالت وقد بدا عليها الانزعاج مما تسمعه، وزاد ما تكلّم به يقينها بأن زوجها يمر بمرحلة مختلفة لم تره عليها من قبل:
- إنت فعلا مختلف هاليومين يا أبو محمد، معظم الوقت سرحان وتحب تجلس لوحدك، شكلك مهموم

وتفكر بألف شي وشي، واليوم عاد دمّرتها بهذا المقترح. إنت ما هو زوجي اللي أعرفه، فيك شي غير، والله أعلم ما هو.

يضحك ضحكة سريعة مقتضبة، ثم يقول وهو ينظر باتجاهها بطرف عينه اليمنى:

- الإنسان يتغيّر، بس للأحسن. ينظر إليها بوجه جاد ويردف «الحين لما أطلب منك تكملي دراستك تظني أريد لك الأحسن أو الأسوأ؟»

ترد عليه بسرعة:

- أكيد الأحسن، لكن الموضوع تأخر كثير. آخر مرة طلبت منك أرجع أكمل دراستي كان قبل حوالي 1 سنوات، وإنت رفضت. قلت إنه ما في داعي وأنه أحسن لي أركّز على البيت وتربية الأولاد. أعطيتني محاضرة طويلة عريضة عن أهمية وجود الأم بالبيت ومتابعتها لأولادها بنفسها، ضحكت على عقلي وقلت لي إن الأم مدرسة وأنا صدقتك واقتنعت وسلمت بالأمر، حتى إني رضيت أنه ما يكون عندنا شغّالة بالبيت حتى لا تأثر في تربية الأولاد. الآن ما عاد ينفع، عقلي تجمد ما صار مثل زمان، لما أشوف زهراء تتعذب وأحاول أفهم منها ما تدرسه، أضيع، ما أفهم شيء.

قرر أن يغيّر موضوع الحديث ليأخذها معه في رحلة الذكريات القديمة، ذكريات حبهما، على أمل أن يعاود الحديث معها عن موضوع الدراسة في وقت لاحق. سألها مبتسماً:

- متى شعرتي إنك حبيتيني؟

فتضحك قبل أن تجيبه:

- يا ربي، هذا السؤال صار لك سنين ما سألتني إياه!

سألها ذلك السؤال أكثر من ألف مرة خلال سنواتهما الأولى. تقهقه قبل أن تجيبه على سؤاله تماماً كما كانت تفعل في السابق. تغيظهُ إجابتها دائماً:

- أنا ما لحقت أتأكد إني حبيتك لشخصك أو حبيت فيك المُدرِّس. تعلّقت بك كما تتعلق كل تلميذة بمدّرسها خاصة لمّا يكون طويل وأبيض، أنت بسرعة بسرعة ضحكت علي وما شعرت بعمري إلا وأنا زوجتك.

تقهقه مجددا وهي تضيف «فعلاً عرفت كيف تضحك علي، كنت هبلة ومجنونة»، في حين أبحر هو بسفينة أفكاره بعيدا. تساءل مع نفسه ماذا لو كان قد ترك لسميرة أن تكمل دراستها ولم يُطع نار غيرته حينها؟ ولو كان ذلك هو ما حصل فهل سيكون الآن في نفس وضعه النفسي الحالي؟ أم أن الأمور كانت ستصبحُ مختلفة؟

تساءل لماذا لم يفكر وقتذاك أن يجبرها على تغيير تخصصها ودراسة الجيولوجيا؟ كانت ستتفوق على من معها بكل تأكيد، فلم يكن ينقصها شيء لتنبغ في دراستها. لو فكّر بتلك الطريقة لكانت سميرة الآن حاصلة على شهادة الماجستير وربما الدكتوراه؟ ولكان ذلك قد منعه بكل تأكيد من التفكير بأي امرأة أخرى.

سميرة بلا شك على حق، لقد تأخر في اقتراحه ذاك، تأخر كثيرا كثيرا. سميرة اليوم ليست إلا ربة بيت تقليدية مثلها مثل تلك اللواتي يشاهدهن في المسلسلات العربية الرمضانية. الزوجة في تلك المسلسلات ليس لديها همّ سوى تربية الأطفال والطبخ والتنظيف، وفي وقت فراغها إما أن تقرأ المجلات المتخصصة بالمرأة أو تتابع المسلسلات التركية المدبلجة.

هذه هي سميرة اليوم، إما أمامها شاشة التلفاز أو شاشة هاتفها المحمول. لديها اليوم من الصديقات في الجروبات على الواتس آب من ينقل لها الأخبار اليومية التي يضطّر أحيانا من أجل إرضائها أن يقضي أمامها أو بجانبها جلسات عديدة من الاستماع لها ولما وصلها من أخبار ونكاتٍ جديدة. يضطر

أحياناً أن يضحك مجاملة بلا رغبة حقيقة في الضحك، وهو يعرف بأنه لو لم يتجاذب معها أطراف الحديث ولم يستمع لما تقوله، حتى إن كان الحديث في الأمور التي يعتبرها تافهة جداً، وأن يتصنع التفاعل معها؛ لكان الوضع اختلف في البيت الذي يملؤه الهدوء ويقل فيه توافد الزائرات عليها. لقد قالتها له صريحة ذات مرة:

- إنت منعتني من زيارة صديقاتي وزيارتهن لي، الآن أنا بدون صديقات وإذا ما لك نفس تسمعني وتتكلم معي رح أضّطر أرجع لصديقاتي القديمات.

يقتله تخيّل المنظر. يخنقه. لا، لا يمكن له تحمّل صديقاتها من زميلات الدراسة الثانوية وسوالفهن القديمة البائسة عن الأزواج والأبناء والطبخ والخطابين، وماذا فعلت شيخة لميمونة، ولماذا تطلقت شريفة من حميد، ولماذا هربت شغالة فاطمة الفلبينية مع سائقهم البنجالي، ولماذا أحلام تغار من أليسا، و«من منكن مسافرة البحرين عشان تجيب لنا عبايات حلوات». لن يرضى لمثل تلك التفاهات أن تغزو بيته وهو رجل العلم المعروف. عليه إذاً أن يتحمل ما تجود به قريحة زوجته من أخبار وسوالف لا يمكنه تحمّلها في الأوضاع العادية. هو مجبرٌ على التفاعل مع زوجته مهما كلفه الأمر من صبر وتجلّد. فهو يُقرّ أنه كان ولا يزال السبب الأول والأخير في كل ما يخص طبيعة الحياة التي تعيشها زوجته «المغلوب على أمرها». فعلاوة على أنه أخرجها من دراستها ضارباً بعرض الحائط كل تلك الوعود التي قطعها على نفسه أمامها وأمام أبيها على وجه الخصوص؛ استطاع بكل ما وسعته مقدرته من خبث أن يفصلها تدريجياً عن علاقتها الحميمة القوية بأهلها وتعلّقها بهم وتعلقهم بها. استطاع كذلك أن يشغلها سريعا عن صديقاتها وصاحباتها حين جعلها تحبل مباشرة بعد الزواج. بل كان السبب في وقوع ما سبب لها العقم لاحقاً بعد أن أسقطت جنينها الثالث وكان في شهره الخامس.

لقد قرر كيف تكون حياة سميرة على هذه الأرض، وما الذي ينبغي أن تفعله وما لا تفعله. جعلها تحبلُ بمحمد وزهراء بشكل متتال ودونما راحة بينهما. حملت بزهراء ومحمد لا يزال في الشهر الثالث من عمره، ثم قرر بنفس الطريقةً أن تحبل بالثالث، ولم يكن جسدها، كما قال له الأطباء، جاهزا حينها للحمل بسبب إرهاقه بحملين متتابعين. أُغمي عليها ذات صباح وهي تحاول منع محمد من السقوط من أعلى الدرج، انزلقت واندلق معها الجنين الذي تحمله في رحمها للخارج. غرقت الصالة في بحيرة من دماء تتوسطها قطعة لحم هلامية لم يكتب لها أن تتحوّل إلى مخلوق بشري.

حين هرع إلى البيت على نداء استغاثتها كانت قاب قوسين أو أدنى من مفارقة الحياة لولا رحمة الله والأطباء في مستشفى جامعة السلطان. كان عليه يومها أن يتبرع بجزء كبير من دمه لإنقاذها. لكن الأطباء أكدوا له بأن خراباً كبيراً قد أصاب رحمها وأنها لن تحمل إلا بمعجزة يندر حصولها.

لقد تسبب في كل شيء سيء في حياتها، فكيف له أن يفكر في حُب غيرها بعد كل ذلك؟ كيف تأتيه المروءة والشهامة أن يُقدم على فعلِ شيِّنٍ مثل ذاك. سيكون عليه إذا ما تجرأ على القيام بذلك أن يُقدِّم لها شيئا كبيراً جداً بالمقابل، شيئاً يعّوضها عن كل الخراب الذي سببه لها في حياتها، أو أن يأخذها إلى إحدى المصحات النفسية الشهيرة والمعروفة بقدرتها على مسح ذاكرة البشر ليمسح عنها ذكريات حياتها السابقة. سيتطلب منه الأمر تكرار الفعل مع ابنيه محمد وزهراء أيضاً.

في الأربعة أيام التي سيقضيانها معاً في دبي سيحاول بكل ما أوتي من ذكاء أن يقنعها بالعودة إلى الدراسة. لديه قناعة نبتت في مخه فجأة بأن حياتهما معاً بعد ظهور مروة ستكون صعبة ما لم تتغير حياة سميرة وفقا لما يؤمن به. يجب عليها أن تتغير لتلحق به، فلو كان بيده أن يعيد عجلة الزمان إلى الوراء ليبدأ من جديد وقد عرف ما يخبئه له المستقبل لفعل، لكن ذلك أصبح الآن ضرباً من ضروب المستحيل. على سميرة أن تتفهم كل ذلك، من أجلها ومن أجل محمد وزهراء وحياتهما القادمة.

حانت منه نظرة إليها. تذكر مروة وهي جالسة بجانبه في طريقهما إلى السوق. لم تعد سميرة تملك

ذلك الجسد البديع الذي كانت تملكه عند معرفته بها. ترهّل جسدها كثيرا ونبتت لها كرشة بعد أن كبرت وقلّت حركتها. لا تملك سميرة شفتي أنجلينا المكتنزتين، شفتاها صغيرتان رقيقتان، نهداها المكوّران كحبتي برتقال تدلّيا مع الزمن، وغزا الشيب مفرقيها ونبت على وجهها التجاعيد.

أخيراً يقر في داخله بقلقه من خلفان بعد أن حاول طرد مثل تلك الأفكار بحجة عدم انسجامها مع المنطق. لكنه لم يستطع طوال رحلته إلى دبي أن يطرد عنه هاجس الخوف من زميله المزواج بعدما أخبرته عن تحرّشه بها.

ليس الأمر بجديد على خلفان، فليست المرة الأولى التي تشتكي فيها فتاة من تصرفات زميله «المراهق»، ولم تسلم منه فيما مضى لا طالبة ولا مدرّسة ولا غيرهن. سمع عن حركاته المجنونة حتى قبل قدومه للعمل بالجامعة. لن يتوقف خلفان عن المحاولة طالما رأى أمامه ما يثير حواسه، بالذات إذا كانت التي أمامه جميلة أو مغرية، ولا يهمّه كثيراً إن كانت تلك من بنات بلده أو قادمة من دولة أخرى، مستنداً في قوته على صهره، عميد الكلية.

أكثر من ثلاثة فتيات اشتكين منه ومن تصرفاته في فترة متقاربة. إحداهنّ زميلته الفلبينية في المختبر والتي سريعا ما تركت الجامعة والتحقت بالعمل في إحدى محلات العطور في مسقط. اثنتان كنّ من الطالبات، إحداهن بكل تأكيد خضراء.

ليس من السهل على رجل مثل خلفان أن يترك مروة في حالها وهو يرى بأم عينيه، ولأول مرة في حياته، جمالا كجمالها، بل سحراً كسحرها وعلى مقربة من ملمس يديه. جمال حقيقي، يحادثه ويبتسم له ويضحك معه، ويجلس إلى جانبه ويقضي معه بشكل يومي ساعات طويلة. جمال واضح المعالم، لا تغطيه ملابس فضفاضة واسعة ولا عباءة سوداء قميئة.

«هذه التي وصفها الله بكواعب أترابا» همس له وهي تتحرك أمامهما بخفّة غزال في وادي الخلاطة.

خلفان متيم بها إذن، وما ذلك الحديث الذي همس به ومروة تلقي عرضها سوى بالونة اختبار ليقف من خلاله على ردة فعل رئيسه، وليحدد بعدها نوع الخطوة التي يجب أن يخطوها تجاه الفتاة.

لا شك أنه اعتبر صمت رئيسه حينها دليلاً على عدم اهتمامه بالحياة الشخصية لطالبته.

بدأ الوضع في إشاعة القلق داخله إذن، رغم أنه نسي لبعض الوقت ما قام به زميله معها إلى أن شدّه مقطع أغنية لأصالة «قلبك إذا ما ضمني، غيره قلوب تضمني» وهو يدخل مدينة العين مخلفاً وراءه معبر الحدود العُمانية الإماراتية في حفيت. حينها فقط اشتعل عقله بالتفكير ولم يبرحه منذها.

***

- آنسة مروة، أسألك مرة أخرى ولكن هذه المرة بجد، هل أنت مخطوبة أو مرتبطة؟

بادرها. حدث ذلك بعد إلقائها للعرض. قبلها، أباح لنفسه، ضمن مخططه لجسّ نبضها، الثناء، وفي أكثر من مناسبة، على جمالها وخفّة روحها ورائحة «العطر» الذي تختاره. كانت تقابل كلامه بشكره على «ذوقه» وفي أحيانٍ أخرى بابتسامة مختزلة. لاحقاً انتبهت لتحديقاته المركّزة عليها فانتابها شعور بالضيق.

كانت تتوقع منه مثل ذلك السؤال بعد أن عرفت عن زيجاته الثلاث.

- لماذا تسأل أستاذ خلفان؟

يرتبك قليلا، لكنه اعتاد على مثل تلك التساؤلات، واعتاد بالتالي على الرد عليها:

- لا لا تفهميني غلط، سألني أحد الزملاء وما على الرسول إلا البلاغ، أقصد السؤال.

تضحك دون أن تنظر إليه. ترد عليه وتركيزها موجّه إلى الصخور التي تقوم بفحصها بين يديها:

- قل لصاحبك إن مروة ما تحب أحد يرسل لها وسيط، إذا هو شجاع بما فيه الكفاية يجي يسألني بنفسه.

صمت يومها ولم يقوَ على الاستمرار في الحديث. عكف يقلب في أفكاره ليومين، قبل أن ينتبه إلى ضرورة الإسراع بإخراج ما بنفسه أمامها قبل عودة سالم من إجازته القصيرة، فجلّ ما كان يخشاه إن

هي غضبت أن تتراكض لتشكوه إلى رئيسه الذي سبق وأن لفت نظره إلى خطأ ما يقوم به من تصرفات و«حركات» مع الفتيات اللاتي يصادفهن. نهره ذات مرّة. قال «أنا لستُ هنا لكي أتلقى بين كل يوم وآخر شكوى من إحداهن بسبب حركاتك الصبيانية التي لا تتناسب مع سنك ومكانتك العلمية والاجتماعية». قال «لو اشتكت عليك أخرى فلن يكون بيدي سوى رفع تقرير عنك إلى العميد وأنا متأكد أنك لا تُحبّذ حدوث ذلك».

عليه أن يفاتحها في الأمر بسرعة وأن يقتل تردده وفي الحال. سيكون لديه يوم أو يومن ليعتذر لها وليضمن عدم وصولها إلى سالم إذا غضبت منه.

سألها ثانية بعد أن تسلح بجرأة أكبر:

- آنسة مروة، عذراً، سأسألك مرة ثالثة، هل أنت مرتبطة؟

تقهقه، وهي تقول:

- هل لا يزال صاحبك جباناً؟

يتنفس بعمق ودقات قلبه تتسارع في صدره. لم يساوره مثل هذا الخوف والتردد من قبل أمام فتاة. يضغط على نفسه:

- لا ليس صاحبي هو من يسأل. تخالط جرأته الغصة وهو يُكمل «بصراحة أنا من يسأل».

لترد عليه بسرعة وهي تخلع عن يديها الجوارب البلاستيكية الرقيقة التي تستخدمها في حمل وتقليب العينات الصخرية وتلقي بها بكل عصبية على الطاولة البيضاء أمامها، ونظراتها موجهة إلى عينيه مباشرة وعلى جبينها تقطيبة غضب:

- اسمع أخي خلفان، أنا هنا للدراسة فقط، وإذا سمعت منك أي أمر آخر بخلاف ما نقوم به من عمل داخل المختبر فتأكد بأنني سأشكوك إلى البروفسور والعميد. لست هنا لا للزواج ولا لإقامة علاقات، وأنصحك نصيحة أخت، ركز على بيتك وزوجاتك الثلاث وتوقف عند التحديق في بقية النساء.

ثم وهي تخلع عنها معطف المختبر الأبيض وتقترب منه والتقطيب على جبينها لا يفارقه؛ أردفت:

- تخيلني ابنتك «شريفة»، هل ترضى أن يحملق فيها رجل في سن أبيها ومتزوج من ثلاث وعنده عشرة أولاد؟؟ إذا ترضها لابنتك فارضها لي.

وتركته مندهشاً وحائراً بما عساه أن يجيب عليها. خرجت وهي تغلق باب المختبر وراءها بقوة. لكنها ما لبث أن عادت بعدها بثوان وكأنها قررت أن تنقذه مما يقبع تحت وطأته من ظمأ ووحشة. قالت تريد أن تنهي الأمر إلى الأبد:

- سأعتبر الأمر منتهيا هنا، وغدا أعود وكأن شيئا لم يكن، وسأعتبرها زلة لسان هذه المرة ليس إلا.

تركته في حيرته. لقد عاجلته سريعا. لم تمنحه الفرصة، وهو لم يقل بعد شيئاً. بالكاد فتح فمه. لم تمهله لقول ما اشتغل عليه وجهّزه من حديث موزون «مرتّب» طوال الليلة الماضية وقبلها. ليلتان عكف فيهما على انتقاء الكلمات التي سيقولها في حضرة جمالها. قرأ في جوجل كل ما كُتب عن «كيف تبدأ في جذب الأنثى نحوك؟» و«كيف يمكن للمرأة أن تقع في حُبك؟» و«الطريقة الأمثل للوصول إلى قلب المرأة العنيدة» و«كيف تجعلها تُحبك من طريقة كلامك» و«أنواع الهدايا التي تشدُّ المرأة إليك». قرأ عن العطورالرجالية المفضلة لدى المرأة فاشتراها وأغرق دشاديشه بها. ارتدى مصراً شبابياً جديداً. وضع كريماً على وجهه ليخفي بقع السواد المتكوّم أسفل عينيه. لبس ساعة رولكس غالية. اختار أغلى النعل التي يمتلكها. لكن ذلك كله لم يُسعفهُ حين حانت ساعة الصفر.

تحسّر على وقته المهدور وجهده ذاك. لو كانت كريمة قليلاً معه ومنحته فرصة صغيرة، صغيرة جداً، فترة وجيزة مداها لا يزيد عن خمس دقائق! لكنها قطعت عليه الطريق. تركته بلا ريق. فهم من سرعة

ردّها ذاك أن حركاته ونظراته تلك كانت مكشوفة لها منذ البداية.

فكّر أن يبتزها في تلك العجالة، أن يُخبرها بأنه رآها تدخل البار في الدقم حيث الخمور والعربدة، وأنه سيبلغ البروفيسور بذلك. لكنه تردد كثيراً. فعلاوة على أنه ليس واثقاً بأنها هي من رآها ليلتها وليس عداها، فقد لا يشكل ذلك التهديد شيئاً لها، بل قد يكون شرب الخمر أمراً عادياً لديها، فهي في نهاية المطاف أمريكية، ولم يسمعها من قبل أن قالت بأنها مسلمة، كما لم يرها تصلي أبداً. وفي الأساس، لا يبدو من مظهرها وطريقة لبسها وشعرها المكشوف أنها مسلمة تؤدي الفرائض. احتساء الخمر لديها أمر مباح وليس لأحد علاقة بالأمر. ثم إنه وحالما سيخبرها عمّا رآه ليلتها فإنه سيخسر بلا أدنى شك أي فرصة ثانية معها للمناورة.

أبحر بعدها في ما قد يخلقه تدخلّه في حياتها من مشاكل هو في غنى عنها. ستتحوّل المسألة إلى قضية شخصية، فلا يلبث أن يرى نفسه مجروراً إلى المحاكم بتهمة «مصادرة الحريات الشخصية» وغيرها من تهم، فالأمريكان شطار في ذلك، يصنعون من الحبّة قبّة، وقد تتدخل السفارة الأمريكية لاحقاً وسينتهي به المطاف إما مسجونا في سمائل أو منهية خدماته من الجامعة رغم أنف صهره. بالإضافة إلى جملة الفضائح التي سيحملها معه أينما ذهب، وسيحملها أبناؤه - الذين ليس لهم ذنب في الأمر - من بعده.

لمس خلفان قوة الشخصية التي تتمتع بها تلك الفتاة الصغيرة القادمة في الأساس من « بتراء التاريخ السحيق» كما تردد لهم. «بتراء الناس القساة العتاة الذين اعتادوا على شظف العيش وجلف الحياة». لم يعرف شخصية بمثل حدّتها تحمل كل تلك الفطنة والجمال.

أخطأ التقدير إذن وخانه ذكاؤه هذه المرة، وربما خانته تجاربه السابقة في الحياة التي مرت معه بهدوء وطواعية وسلاسة وسلام، والتي بنى على نتائجها خطوته معها. لقد توقعها مثلهن، لا تفرقُ كثيراً عن الثلاث اللواتي تزوجهن من قبل من حيث كونها أنثى. توقعها ليّنة في الداخل، حتى إن كان مظهرها الخارجي وطريقة كلامها لا يوحيان بذلك، فما أكثر الفتيات اللواتي يدّعين قوة الشخصية والحدّة في التعامل مع الرجال، لكنهن سرعان ما يخلعن عنهن ذلك القناع حالما يسقطن في شباك الهوى.

خدعته تجاربه إذن، والتي يعترف الآن بأنها في الواقع لا تستحق الذكر، فزواجه الأول من بنت خاله كان بترتيب من أمه حين كان في السنة الأولى في جامعة السلطان، ولم يعلم حينها عن أمر الزواج سوى الجزء الخاص بالمعاشرة وإنجاب الأطفال. وفي السنة الرابعة وكانت أمه قد فارقت الحياة، عشق طالبة في كلية التربية في سنتها الأخيرة، وأصبحت زوجته الثانية قبل أن تبدأ مشوارها العملي مدرِّسة في إحدى مدارس التعليم الأساسي في نزوى.

لا يمكن القول بأن عائلة خلفان فقيرة، فأبوه عمل بسلاح الجو برتبة عميد ركن قبل أن يتقاعد بسنوات قليلة وبعد أن تمكّن بفضل ما منحه إياه عمله من علاقات أن يكوّن له ولعائلته ثروة لا بأس بها. خلفان كان حينها واحداً من بين اثنين من الذكور اللذين منحهما الله لأبويه حين وصل عدد الإناث إلى ثماني، إلى أن قرر أخوه الأصغر «أشرف» مغادرة الحياة في سنٍ مبكرة حين دخل بسيارته المسرعة تحت عجلات شاحنة ضخمة فسحقته أسفلها. كان غاضبا يومها من أبيه الذي وقف حائلاً بينه وبين زواجه الثاني بمن أحب ورغب. قال له بشكل قاطع إن الفتاة التي اخترتها ليست بنت أصل وفصل، ولن أوافق حتى لو انطبقت السماء على الأرض. سمعها منه وبعدها انتحر مخلفاً وراءه طفلتين.

أبوه نفسه تزوج مرتين، وكان يفكر في الزواج بالثالثة في عمرٍ متأخر، لولا الحزن الذي أحرق بقية عمره فمات متدثّرا بكآبته.

حين تقدم خلفان للزواج من الثالثة وكانت هذه المرة طالبة في تخصص التوجيه التربوي بجامعة نزوى للعلوم الحديثة، لم يمانع أبوها المعدم ولم يهتم بابنته ودموعها التي كانت تسيل أنهارا على خديها وهي تندب حظها ومصيرها «الأسود».

يوم رأى مروة قرر أن تكون الرابعة. قال ستكون مسك الختام. يرّد على كل من يسأله عن زواجه وقدرته على «إدارة ثلاث زوجات» بأنه لا بد من رابعة حتى تكتمل «الوجبة» ويتمتم: بدأت بالشربة ثم السلطة وبعدها الوجبة، والآن حان وقت الحلو.

ليس أحلى من مروة لتكون ختام رحلته مع النساء. لكن توقعه بأنها ستكون صيداً سهلاً بفضل ما يملكه من أموال خاب وتحطم مبكراً.

استعجلت على رزقها. لو أعطته فرصه لكان قد شرح لها ظروف زيجاته الثلاث السابقة، ولأكد لها بأنها ستكون عشقه الأول الحقيقي في الحياة، وأن قلبه لا يزال بكراً لم يجرِّب الغرام. فلم تستطع أي امراة في السابق ممن عرفهن، بمن فيهن زوجاته الثلاث، من دخول قلبه ودغدغة إحساس الغرام فيه. كان سيؤكد لها بأنه تزوجهن مرضاة لأبيه وقبله أمه. أبوه الذي لم يبق له في الدنيا سواه بعد موت ولده الآخر أصرّ عليه بأن يتزوج مرتين وثلاثاً لكي يتمكّن من رؤية ذرّيته الواسعة من الذكور الذين سيحملون اسمه بعد موته.

ظلّ أبوه شاعراً بالندم الشديد منذ انتحار ابنه، ولم يلبث أن ذوى وشح حب الحياة في وجهه ودمه سريعاً. انطوى على نفسه بعد تلك الحادثة وتجمّد نشاطه المعهود وزياراته المستمرة لأصحابه، وأخذ في التسابق نحو الموت حين لم تشأ صورة ابنه الراحل وقد تقطع جسده إلى قطع لحم ودم متبعثرة أن تغيب عن ناظريه. كان ينتحب بكل حرقة وألم يومها وهو يلملم القطع المتناثرة ليلويها داخل الكفن ولينزلها بيديه إلى القبر وهو يعتذر من ابنه ويترجاه الصفح عنه.

كان أشرف الأقرب والأحب إلى قلبه. «كان أعزّ ما أملك في هذي الحياة».

ولو منحته الفرصة، لكان قد خيّرها في الطريقة التي تودّ أن تعيش بها معه، ولكان قد ترك لها الأفق مفتوحا على مصراعيه لتقرر ما تشاء، بل لتأمر بما تريد، سواءً رغبت أن تسكن معه في نزوى أو أن يقتني لها بيتا في مكان آخر وسيكتبه باسمها.

استعجلت في ردّها. لكنه مع ذلك وعد نفسه بعدم الاستسلام واليأس. لن يذعن للهزيمة بسرعة، بل سيتوقف الآن ولفترة وجيزة من الوقت عن اللهاث خلفها، سيتوارى لأيام معدودات خلف جدار الصمت والهدوء، لكنه سيعاود الكرّة من جديد. أقسم مع نفسه بأن يستمر في محاولاته إلى أن يفوز بها، فمثلها في نظره «يبيع الواحد كل اللي وراه وكل اللي قدّامه» حتى يظفر بها. واثق بأن الأموال التي بحوزته ستغريها في نهاية المطاف، فهو يملك علاوة على البيت الكبير الذي يسكنه، عمارتين في وسط نزوى، ومزرعة هائلة في حمراء العبريين تنتج معظم المحاصيل الحقلية التي لا يتوقف أهل نزوى والمناطق المجاورة عن شرائها خصوصا الطماطم والخيار والجزر والبرسيم والغشمر المخصص للبهائم. يملك كذلك من رؤوس الأغنام والأبقار ما لا يعد ولا يحصى. بل يوجد في مزرعته طيور الأنعام بكثرة، بالإضافة إلى البط والوز والديك الرومي والحجل، وأسماك البلطي التي قام باستزراعها مؤخراً في أحواض مياه عديدة لتزداد بسببها غلته اليومية من المال.

يعتقد الكثير في الجامعة أن خلفان يملك الملايين من الريالات لكنه ينفي ذلك بقوة خوفاً من «حسد العمانيين» المعروف.

لو كانت قد استجابت لرغبته لتصبح زوجته لكان على استعداد أن يبني لها قصرا في المزرعة ولكانت ستعيش فيها حياة الأميرات. ستجد حينها كل ما تطلبه وتتمناه متاحاً لها. ربما توقعت أنه سيرغمها على لبس العباءة وتغطية وجهها. قد يكون ذلك هو السبب الحقيقي وراء رفضها له. لكنها

لو سألته لأخذها من يدها إلى «الكاتب بالعدل» بنزوى ليتعهد لها أمامه بأنه سيتركها تعيش وفق ما تريد، لن يُغيِّر في طريقة حياتها في شيء. ولكان سيحرر لها تنازلاً - يُشهد عليه ذلك الكاتب - عن تلك المزرعة لو طلبت منه ذلك شريطة أن تبقى معه مدى الحياة.

لدى خلفان قناعة لم يقلها إلا لأقرب أصدقائه، وحتى أولئك لم يكشف لهم عن قناعته تلك إلا بلكنة تقع بين المزح والجد خشية التبعات. هو يجزم، مثله مثل الكثيرين، بأن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إنما يصلّون ويصومون ويقيمون العبادات من أجل الفوز بالحور العين في الجنة. لا يُصدق أنهم يفعلون الفرائض مرضاة لله، أو خوفاً من عذابه، ليس ذلك ما يحركهم. بل صورة الأنثى الباذخة الجمال، الكاعبة، التي «تاخذ الروح». إنهم يبذرون سائر عمرهم لأجل ذلك. يقبعون في بيوت العبادة، يصلون الليل بالنهار، يصومون الشهر كله وأياما أخر، ويقطعون آلاف الأميال ليصلوا إلى بيت الله الحرام وليؤدوا فريضة الحج مرة واثنتين وأكثر، من أجل ماذا؟ من أجل حوريات الجنة.

كل ذلك في علم الغيب في نظره. فلم يُكتب لأحد أن رأى شكل حورية الجنة ولا منظر الجنة ليصفه لهم. أما هو، في وضعه الحالي، وبما لديه من خير وفير، قد استطاع أن يخلق له جنته الصغيرة في الأرض، فالمزرعة الجميلة المليئة بالخير التي يتفق كل من زارها بأنها «آية من الجمال» و«جنة الله في الأرض»، وهو الآن على بعد أمتار بسيطة من أن يحوز على واحدة من حوريات الجنة، ففي نظره لا يمكن أن تكون الحوريات في الجنة بأجمل من مروة». هي أمامه، يراها، يسمعها، حقيقة وليس خيالاً، فلماذا لا يبذل كل ما يملك من ثروة لتصبح تلك الحورية من نصيبه.

«لا يوجد في هذه الحياة من متعة أحلى من متعة النساء؟»، «وهل يوجد غيرها متعة؟». حين يملك مروة سيملك الجنة وبداخلها الحورية.

لن يتركها مهما تطلب الثمن، سينتصر عليها في لعبة التحدي. سيرخي لها الحبل على الغارب ثم يشده نحوه ويكرر ويصبر حتى تنصاع له.

من النادر أن يخسر تحدياً صمم على الخروج منه منتصراً. تحدياته في حياته العلمية والعملية تجاوزها في السابق بنجاح، وكذا كانت أموره مع تجارته التي وإن ورثها في الأساس عن أبيه، لكنها لم تكن بالمستوى الذي وصلت إليه اليوم. لم يبلغ حجم تجارته أكثر من ثلث ما وصلت إليه الآن أو الأصح ما أوصلها هو إليه إلا بفضل شطارته التي يشيد بها زملاؤه في السوق.

مرت عليه في سبيله لإعلاء أسهمه بين التجّار لحظات يأس وأيام شهدت خسارته الكثير من الأموال. خسر في أحيان عديدة الرهان في الحصول على بعض المشاريع وحصل عليها غيره من تجار السوق ممن يملكون الخبرة والدراية السابقة. لكنه استمر في الكفاح والنمو حتى أصبح اسمه يضاهي أسماءهم. مروة كمشروع لن تختلف كثيراً عن تلك المشاريع التي لم يكتب له أن يكسبها منذ الجولة الأولى لكنه نجح في الحصول عليها حين عاود الكرّة. «لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس» يرددها لمن حوله باستمرار وكأنها شعاره في الحياة.

في اليوم التالي أحضر لها أسوارة صغيرة من الذهب وضعها على مكتبها، ترك أسفل منها بطاقة صغيرة كتب عليها «أعتذر آنسة مروة على ما بدر مني وتسبب في سوء ظنك بي... زميلك / خلفان». ليجد الأسوارة على مكتبه بعدها بأقل من ساعة وقد كُتِبْ على ما تبقى من مكان على البطاقة «معذور أخي الكبير خلفان، واسمح لي جداً فأنا لا أتقبل الهدايا من أحد / أختك الصغيرة مروة».

***

تخّيل المشهد ذاك وهو يعبر بالقرب من تلك المزرعة التي يتحدث عن جمالها الجميع. تخيّل منظر زميله وهو يحاول إغراء تلميذته بما يملك من أموال، فشعر بشيء من الخوف مع يقينه باستحالة أن تفكر مروة بواحد مثله.

لا يُصاب خلفان باليأس بسهولة. حكى له زملاؤه ممن سبقوه بجامعة نزوى للعلوم الحديثة عن قصّة ملاحقته لزوجته الثالثة. قالوا كانت على قدر جيد من الجمال، أجمل من بدفعهتا؛ بيضاء ولها عينان شهلاوان مقوستان عند الأطراف. رفضته بقوة وطلبت منه أن يتركها في حالها لتختار شريك حياتها الذي يناسب سنّها و«أحلامها» ويتوافق مع «وضعها الاجتماعي البسيط»، لكنه رفض توسلاتها ولم يعرّ لدموعها أدنى اهتمام. لعب لعبته «القذرة» مع أبيها الفقير الذي أجبرها على الزواج منه.

كما قالت له خضراء وهي تشكو إليه أفعال زميله:

- قال لي ببنيلك قصر لو وافقتي على الزواج مني. تلعثمت قليلا وابتسمت بحياء وهي تضيف «أنا لا أرفضه لأنه يكبرني سناً أو لأنه متزوج، لكني أبحث عن رجل عاقل متزن وذكي جداً وطويل القامة حتى لا يلومني أولادي في المستقبل على قصرهم لأني قبلت الزواج بأبيهم القصير».

حدث ذلك قبل أكثر من شهر، وقبل ذلك اللقاء لم يكن قد انتبه بعد لجمال عيني خضراء وتحديقاتها المستمرة فيه.

لو تمادى هذه المرة مع مروة فسوف يطلب من العميد منصور أن يختار إحدى الأمرين؛ أن يطرد خلفان من الجامعة أو يرحل هو منها.

لم تفلح إذن مساعيه في إعادة الحياة إلى تلك المشاعر التي كانت تتدفق في دمه لزوجته حتى عهد ليس ببعيد. كانت رحلته معها تحصيل حاصل، ففي الأربعة الأيام المتتالية التي كان فيها بصحبتها معظم الأوقات، يمشي بجانبها، يضحك معها، يتناولان الشاي والقهوة معاً، تماماً كما كانا يفعلان في سنيّ حياتهم تلك؛ فشل في العثور على مشاعره وأحاسيسه القديمة معها. فشل في الشعور بتلك الحرارة وتلك الرغبة الجامحة التي كانت حاضرة دوماً وبقوة بينهما. أحسّ بأن مشاعره الجارفة نحوها لم يعد لها مكان، اختفت أو جفّت وتيبّست.

مضى معها في الأسواق وهي تضج بحيويتها المعهودة تلك، فرحة بعودة أيامهم الجميلة من جديد. واثقٌ بأنها لا تزال تكنُّ له نفس المشاعر الجيّاشة القديمة، لم تتغير، بل ازدادت. واثقٌ بأنها ما زالت تحبهُ، وتحبهُ جداً. تحكي له كل ما تشعر به، قالت إنه أعاد لها برحلتهما تلك شيئاً جميلاً افتقدته. بيّنت له حبورها الشديد لوجوده معها وحدهما، قدّرت له لفتتهُ بأن ينسى مؤقتاً عمله وبحوثه ويتفرغ لها.

«من اليوم ورايح لازم نكرر مثل هذي الرحلات، على الأقل مرة كل ثلاثة أشهر». تقولها وهما يتناولان عشاء «رومانسيا» في مطعم البودا بار الملاصق لفندق الجروفنرهاوس الواقع في منطقة المرينا.

لا تزال تحبه كما كانت. كل الذي اختلف فيها الآن انتصار خجلها عليها، فلم تعد تملك الشجاعة في أن تظهر له حُبها أمام المارة كما كانت تفعل في سنوات زواجهما الأولى. حينها كانت تمسك بيده وتميل برأسها قليلا نحو صدره وهما يمضيان متشابكي الأيادي. يحين منها أن تُقرِّب وجهها كثيراً من وجهه، وتستمر غير عابئة بالعيون المحدّقة فيهما. لا تأبه حتى بتوسلاته لها بالتخفيف من حركاتها تلك.

لم يمنعها من أن تفعل ما تريد، حتى لو شعر بالإحراج. كان يعرفُ أن زوجته إنما نشأت وسط عائلة مسقطية منفتحة، لا تحفلُ كثيراً «بالعقد الاجتماعية» التي فرضها الأهالي على بناتهم في عمان الداخل بالذات. عائلة لم تتعرّف على تلك المناطق التي يلزم على «البنت المؤدبة، بنت الأصول «المتربية» ألا تتجاوزها حتى وهي مع زوجها ووحدهما، في غرفة النوم!! لكنه بقي يشاركها حركاتها قدر المستطاع. يقلدها في أحيان رغم خشيته من أن يراه أحد من معارفه فيصل الأمر لاحقاً إلى أهله وأعمامه في نزوى. كانت تضحك بشدة حتى تدمع عيونها وهو يُخبرها بأن أباه لم يرَ في حياته جسم أمه عاريا تماماً قدّامه. «كيف لا يجوز للمرأة أن تخلع لزوجها كل ملابسها؟» تسأله ضاحكة وهي تحكي له كيف أنها، وبالصدفة، دخلت على أبويها وهما يمارسان الجنس عاريين من ملابسهما.

لكنه في بريطانيا لم يُعر للأعين أي اهتمام حتى وهو يطبع قبلة ساخنة على شفتي إحداهن أو يضمها إلى حضنه في وسط الأسواق أو الملاهي الليلية. هناك لا يهتم أحد بما يجري. لكن الوضع يختلف كثيراً في وسط بانكوك أو كوالالمبور اللتين يزيد عدد العمانيين والعرب فيهما عن أبناء البلد.

«لازم تعيش حياتك كما تريد لا كما يريد الناس». تقولها له نقلاً عن أبيها، وتضيف «لو تخاف من حديث الناس عنك فأحسن لك أن تجلس في البيت ولا تخرج منه».

تمنى لو بإمكانه عدم الاهتمام بكلام الآخرين، لكن ما تربّى عليه في الصِغر من عادات وتقاليد و«أصول» كانت أقوى من قدرته على الانعتاق. لم تفده سنوات غربته ودراسته في بريطانيا، ولم تُكسبه حريته التي مارسها طيلة تلك السنوات في التخلص مما ترسّب في عروقه من معتقدات. تمنى أن يكون أكثر انعتاقا وحرية في حركاته، أكثر مرحاً وشبابية في التعامل مع زوجته، أكثر تفهماً للبيئة التي أتت منها، أكثر قدرة على ممارسة التغيير على نفسه أولاً والخروج من قوقعته القديمة المتهالكة. التغيير الذي درَسَهُ وآمن به بقلبه وعقله، وأجرى حوله العديد من البحوث والدراسات، التغيير الذي يدرّسه لتلاميذه كل يوم طالباً منهم التخلي عن كل ما ورثوه من معتقدات تقف عائقاً في طريق تطوّر

عقولهم وتقدّم مجتمعاتهم، ضارباً لهم الأمثلة بالحضارات الكبيرة والثقافات التي ما كان ليكتب لها النجاح لو لم تخرج من شرنقتها البالية تلك ولو لم تنفض عن أردانها كل ما هو غير صالح للمراحل القادمة؛ ذلك التغيير الذي يأمر به، ينهى نفسه عنه.

«لماذا لم تعودوا تشربون من ماء الفلج مثلما كان يفعل آباؤكم؟»

«لماذا تركتم الحمير والجمال وفضلتم عليها السيارات؟»

«كيف ترضون لأخواتكم اليوم أن يقدْنَ سيارات وحدهن وبالأمس كان يعتبر ذلك إلى حدٍ كبير معصية؟»

يختم حديثه في العادة: العادات والتقاليد من صنع البشر، قابلة للتغيّر، فلا تعتنقوها كالعميان.

لكنه ظلّ يأمر الناس بالبِرّ وينسى نفسه حين عجِزَ عن الانعتاق من براثن تلك العادات وتلك التقاليد المحفورة في شراييه.

هل فكر بعد أن أنهى دراسة الدكتوراه في أن يبقى في بريطانيا وتكوّن له حياة جديدة بعادات ومعتقدات غيرها تلك التي تربّى عليها؟ نعم فكر، وكان قاب قوسين أو أدنى من أن يعتنق ذلك الفكر، لكن أعماقه الضاربة بجذورها في لُبّ الصخور الصلبة الجرداء، والمتوزع دمها في سيوح منطقة الجوف وهضاب الجبل الأخضر وجبل شمس؛ كبلته وقيّدت حركته وإرادته وأعادته «غصباً عنه» إلى المكان الذي نبت فيه وترعرع.

أربعة أيام أمضاها بجوار زوجته أحس بها ثقيلة عليه هذه المرة. فشل خلالها في أن يُعيد لمشاعره تلك الحياة التي اعتادها حين كان ينفرد بها. كما لم يفلح في الفكاك من قضبان مروة. أربعة أيام عاشها جميعا جسداً بلا روح. نجاحه الوحيد تمثل في أنها لم تشعُر معه بحالة الضياع التي كان يعيشها على مدار الساعة، نجح في ارتداء القناع للمرة الأولى معها. نجح كذلك في أن يعيد إليها الأحاسيس الجميلة ذاتها التي اعتادت أن تشملها وتملأ نفسيتها وهما معاً.

الآن يُقرُّ بأن ذلك التغيُّر الذي كان يخشى وقوعه عليه، قد وقع. وأن الأوان قد فاته. تغيّر هائل ذلك الذي أحسه وهو مع زوجته. تغيّر مُفزِع شامل كساه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. وقد وقف حيال كل ضياعه ذاك مكتوف الأيدي، عاجزاً عن فعل شيء، مكبل بقوة أكبر، لا حول له ولا قوة، وقد غدا عاجزاً عن دفع الضرر الذي ابتلي به عن نفسه.

في العلوم التي درسها ويدرّسها لا بد وأن لكل شيء سببا. لا يمكن أن تُقحم التغيّرات نفسها على المرء هكذا فجأة وبدون أسباب! لا بد وأن هناك تراكمات من نوع ما تشكّلت طبقات فوق بعضها بعضاً إلى أن وصلت إلى المستوى الذي هي عليه الآن. ما يشعر به تقِفُ خلفه مسببات ما، قد تكون قديمة تعود به إلى سنوات الطفولة، أو حديثة وقعت بالأمس القريب! غير أنه لا يملك الإجابة الآن.

جهله بالأسباب تلك يهلكه ويسحقه. فكيف له ألا يفطن لها وهو عالم الأنثروبولوجيا المعروف؟! ذلك العلم الهائل الذي تنضوي تحته كل العلوم الأخرى من علم نفس وسلوك وحضارات وفلسفة وجغرافيا وجيولوجيا وتاريخ. كل تلك العلوم تلجأ في كثير من الأحيان إلى الأنثروبولوجيا لكي يُفسرّ لها الكثير من الأمور والحقائق والفرضيات، فكيف لمن يملك كل تلك المعرفة أن يقف عاجزاً عن الوصول إلى أسباب ما يمر به من حالة جديدة غريبة وهو الذي لم يُبقِ كتاباً عن تاريخ الإنسان وتفكيره ونموه ونمو تفكيره وتطوّره إلا وقرأه؟

كيف؟ وكيف؟!

لا يصدق أن يجد نفسه عاجزاً عن تحديد العلاج، وهو واثق من تشخيصه للأعراض التي يمرُّ بها. لا يريد أن يقتنع بأنه استسلم لتلك الحالة من التوهان والتشتت ورضخ للأمر الواقع. هو لا يستسلم بسهولة، ليس ذلك من طبعه.

حتى المعاشرة الليلية لم يعد لها الطعم نفسه معها، فقد خفت سعيرها كثيراً وهدأ دمها في العروق. كان يأكل جسدها بفمه بكل نهم وجوع، يستمتع بكل مساحة من مساحته، يمرر لسانه عليها، يشمّ كل خلية من خلاياها، ويكرر، دون أن يشبع أو يتعب، ليجد نفسه الآن كمن يؤدي واجباته الزوجية وحسب. غاب عنه الكثير من تلك المتعة ومن ذلك الجنون ومن ذلك الشبق. فقد الحُمّى التي كانت تصيب كاهله حين يراها تذوب بين يديه وتتأوه شبقاً وهو يستثير فيها الحواس الدفينة، منتظرة منه أن ينقضّ عليها.

هل لعب العمر دوره في ذلك؟ لا يجب أن يكذب على نفسه، فلا يمكن أن يكون لشعوره الحالي علاقة بالعمر. الأمر كله مرتبط بتلك الصبية، مروة وفقط مروة.

في حيرة شديدة هو من أمره الآن. لم يعد يملك قراره بيده فلقد سُرق منه. لكن ما يجري لن يسوقه سوى إلى نفق معتم، حيث الألم والفوضى التي يجهل نهاياتها وغياهبها المدمرة.

كان يقود سيارته في شارع دبي أبوظبي السريع حين سيطرت عليه كل تلك الأفكار، بينما كانت سميرة تغني بجانبه مع صوت فيروز «أعطني الناي وغني».

عندها، قالت له وهي تضع كفها الأيسر على كفه الأيمن التي ينساها في معظم الأوقات فوق ناقل الحركة الأُوتوماتيكي القابع في منطقة الوسط بينهما، تماما كما كانت تفعل في سالف أيامهما حين كان الناقل لا يزال يدوياً.

- هذي وحدة من الأغاني اللي خليتني أحبها من كثر ما سمعتها معك زمان. تتذكّر؟

يهزّ رأسه موافقاً ومبتسماً. تمضي مكملة حديثها:

- كنت أسمعها معك في أيام خطوبتنا وانت تعزمني كل يوم في مطعم.

ثم تُكمل:

- غير عن فيروز أقدر أذكرك بالأغاني اللي كنا نسمعها دائما بالسيارة، لم أزل أتذكرها لم أنسها: صوتك يناديني، عتابك حلو، أنا راجع أشوفك، فكر في المكسب لا في الخسارة. صح؟

تسأله. لكنها تجده صامتا، فترفع كفها لتهزّ به كتفه الأيمن.

- أبو محمد وين سرحت؟ كأنك تفكر بالشغل باكر.

يومىء لها برأسه متفقاً فتكمل:

- الله يعينك، بس أعتقد إنك تقدر تتقاعد وتترك كل هذا الهمّ والغم عنك. لماذا لا تتقاعد وترتاح من وجع الراس هذا. أنا وأنت نجلس طوال الوقت في البيت. تقدر تشتغل على بحوثك وتكتب أوراقك وأنت بجنبي في البيت.

كان لا بد أن يتكلم كي لا تلاحظ ضياعه وقد قضيا معا «إجازة ممتعة وجميلة» من وجهة نظرها. قال:

- والله يا حبيبتي كلامك صحيح، وصحيح جداً. بالفعل، الوقت مناسب للتقاعد.

صحيح، لماذا لم يفكر من قبل في ذلك؟ ما الذي سيخسره لو تقاعد وتفرغ أكثر لأبحاثه ودراساته؟ قد يكون ذلك هو الحل، ربما عليه الهروب مما هو فيه من مأزق غريب، الرحيل عن الجامعة التي هي بلا أدنى شك السبب الرئيسي فيما يمر به من ضياع وبعثرة.

ها هي إذن سميرة تدلّه على مخرج قد يكون الأنسب بالنظر إلى حالته التي لا ترضي عدواً ولا صديقاً. لكنه في الحال تذكر أنه لا يزال في بداية العام الدراسي، ولن يكون من الحكمة ولا من الرجولة أن يترك الجامعة في هذا الوقت.

قالت وقد انتزعته من وسط أفكاره:

- أو أقترح عليك أن تأخذ إجازة ولو لشهرين وبعدها تقرر ما يناسبك.

فكرة هي الأخرى جديرة بالاهتمام، لكنه حينها لا يجب أن يبقى في نزوى، بل لا يجب أن يبقى في عُمان كلها. سيبتعد بحيث يصبح من الصعب عليه الرجوع بسهولة إذا ما جرفه الحنين. الأفضل له أن يختار مكاناً قصياً يستحيل فيه العودة مهما احترق قلبه بالشوق واللوعة. عليه أن يختار أبعد نقطة على الأرض ليحط عليها الرحال. نقطة لا تتوفر فيها وسائل الاتصال بالآخرين. نقطة ينعدم فيها الواي فاي، ولا تصلها وسائل المواصلات إلا مرة كل شهر أو شهرين أو حتى ستة أشهر. نقطة لا تسمح له بالتراجع سريعاً. إنه الحل الأنسب، وعليه أن يبحث عن مكان وجود تلك النقطة.

فكر أنه ربما سيشترك في رحلة طويلة على ظهر إحدى تلك البواخر العملاقة التي تشبه الفنادق العائمة، والغياب معها وسط الأزرق الشاسع. ستبحر به من محيط إلى آخر، بحيث لا تترك له خيارا سوى البقاء على ظهرها أينما وجهت دفتها.

من بين كل الطرق التي ينصح بها علماء النفس العاشق لنسيان من يحب، تأتي الطريقة الأقوى والأهم والأكثر فعالية عن بقية النصائح؛ الهروب بعيدا عن الحبيب حتى نسيانه. يجب عليه ألا يفكر إلا في تلك الطريقة.

قرأ مرة عن مكان ما، قمة جبل في وسط الهند أو سيرلانكا، يستطيع الإنسان الذهاب إليه ليعالج كل ما يسكنه من أمراض نفسية بسيطة أو معقدة من خلال التأمل. يستطيع كذلك أن يتخلص من العشق ومن الحبيبة ومما تعوّد عليه في حياته من عادات وأساليب خاطئة.

هناك تنعدم وسائل الاتصال بينه وبين الآخرين، ويصبح الشخص الوحيد الذي يمكنه التحاور معه هو نفسه ذاتها. سيغوص ليصل إلى روحه الطبيعية، يحاورها ويناجيها ويتفق معها على ما يجب فعله ليعيش بعيداً عن أمراضه وآلامه. يقرفص هناك أو ينام، يجلس أو يقف، ستكون السماء الزرقاء هي التي تراه وتسمعه ولا سواها. ستصغي إليه بكل سرور، دون أن تملّ أو تكلّ. وستفتح له داخل عقله وروحه منافذ ما كان يدركها ليطرد من خلالها قلقه وتشتته. حين تبرحه تلك الأمراض، ترتاح الروح ويشفى القلب إلى الأبد.

يحسنُ به أن يفكر بجدٍ وبسرعة قبل أن تتفاقم الأمور. لكنه الآن، في تلك اللحظة تحديداً، تأسره رغبة ماسة في رؤية مروة والحديث معها، حتى ولو مرة واحدة وأخيرة. لقد اشتاق إليها حقاً. تخيّلها معه في أكثر من مرة، تخيلها مكان سميرة وهما يتناولان وجبة الإفطار معاً في مطعم الفندق. وهما يحتسيان القهوة والشاي في كوستا. وهو يشتري لها عطراً فرنسيا من باريس جالري، أو قميص نوم شفافاً مثيراً من فيكتوريا سيكريت. تخيّل أنها هي من قلّدها الساعة الذهبية، هي من كان يمسّد لها ظهرها آخر الليل مدّعيا خبرته في التدليك الصحي.

همّه الأهم الآن أن يجلس معها وفي أسرع وقت ممكن حتى تهدأ الدماء الثائرة في شراييه، وتعود إلى وضعها الطبيعي دقات صدره العنيفة. متشوق ليعرف ما الذي فعلته في غيابه، فهل اشتاقت إلى رؤيته مثلما اشتاق هو؟ عليه أن يتحقق من كل ذلك.

عليه أن يحاول حين يلتقيها هذه المرة أن يحدق في مقلتيها ليخبرها دون أن يتكلم، بدون كلمات أو تعابير، أنه واقع في شباكها، وأن عليها أن تقرر مصيره. ربما إذا تأكد له تعلّقها به وانجرافها نحوه مثلما يجرفه التيار القوي إليها، ستتغير خططه. قد ترتاح روحه ويتمكن بدماغ أصفى من أن يقرر بعد ذلك خطوته القادمة. في وسط كمية الشوق التي يغصُّ بها قلبه تجاهها؛ لا يملك سوى أن يركض بشوقه ليراها ويطفئ النار التي في صدره، مسيرٌ هو غير مخيّر.

حين وصلا البيت وكان محمد وزهراء في انتظارهما، أبلغه محمد بأن فتاة ما تقول إنها من الجامعة اتصلت بهاتف البيت وكانت تريد أن تطمئن عليه وعلى صحته. لكنه نسي أن يسألها عن اسمها. قال:

كانت تتحدث باللغة الإنجليزية.

دبّت الكهرباء حينها في جسده. شعر بها تسري من قمة رأسه نزولاً إلى أصابع قدميه، وانتفض قلبه بشدة داخل صدره. إنها هي، فأحدٌ غير مروة لن يتجرأ على الاتصال به في بيته، ولو كان غيرها لاتصل بهاتفه الخلوي، إذ لم يعطها رقم هاتفه ذلك، ولا يذكر أنها طلبته منه في السابق.

تلك إذن ليس إلا بداية لأمور قد تتطور، ولم يكن في موقع يسمح له بإخفاء الحقيقة كاملة عن سميرة حين سألته عمّن قد تكون المتصلة. قال بارتباك لم تنتبه إليه وهي تتحدث في ذات الوقت مع زهراء:

- أعتقد أنها طالبة الماجستير الجديدة لدي، الأمريكية، ويبدو أنها محتاجة إلى مساعدة، ولم يستطع أحد مساعدتها.

أضاف وهو يطلق ضحكة قصيرة، وهاجس في داخله يدفعه نحو قول المزيد لزوجته كي لا يترك لها مجالاً للشك:

- هؤلاء الأمريكان طريقة تفكيرهم مختلفة، يعتقدون أن من حقهم أن يتصلوا بالواحد في أي وقت ومتى ما أرادوا، والمشكلة أن هذه البنت قادمة ضمن برنامج تعاون مع جامعتها بأمريكا، ويفترض بنا أن نوفر لها كل شيء حتى يستمر ذلك التعاون، بحيث لا نترك فرصة لجامعتها لأن تشعر بوجود نقص من جهتنا. التعاون مع جامعة كولومبيا المشهورة يعتبر إنجازاً علمياً غير مسبوق لجامعة صغيرة مثل جامعتنا، لكن المشكلة أن جامعتنا ينقصها الكثير من الكوادر المدرّبة والمتعلمة لكي تجيد التصرف مع برامج التعاون الكبيرة بكل نجاح، لذلك كل شي في النهاية يطيح على رأس المشرف، وكأنه هو المحاضر والإداري والمشرف الاجتماعي والطبيب النفسي. تمتم مبتسماً «ما ناقص غير أني أصير السائق بعد».

تحين منها قهقهة قصيرة، وهي تعلّق على ما قاله:

- وحدك من قرر المجيء لهذه الجامعة، كان أفضل لك لو بقيت بجامعة السلطان بدلاً من وجع الراس هذا.

شعر بشي من الراحة والهدوء يغمران نفسه بعدما تأكد أن زوجته اقتنعت بما سمعته.

أدهشته ذلك الصباح بكمية المتابعين له على صفحات التواصل الاجتماعي والذين تجاوز عددهم في تويتر وحده عشرة الآف متابع وذلك خلال أيام قليلة من إطلاقها الحساب. لكنه في أعماقه، كان يتمنى لو أنها بدأت معه يومه بشكل مختلف تماماً، فقد منّى نفسه أن يراها عابسة ومقطّبة وهي تقف أمامه، وعلامات السهر واضحة على وجهها بسبب غيابه عنها واشتياقها له. ما رآه كان عكس ما تمناه.

أقنع نفسه حينها بأنها إنما تريد أن تبيِّن له أنها ليست ممن يُذوّبهنّ الحنين ويُلهب قلبهنّ العذاب، وأن عليه أن يبحث في طرقٍ غير مألوفة ليحصل على ما يتمناه وإلا سيتعب معها كثيرا.

لقد فسّر لنفسه معاني حركاتها أمامه، فليس رفعها لرأسها للأعلى لحظة أن التقت عينيها بعينيه إلا تأكيداً له بأن أنفها المرفوع للسماء لن يُنزله بحركاته المُفتعلة تلك.

إنها في وضعها ذاك، بنظرة التكبّر التي أرسلتها إليه وحديثها الخالي من المشاعر ليست إلا وحشاً جارحاً. «إنها خطيرة بلا شك. حارقة، يجب أن يحذر من الاقتراب منها. شريرة، تُذكّره بقصص النساء الأكثر شراً في العالم. لا تقلّ دهاءً عن «ميرا هندلي» و«جنين جونز»، وسيكون قلبه الضحية القادمة على يديها. ستحقنه بسمّها ليصاب بالشلل وينتهي». يهمهم مع نفسه.

لم تدخل مكتبه بحزنها وشوقها كما تمنى، بل بهاتفها النقّال في كفها وابتسامة عريضة جميلة تملأ وجهها المشرق البشوش الذي لا تبدو عليه ذرّة من سهر. جلست على طاولة الاجتماعات الدائرية طالبة منه أن يجلس بجانبها.

ربما عودته سبب لكل ذلك الألق والفرح الذي هي عليه. يقول لنفسه.

صدحت بصوت يملؤه النشاط:

- لو كنتَ قد بدأت منذ زمان، وحتى لو كان قبل سنة فقط، لكان متابعوك قد تجاوزوا المليون اليوم.

وتضيف:

- إن جملة «صخور الجبل الأخضر هي أولى الصخور في الأرض» التي أخذتها من إحدى أوراقك كانت كافية لتخلق ردود أفعال طويلة ستتعجب حين تقرؤها، ستكتشف أن لك محبين ومعجبين، ولكن في المقابل ستدرك أن هنالك من لا يحبك، وربما يغار منك ويحقد على نجاحاتك. أنا لا أعرفهم ولكنك بالتأكيد ستتعرف على بعضهم.

اقترب وجلس إلى جانبها الأيمن. كان عطرها الهادئ هذه المرة يحيط بها من كل الجهات، وكأنها تعيش داخل سحابة منه. ترتدي قميصا بنياً جديدا هذه المرة. قرّبت كرسيها من كرسيه حتى لامس ساعدها ساعده وهي تقلب أمامه على شاشة هاتفها ردود من قرروا متابعته في التويتر. وجدها وقد وضعت له صورة في البروفايل أخذتها على ما يبدو من إحدى صفحات الإنترنت حين كان يلقي محاضرة في إحدى المناسبات، وهو يرتدي دشداشة بيضاء بحرير كحلي ومصر بني زينت مساحاته بنقشة كحلية. كانت صورة جميلة انتقتها بعناية وعدّلت في ألوان خلفيتها باستخدام أحد برامج تحسين الصور. قلبت أمامه بعدها بعض الجمل التي انتقتها من وسط معظم أوراقه العلمية وقد كتبتها باللغتين، العربية والإنجليزية.

«صخور عُمان تعدّ من أقدم الصخور في العالم إن لم تكن أقدمها على الإطلاق»

«من الصعب أن يثبت الآخرون أن الصخور في الجبل الأخضر وجبل شمس ليست الأقدم في العالم»

«هناك دلالات على أن الإنسان كان موجودا خلال حقبة الديناصورات لكن وجوده انحصر في أعالي الجبال، وفي الجبل الأخضر تحديداً»

«يوجد الكثير من رفات البشر التي تدلّ على أن أبناء البشر الأوائل كانوا يقطنون عُمان، في جبالها بالتحديد».

«الدلائل الأولى تشير إلى أن الإنسان الأول على الإطلاق نزل في أحد الجبال في عُمان»
«الجبل الأخضر قد يكون أول مكان نزل عليه أول ابن من أبناء الله في الأرض، آدم عليه السلام»
وذيلت كل جملة بلقبه العلمي واسمه «بروفيسور سالم الكندي».

كانت رائحة عطرها البديع قد نقّلت ذهنه من الاهتمام بما كانت تقرؤه من جمل إلى الانتباه إلى طراوة خديها اليافعين الضاجّين بدم الشباب. حانت منه نظرة مدققة إلى ساعدها الأيمن، كان جلدها الذي لا يمكن وصفه بالأبيض كما لا يمكن عدّه بنياً، ولكن بين بين، ناعما جداً ولامعاً وقد خلا من أي أثرٍ للشعر.

يبدو له أن مروة تملك نوعية من الجلد لا يوجد لدى النساء، نوعية لا تسمح للشعر أن ينبت عليه. أصابع يدها الناحلة الجميلة كانت قادرة هي الأخرى على خطف انتباهه. تلك الأصابع المستقيمة هي التي اعتاد أن يقرأ عنها في الروايات الرومانسية القديمة، حيث لا تملكها في العادة سوى عازفات البيانو. أظافرها مطلية بلون بني شفاف. مروة أجمل بكثير مما كان يراها من قبل، ويبدو أنها تزداد جمالاً وفتنة يوماً بعد يوم. في لحظة اعتقد بأنه تمكّن بالفعل من أن يشتم رائحة جلدها الحقيقي والتي لا تختلف كثيراً عن رائحة عطرها الخارجي.

كانت سعيدة بما قامت به، وسعيدة وهي تقرأ عليه ردود أفعال المتابعين. بعضهم شكره على ما يقوم به من «بحوث علمية قيّمة». بعضهم استغفر الله وخشي عليه من مغبّة هذيانه الذي لن يصل بصاحبه إلا إلى «الشرك». بعضهم اتهمه بالكذب، والآخر بالضلالة. معظم هؤلاء ممن يشارك باسمه الطبيعي كانت قبائلهم تدّل على أنهم من سكان بلدته والولايات القريبة من نزوى.

كان اتفاقه معها أن تُطلعه مسبقاً بما يقعُ عليه اختيارها من أعماله قبل أن تنشرها، لكنها احتجت في ذلك بفقدها الحيلة في التواصل معه خلال فترة غيابه. قالت «في النهاية بعثت لك على الإيميل وأيضاً لم ترد».

لكنه لم يهتم. كان جمالها الحاضر أمامه كفيلا بأن يشفع لها أي قصور من ناحيتها. كما لم يزعجه أمر تلك الردود كثيرا، فلقد سبق وأن قرأ مثل تلك الآراء وردّات فعل أعنف منها. بعضهم تجرأ عليه ونشر آراءه علناً في الصحف والمجلات المختلفة. بعضهم وجّه إليه مثل تلك الملاحظات مباشرة حين كان يلتقيهم في مختلف العواصم العربية والعالمية وهو يشارك في التجمعات العلمية المتعلقة ببحوثه.

ليس ذلك الوقت المناسب لأن ينزعج، فقد كان سعيدا وهو يلمح عن قرب، نعومة وجمال طالبته. دماغه مشمولة بالأسئلة التي لا تتوقف، فكيف غفل عن ملاحظة ذلك الجمال منذ البداية ومنذ يومها الأول معه؟ ولماذا الآن أصبحت تمثل له رمز الأنثى المتكاملة الأوصاف عقلاً وجسداً؟ ولماذا صار يُحسُّ بأنه لا يحق لأحد أن يحصل على هذه الفاتنة إلا من يساويها أو يفوقها ذكاءً وعبقرية؟ ولماذا صار يؤكد لنفسه بأنها ستظلِمُ ذلك الإنسان الذي يقلّ عنها ذكاءاً إذا ما قررت الاقتران به؟

كيف لخلفان أن يفكّر في الزواج بها على الرغم من فارق الذكاء الشاسع بينهما؟ كيف يرضى لنفسه أن يكون زوجاً لمن تفوقه ذكاءً وفطنة وبمراحل شاسعة؟ كيف سيكون قادراً على الحديث معها؟ على الأخذ والرد في أمور الحياة المختلفة، وهي التي برغم حداثة سنها تملك من الفكر والرؤية ما لا يملكه من يكبرها في السن والعلم بسنين طويلة؟ كيف لمخلوق بسيط لا يملك الكثير من الذكاء أن يستوعب بسهولة هذه الفتاة القادمة من كوكب آخر لكي يتمكن لاحقاً، حين تصبح من نصيبه أن يسيطر عليها؟

«لو كنت مكان خلفان لابتعدت أميالاً عنها، ولكنتُ رفضتُ الارتباط بها حتى لو طلبت هي مني ذلك وترجتني». يقولها لنفسه.

لقد تمنى حينها لو أنه الآن زميل لها في الدراسة وليس مشرفاً عليها، زميل أعزب، لم يتزوج بعد.

أخبرته بأنها ستبدأ منذ الغد في الاشتغال على صفحته في الفيسبوك، وقد أكدت له بأنه من خلالها

سيقرأ ردود أفعال أكثر خصوصا وأنها ستطرح فيها ملخصات لاكتشافاته وكتاباته العلمية.

لكن فضوله لم يسمح له ساعتها أن يتركها ترحل دون أن يسألها عمّا قامت به في الأيام التي غاب فيها. كانت ترد باب مكتبه حينما أرسل إليها سؤاله. قالت بعد أن ضحكت ضحكة مقتضبة:

- صحيح نسيت، استغليت الفرصة وطلعنا أنا والأستاذة سامية إلى مسقط.

لمست بأصابع يدها اليمنى ردن قميصها الأيسر، في إشارة إلى أنها اشترته من رحلتها تلك إلى مسقط. قالت ووجهها تملؤه الابتسامة:

- من المفيد يا بروفيسور بين الوقت والآخر أن تأخذ إجازة يوم ويومين حتى أقضي لي كم يوم في مسقط أنا بعد.

فاجأته جملتها تلك «هل حقاً تقصد ما سمعه منها؟»

الباب يفتح بعد أن يُغلق بثوان «هل ستقول له ما يود سماعه منها وإعادة النبض إلى قلبه بعد أن تمكنت من حرق أعصابه؟».

قالت بوجهٍ جاد هذه المرة:

- أتمنى يا بروفيسور أن تعيد النظر في إمكان عودتك إلى جامعة السلطان بمسقط، على الأقل أقدر هناك أعيش وأحس إني إنسانة لي كيان وعندي أماكن أزروها وأتسلى فيها بحرّية وبدون عيون تلاحقني وين ما رحت.

وغادرت.

لم ينتبه لجملتها الأخيرة تلك، لم يسمعها، فجملتها قبل ذلك كانت قد علقت في ذهنه. أعادها على مسمعه أكثر من مرة.

«هي لا شك تمزح» يقول لنفسه. ما سمعه لا يتعدى أن يكون مزاحاً، فما الذي يمنعها من الذهاب إلى السوق عندما يكون موجودًا في الجامعة؟! «كانت تمزح بلا شك» يكرر.

استيقظ باكرا جدا ذلك الصباح، فوصل مكتبه مع شروق الشمس، ليجدها قد سبقته إلى مكتبها. كانت تستمع إلى فيروز كالعادة وقد شغف أنفه رائحة لبان عُماني وهو يقف ملقياً عليها تحية الصباح. كانت باذخة الجمال حينها والابتسامة تملأ وجهها كله، وقد ارتدت قميصا كحليا جديدا. قالت:

- القلوب عند بعضيها يا بروفيسور، يبدو أننا فكّرنا بنفس التفكير هذا الصباح.

ثم وهي تضحك، تردف باللغة الإنجليزية:

- تتش ذا وود.

سألها، ربما ليثبت لنفسه قبل أي شيء آخر أن سبب قدومه المبكر مختلف عن سبب وجودها في ذات الوقت:

- وما هو ذلك ذلك التفكير يا آنسة مروة؟

قالت ضاحكة، وهي تلف باتجاه شاشة الحاسب الآلي الذي تعمل عليه، وصورة لقرية سيق الواقعة وسط الجبل تملأ صفحة البحث في جوجل:

- التحضير للجبل الأخضر.

إنه توارد خواطر مرة أخرى. لم يتحدثا مسبقاً ولم يذكر أحدهما للآخر عن خطته. بدا أن بينه وبينها تواصلا من نوع ما.

«رائحة اللبانً لا تطرد الشياطين فقط، بل حتى المزاج السيء» تجيب عن سؤاله «ما قصة اللبان اليوم؟» وتُكمل «رائحة اللبان وصوت فيروز أول الصباح يمنح يومك سعادة وراحة بال».

***

في رحلته إلى الجبل لن يكون معهما ثالث. سيكونان وحدهما. خطط لذلك منذ البداية وقبل وصولها إلى نزوى وكأنه كان يستقرئ حينها تطوّر الأمور بينهما.

قرر بالإضافة إلى ما سيفشيه لها من أسرار علمية، أن تكون رحلة تعرّف معمّقة بها بعد أن استقر وبشكل نهائي على نوع العلاقة التي يجب أن تبقى بينهما إلى أن تعود من حيث أتت. ما يطمح أن يكتشفه عنها، علاوة على غرورها الذي لا يطاق، بقية الجوانب السيئة فيها. ذلك سيسهل عليه كثيراً في المضي قُدما فيما عزم عليه.

اختلفت الأمور كثيراً منذ أن جاءت قبل شهرين والآن، فلم يكن ليتوقع يوم علمه بقدومها ما سوف يحدُث له بعد وصولها. لم يتخيّل أن يُصبح ما كان مهماً لديه قبل شهرين أقل أهمية الآن. لم يتصوّر مطلقاً أن تتحول رغبته الأهم والمتمثلة في مشاركتها اكتشافه العظيم الذي سيخرس ألسنة المكذبين الذين أرسلوها إليه، لتغدو رغبة ثانوية لا تمثل له تلك الأهمية، لتتقدم عليها رغبة جديدة قلبت حياته رأساً على عقب؛ رغبته في أن تبادله تلك المشاعر الجديدة التي احتلته. لكنه عازم على إعادة الأمور إلى نصابها كما كانت عليه قبل مجيئها. سيركن لعقله لا لقلبه وهو يصعد معها الجبل. سيحجر على قلبه ويمنعه من الصعود معه. سيركب معها الجبل مجرداً من الأحاسيس والمشاعر التي سيتركها في المكتب إلى أن يعود، أو سينزلها قبيل الصعود بقليل في مياه فلج «الخطمين» الذي يخترق بيت الرديدة عند أقدام الجبل، لتغتسل بالمياه القادمة من الجبل المقدّس، ولتنظف ما علق بها من شوائب ليأخذها في طريق العودة وقد تجردت من تلك العوالق.

***

«كل يوم بحال» هكذا يصف نفسه لنفسه. فحين عاد من دبي قرر أن يمنح عواطفه مجالاً لأن تعيش الدور، بعد أن فشل في قتلها. قال «سأتسلى فيما تبقى لمروة من أشهر معنا طلما عجزت عن دحر تلك المشاعر نحوها، وبعد أن ترجع إلى نيويورك، ستعود أموري إلى طبيعتها. فلتفرح مشاعري وتفعل ما

يطربها ويسعدها الآن، سأمشي معها إلى حيث تشاء، إلى النهاية، إلى حيث ينتهي بها المطاف بالموت الطبيعي بعد رحيل مروة»؛ ليجد ذاته تائهة مرة أخرى بين أن يستغل رحلته معها فيفصح لها عمّا في داخله، وبين أن يصعد حاملاً معه عقله فقط.

- بروفيسور، ما هو دليلك على أن صخور الجبل الأخضر هي أقدم الصخور على وجه الأرض التي عاش عليها الإنسان؟

تقولها وقد رسمت على وجهها ابتسامة شك مما يؤمن هو به.

تردف:

- لا يوجد حتى الآن من يستطيع الجزم أساساً بعمر الأرض فكيف وصلتَ إلى ما وصلت إليه من قناعة؟

يبتسم، ينظر إليها نظرة مختلفة عمّا اعتادت عليه وهي تحاججه في قناعاته. لا يود الخوض معها في مثل تلك الحوارات الآن.

تستمر، تحوّل نبرة صوتها وشكل وجهها لتكون أكثر جدية:

- ما قمت به يا بروفيسور لم يكن القصد منه سوى الشهرة. أنت لا تملك إثباتات على صحة كلامك. صحيح؟

لكنه يتلفع بالصمت. تتحدث هي عن تلك الورقة العلمية التي نشرها منذ أكثر من سنة مضت حين ذكر بأن الصخور في الجبل الأخضر، وكذلك في جبل شمس هي الأقدم على الإطلاق في بلدان شبه الجزيرة العربية التي عرفت خطوات البشر. قال في نهايتها «أن ثمة حقائق تشير إلى أن تلك الصخور هي كذلك الأقدم في العمر الجيولوجي للأرض التي سكنها الإنسان». وأضاف بأن لديه «أدلة أولية» على أن وسط صخور الجبل الأخضر تنحشر طبقات من صخور هي الأقدم على سطح الأرض إطلاقاً، «لكن الأمر يحتاج إلى مزيدٍ من البحث والتقصي» مردفاً «إن تلك الصخور لا بد أن تعود إلى العصر الكمبري أو حتى قبله».

كانت تحدق فيه بدون توقف في انتظار إجابة منه. لكنه عوضاً عن الرد على سؤالها بشكل مباشر، قال والابتسامة الحنونة لا تفارق شفتيه:

- سيكون عليك إثبات خطأ كلامي ذاك يا آنسة مروة.

تضحك بشكل مفاجئ وهي تنظر إليه، لا تلبث أن تهزّ رأسها باستغراب قبل أن تقول:

- أنت تدرك بأن إثبات ما تقوله من عدمه أمر لا يمكن تحقيقه. كلنا يفهم بأن أمر معرفة مكان انبثاق الصخور الأولى إلى سطح الأرض صعب التحقق منه بل أقرب إلى المستحيل، وأعتقد أنك تتعامل مع المسألة بذات المبدأ، فلا أحد يستطيع أن يجزم بمكان نزول الإنسان الأول على ظهر الأرض. أنا أشهد لك بالذكاء في التلاعب بتلك المناطق المضببة والرمادية من العلم.

تصمت لفترة قصيرة وهي تهزّ رأسها يميناً وشمالاً كمن يُحضِّرُ بحرص ما سوف يدلي به تالياً:

- لأكون معك صريحة جداً، أنت تُدهشني فعلاً، تدهشني لأن الموضوع الذي تكتب عنه لم يخطر على بال أحدٍ من العلماء السابقين الكتابة عنه. كلهم كتبوا إما عن تاريخ الصخور في الأرض أو عن تاريخ وجود الإنسان على الأرض. أما عن التأكيد أن أول الخلق نزل عندكم على الجبل فهذه فكرة بحد ذاتها مثيرةٌ للاهتمام. كيف واتتك؟ ومن أوحى لك بها؟ تهزّ رأسها ثانية قبل أن تضيف «هل جاءتك في الحلم فكتبت عنها في اليوم التالي؟»

يُثلج صدره ما يسمعه ما عدا جملتها الأخيرة التي شبّعتها بنبرة تهكم واضحة. تجهل أن العلماء لا يكتبون ما يأتيهم في أحلامهم لأنه ببساطة لا مجال للأحلام لديهم، فليلهم مثل نهارهم، يذهب في البحث

عن الحقائق. ببساطة؛ عقولهم التي لا تنام أبداً، لا تجد الوقت لأن تحلم.

شعر من حركات وجهها وطريقة حديثها بأنها تحاول مجدداً استخدام ذكائها لجرجرة أقدامه إلى حيث تريد. يبتسم وهو يقول لها بدم بارد:

- أقترح عليك أن نترك أولاً لرحلتنا للجبل أن تتم وبعد ذلك سيكون لكل حادثة حديث.

يتركها متجها إلى مكتبه. تمالك نفسه أمامها، كان قلبه يدق بسرعة وهي تتحدث. شعر بقشعريرة تسري في عروقه وهي تدفع بشعر رأسها الناعم إلى خلف كتفيها فيبرز نصل صدرها اللامع، لا يضاهي تكوّر نهديها الجميلين سوى نهدي زوجته حينما كانت في سنّها.

لكنه نجح في التحكم بنفسه حينها، شعر أخيراً بأنه يحدّثها كمشرف لا أكثر.

عليه إذن أن يُبقي على تلك المسافة الفاصلة بينهما. هكذا يجب أن يكون عليه الوضع، حتى وإن صارعته أعماقه «المجنونة» التي تتمنى أن يحدث الآن ما لا يمكن أن يتوقعه أو يتخيله: تدلف مكتبه مهرولة لتحضنه، ثم تتركه دون أن تنبس ببنت شفة بعد أن تطبع على خده قبلة.

فتح جهاز الحاسب الآلي، أدخل الفلاش وفتح الملفات، منطقة الجوف، نزوى، ملف «كهف آدم» الذي حفظ فيه كل ما يتعلق بمشروع بحثه الجديد. كرّ الصوّر المخزّنة أمامه؛ ذلك الكهف وبقايا الرفات البشرية تلك. انتابه ذلك الشعور الذي في العادة ما يسكنه كلما فتح الملف نفسه؛ فرح وحبور بما اكتشف، وبما سيخرج به للملأ.

«لن يتقبل العالم ما سوف أحكيه وأقوله لهم، لكنهم سيعجزون بكل تأكيد عن إثبات خطأ ما أقوله» يقول لنفسه وهو يسترجع ما للتو قد قالته.

كلامها صحيح، ففي تلك المنطقة الرمادية من العلم، حيث لا شيء جازماً قاطعاً، يستطيع العالِم الذكي أن يلعب فيها بحرية وذكاء. يستطيع أن يقنع الآخرين بصحة هذا وخطأ ذاك، يستطيع أن يتلاعب بالمسلمات والمعتقدات التي ظلت تراوح مكانها لعقود طويلة من الزمن، ولم يشأ أحد من قبل تحدي مصداقيتها.

تعلم هي كما يعلمُ معها زملاؤها من العلماء في أمريكا ما يقوم به. يفهمون تلك المناطق التي يلعب فيها والتي لعبوا فيها هم قبله ولا يزالون. هم أيضاً لديهم ألعابهم التي يمررونها على البقية معتقدين بأنه لن ينتبه إليهم أحد أو لن يعترض أحد ما يسوقونه للعالم من معلومات مضللة. هو إذن مثلهم ليس إلا، ربما تعلّم «الصنعة» منهم فأتقنها وربما تفوق عليهم فيها، فأصبح يستخدم الأدوات نفسها التي استخدموها لتضليل العالم وتمرير ما يحلو لهم من حقائق غير صحيحة، وبذلك أصبحت لهم أسماؤهم في الأوساط العلمية، وأصبح يشار إليهم بالبنان في حقولهم المعرفية.

باللعب في تلك المناطق التي أسمتها مروة «ضبابية»، أصبحوا مسيطرين على علوم كثيرة، الأنثروبولوجيا والجيولوجيا والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع. العلوم التي تملك تلك الخاصية المشتركة الـ«مضبّبة» استغلها علماء الغرب أيما استغلال فأوصلوا بها أسماءهم إلى مصاف النجوم، وكانوا ولا يزالون يُقزِّمون كل من حاول مقارحتهم في ميادين علمهم، خصوصاً أولئك القادمين من دول الصحراء والتراب والنفط. وفوق هذا وذاك فهم محظوظون، لا كمثله هو، فبلدانهم التي تعلمُ بكذبهم وتلاعبهم في العلم، تدفع لهم الغالي والنفيس لكي يصبحوا أعلاما بارزين في حقولهم، وليغدو العلماء الآخرون في الدرجة الأدنى منهم.

لقد عرف تلك الحقيقة منذ زمن، فاستخدمها وهو يعرف مدى جسامة الأمر يوم أن يقرروا محاربته وإسقاطه. لكن مروة هذه التي دمها مثل دمه قد لا تعي عميقاً مثل تلك المؤامرات والدسائس وأبعادها بعد. ربما طلبوا منها أمراً واحدا لا غير، «تحققي مما يقوله هذا المعتوه» فقط، وهي لا تتخيل ما الذي يمكن أن يحدث بعد ذلك. ما قالته للتو ليس سوى كلام أملي عليها لتقوله له من دون أن تدرك أبعاده

وأعماقه.

لن يُطلعها على أسرار بحوثه وكيف ومن أين جاء بالأفكار، عليها أن تكتشف كل ذلك بنفسها. وعليها لاحقاً أن تقرر ما إذا كانت ستستمر معهم أم ستلتحق به في مشروعه الكبير. لن يكون ما يقوله مشفوعاً بتلك الأدلة العلمية المحددة كما يطالبون، ولكنهم يدركون بأنهم لن يستطيعوا في المقابل أن يكذّبوا ما يقوله وهم أيضاً لا يملكون الأدلة العلمية التي ستشفع لهم ادعاءاتهم. لن ينتصروا عليه، وكل ما سيفعلونه هو محاربته بكل ما استطاعوا من نفوذ. لكن شهرته كعالم ستكون قد تمددت أكثر فأكثر.

كان منسجماً وهو يجلس على كرسيه في غرفة المكتب ببيته ينقّل بصره بين صفحات التويتر على جهاز الأيباد كما بدا ذلك واضحاً لابنه محمد وهو يقطع على أبيه خلوته. وجهه كان يتلوّن وتتبدل ملامحه بين الرضى وعدمه مما يقرؤه.

فوجىء محمد بأحد زملائه في الجامعة يُخبره عن صفحة أبيه وآرائه العلمية «الصعبة والجريئة» والتي شرعت في الانتشار سريعا بين الطلبة في الجامعة والمجتمع العمُاني ككل. باغته في البداية بسؤاله وعلامات التعجب واضحة على وجهه:

- محمد، أبوك يصلي؟

انتشله السؤال من وسط ما كان يقرؤه من أخبار في صحيفة الزمن المحلية. لم يسمع حتى تلك اللحظة عن حساب أبيه في التويتر.

أبوه يصلي، بكل تأكيد، يراه يصلي كلما كان معهم في البيت. صحيح أنه لا يحفلُ كثيرا بأداء الصلوات في المسجد، وقد أرجع السبب إلى المسافة التي يلزمهم قطعها للوصول إلى أقرب مسجد من بيتهم، لكنه كان كذلك لا يفوت جمعة واحدة دون أن يؤديها في المسجد، بل في الجامع البعيد وسط نزوى المزدحمة في أيام الجُمع. قلب أبيه عامر بالإيمان، سواءً حافظ على صلواته الخمس أو تكاسل في تأدية بعضها.

كان ردُّه سريعا على زميله:

- أكيد يصلي، لماذا تسأل؟

- لماذا؟! أنت لا تعرف ما يقول الناس عنه؟

- ماذا يقولون؟

- يقولون إنه ملحد.

يُستثار. يكْفَهرُّ وجهه وهو يستمع إلى أمر جديد نزل عليه من العدم. لم يكن وقتها مهيئاً بما فيه الكفاية للرد، ولَم يكن متأكداً حتى تلك اللحظة ما إذا كان ما يحكيه زميله صحيحاً أم أنه مقلب يراد به أمر يجهله حتى تلك اللحظة.

كلهم يعرفون أباه من يكون، يعرفون البروفيسور سالم، يعرفه الأساتذة في كلية الآداب وكلية العلوم أيضاً. يرددون اسمه كمرجع وطني معروف بإسهاماته العلمية. العديد من الطلبة استمعوا إلى محاضراته إما مباشرة وهو يلقيها أمامهم على المسرح أو من خلال اليوتيوب، خصوصا تلك التي يتحدث فيها عن أصول الإنسان وعلاقة الجيولوجيا بتاريخه في الأرض.

- ومن أين جاؤوا بهذا الكلام؟

يسأل محمد وكان لا يزال يرزح تحت وطأة صدمة ما يسمعه.

يضحك زميله قبل أن يقول له:

- يبدو أنك غائب عن العالم، طبعا من حساب أبيك في التويتر.

يفغر فاهه مندهشاً بشدة:

- على التويتر؟!

منذ متى كان لأبيه حساب في التويتر وهو الذي رفض في مرتين سابقتين مثل تلك المقترحات حينما طرحها عليه؟ آخر حوار لهما حول ذلك كان قبل أقل من ثلاثة أشهر. يومها قال له أبوه بشكل جعله يصاب باليأس من أن يعاود اقتراحه ذاك: «إن حسابات التواصل الاجتماعي وُجِدت لتشغل المرء عن علمه، وأن العالم الغربي يريد أن يلهي العلماء في الدول الإسلامية والعربية عن تطوير مجتمعاتهم ومعارفهم». قال أيضاً: «التويتر والفيس بوك والإنستجرام وغيرها من برامج ما هي إلا أسلحة

يهودية يراد بها تدمير مجتمعاتنا من الداخل». وقال في نهاية حديثه الطويل ذاك بأنه «لا يجب على العلماء أن يكشفوا كل أوراقهم للعالم حتى لا يضع الأعداء والمتربصون بعلماء العرب الخطط المناسبة للقضاء المبكر على أفكارهم وذكائهم».

لا ليس أبوه من يقرر فجأة أن يخلق لنفسه تلك المنصة للتواصل، بل إنه حتى لا يعرف شكل التويتر أو الفيس بوك حين يراه. كما أن أباه يملك هاتفاً محمولا قديماً لا يستطيع تحميل مثل تلك البرامج.

هل انتحل أحدهم اسم أبيه؟ لا بد وأن أحدهم يريد سوءاً بوالده، ولذلك انتحل شخصيته. إما ذلك أو أن في الأمر سرّا ما يتطلب توضيحه من قبل أبيه نفسه.

لكنه قبل ذلك تخيّر مكانا منفردا في الجامعة ودخل حساب والده ذاك وشرع يقرأ ما كتبه. حين رأى الحساب وقد كتب باللغتين العربية والإنجليزية، أيقن بأن هناك من يقوم بإدارة حسابات أبيه، وأنه على الأرجح شخص ما في قسم الأنثروبولوجيا في جامعة نزوى.

شدَّه انتقاء الجمل التي وضعت في الحساب، والتي بدا له وكأن اختيارها لا ينم عن العشوائية، لكنه لم يُعطه الانطباع الذي خرج به زميله ذاك. استسخف ردود بعضهم ومحاولاتهم المستميتة في إثبات وجهة نظرهم وقد اختار أصحابها قراءة ما ليس مكتوباً في تلك الجمل صراحة. مفضلّة أن تتناول «الكلام غير المعلن» و«ما هو موارى بين السطور»، الأمر الذي حفّز الآخرين من «أنصاف المثقفين» على إطلاق تلك الأحكام على والده. أحدهم وصفه بالكافر والآخر بالزنديق. لم يتعرف على كلمة «زنديق» من قبل فبحث عنها في جوجل، ليتوقف شعر رأسه حين وقف على معناها: «الزنديق هو الْمُمارِسُ للزَّنْدَقَةِ، الضَّالُّ، الخَبيثُ، الْمُلْحِدُ، مَنْ يُظْهِرُ الإِيمانَ وَيُخْفِي الكُفْرَ وَيُضْمِرُهُ». لا يدري كيف تجرأ من كتبها على مجرد التفكير في كتابتها.

- كأنك مشغول بالتويتر بابا، أذكر أنك رافض أن يكون لك حسابات في وسائل التواصل الاجتماعي، كأنك غيرت رأيك؟

يبادر محمد أباه بعد أن سلّم عليه وقبّل رأسه.

يبتسم سالم دون أن يرفع نظره عن الشاشة وهو يجيب:

- صحيح.

يبقى لثوان مستمراً في قراءة ما أمامه. يرفع رأسه ويخلع نظارة القراءة التي لا يرتديها في الغالب إلا عندما يقرأ تلك الكتب التي يكون الخط فيها صغيراً أو حين يقرأ رسائل البريد الإلكتروني، مبتسماً لابنه. قال:

- صحيح محمد، نسيت أخبرك عن الحساب.

- الكل صار عارف عنه، أنا آخر من يعرف.

يُعقّب محمد ونبرة عتب واضحة صبغت حديثه.

- بس أنا ما كنت مهتم ولا أريد أهتم، إدارة الجامعة الله يسامحهم أصرّوا علي إني أفتح حساب في تويتر والفيس بوك.

- أنا أقول أحسن تبقى على رأيك الأول بابا، اترك التويتر والفيس بوك للجيل الجديد.

لم يعجبه الحديث، قال وقد قطب حاجبيه:

- أذكُر أنك كنت تشجعني ومُصر إنه يكون لي مثل هذي الحسابات! ما الذي غيّر رأيك؟

يصمت محمد قليلا ريثما يستجمع الكلمات والجمل التي ينبغي له أن ينطق بها في مثل ذلك الموقف.

كان يشجعه يوم أن كان على قناعة بأن تلك الوسائل ستوصل علم وأفكار أبيه إلى أكبر عدد ممكن من الناس على ظهر الأرض. اقتنع أيضاً بأن ذلك سيعود على والده بالخير سواءً من حيث الشهرة أو

حتى من حيث العائد المالي الذي قد يجنيه بسبب النشاط المكثف لحسابه. إلا أن الأمر قد تغيّر الآن، فبعد ما سمعه وبعد ما قرأه من ردود أفعال، خشي على أبيه مما هو قادم.

- علمك وشهرتك تغنيك عن هذي المواقع. الناس تفسّر كلامك على كيفها، ولم يتركوا لعلمك أي احترام أو تقدير.

يبتسم وقد فهم ما يعتري ابنه من قلق. قال بصوت هادئ كمن يحادث زميلاً له:

- أتفق معك يا محمد، أتفق معك في كل ما قلته. أنا أيضا لا يمكن أن أتحمّل ما يُكتب عني بعد كل هذا العمر وبعد كل ما قدمته من عمل مهني. هذه مشكلة وسائل التواصل، اللي يتابعوك ويعلقوا على ما تكتب ليسوا إلا متحذلقين ومدسوسين. جاهزين ينتقدوا ويشكّكوا في نوايا البشر، ولو حصل وتعرّفت عليهم عن قرب وعن حياتهم ستجدهم أفشل خلق الله. أنا عندما أقرأ ما يكتبونه أتذكر قصة المقهوي الذي ينتقد العالم كله وينصح رؤوساء الدول والوزراء بما يجب عليهم فعله وتقريره حتى يحالفهم النجاح، وهو لا يعرف في الأساس كيف يعدُّ فنجان قهوة بالشكل الصحيح. الناس تنتقد حياة الغير وهم أكبر الفاشلين في حياتهم. الآن تأكدت أن الفاشل من الناس هو الجالس على التويتر والفيس بوك ليل نهار لأنه لا يملك ما يفعله، أما الشخص الناجح فليس لديه وقت لمثل تلك التفاهات.

يسعدهُ ما يسمعه من أبيه. يرتاح قلقه. في حين يمضي أبوه في حديثه عن قراره:

- حتى قبل أن تقولها أنت، أنا بنفسي قررت أغلق حساباتي هذه طالما الناس لا تحب أن تسمع إلا الذي يعجبها ويتناسب مع مزاجها. في مجتمعاتنا لا مجال لاختلاف وجهات النظر، وفي الأصل لا نفهم ماذا يعني أن نختلف ونتناقش بشكل علمي مبني على الحقائق. العقول هنا غير قابلة للتطور لأنها مسكونة بوهم التمسك بما ورثوه عن الأجداد على اعتبار أنهم الصح. أولئك السابقون ليسوا سوى بشر، فكيف لا تقبل معتقداتهم النقاش ونحن نعيش عصراً ليس له علاقة بالظروف التي عاش فيها أجدادنا على الإطلاق.

يهزّ رأسه أسفاً وهو يتمم حديثه:

- بالفعل، لا يمكن لمجتمع أن يتطور أبداً إذا كان معظم البشر الذين يحيون فيه يجهلون معنى ثقافة الاختلاف. شعارهم دائما إما أن تكون معي أو تصبح عدوي، على رأي الأمريكان «يا بطريقتي أو الطريق السريع»[(14)] .

تحدّث بعدها عن ذلك الذي ترك كل ما هو جميل في تغريدته تلك «الجبل الأخضر قد يكون أول مكان نزل عليه أول أبناء الله في الأرض، آدم عليه السلام» ليلتقط أمراً لا يمكن إلا للمرضى النفسيين التقاطه حين ادعّى أن في التغريدة ما يتضمن الكفر والإلحاد حين نعت آدم بابن الله. قال يُكمل:

- لكنني لم أتفاجأ بما غرّد به ذلك الشخص، فهناك دائماً من هو أعوج أو مريض بين الأصحاء، ما فاجأني حقاً هو عدد المؤازرين والمتضامنين معه! لا أصدق أن يتعاطى كل ذلك العدد من البشر مع مثل ذلك الأمر؟ وعلى ماذا يا حسافة؟ في النهاية كلنا أولاد الله.

لم يمنعه شعوره بالراحة من توجيه سؤال أخير لأبيه:

- بابا أسألك؛ من هو هذا الشخص المجنون اللي يدير حساباتك؟

تفاجأ بالسؤال.

- لماذا؟

يسأل بسرعة وقد اعترته لحظة شك في أن أحدهم قد أوصل لمحمد معلومات عن مروة.

- لأنه شاطر، بس يبدو أنه لا يعرف الكثير عن المجتمع العُماني، يختار أي شي من كتاباتك ولا يحسب لردّة فعل الناس المتوقعة أي حساب. المفروض أن يتخيّل كيف ستقرأ الناس كتاباتك وكيف

يمكن أن تفسرها. أنا أشك في أنه عُماني وإلا لكان حريصاً أكثر على ما ينتقيه من فقرات.

- لم تخطئ الحدس يا محمد، هي موظفة جديدة عندي بالقسم، وفعلاً هي ليست عُمانية.

يرجع بظهره إلى الوراء، يأخذ نفساً عميقا قبل أن يستمر:

- هل رأيت أن كلامي لك في المرة الماضية كان صحيحا. هل اقتنعت بأن هذه الوسائل هدفها تحطيمنا وتحطيم مجتمعاتنا. كل ما كتبته أنا كان مجرد علم. علم مبني على بحوث ودراسات طويلة، وكل واحد من هؤلاء الذين تفاعلوا مع ما كتبته لم يقرأ لي أبداً، بل ولم يقرأ حتى سطراً في كتاب، وليس لديه أدنى معرفة عمّا يقرؤه، ثم يأتي بكل وقاحة وبرودة أعصاب ليتهمك بالكفر والإلحاد. كذا وأنا إلى الآن لم أقل شيئاً.

يقهقه وهو يُواصل:

- أتخيّل ردود أفعالهم عندما يتعرفّون على ما أشتغل عليه الآن. ربما حينها سيتجمعون قدّام البيت ويحرقونني بداخله وأنا حي، وطبعاً لن يهمهم ما إذا كنتُ مسلماً ينطقُ بالشهادتين أو أنني أصلي وأصوم وأعبد ربي. ستجد من بين من يطالب بدمي من لم يسجد لربه ولا مرة.

. ترجمة المؤلف ل- **"My way or the highway"**

أخيراً الجبل الأخضر، تلك الرحلة المنتظرة.

جلست بجانبه تماما كما جلست في المرة الأولى عندما انطلق بها نحو سوق نزوى القديم. لكن شعوره اليوم نحوها غير ذاك، اختلف كثيراً، بآلاف المرات.

التقيا أولاً بمكتبه في السابعة صباحا، ومنه انطلقا باتجاه الجبل الذي لا يبعد مخرج الشارع إليه عن الجامعة سوى بضع دقائق. سلك بها ذلك الشارع القديم المتكسّر والمزدحم في العادة في صباحات أيام العمل، ومنه انعطف يمينا، فحل الهدوء على الشارع المحاط بالبيوت القديمة والحديثة على جانبيه. كان الطريق نظيفاً والإسفلت لامعاً بعد أن أُعيد تعبيده من جديد مؤخراً.

توقف قليلا عند مقهى للشاي على يسار الشارع، هبط من السيارة مستأذناً إياها لشراء شاي «الكرك» ليعود بعدها بقليل وبيده كوبان من الشاي. لقد فعل الشيء نفسه مع سميرة حين حملها إلى دبي في تلك العصرية.

ظلت مروة صامتة حينها، تتطلع إلى البيوت وأسوار مزارع طينية قديمة آيلة للسقوط. توقف بها قليلا عند باب الرديدة.

- سبق وأن أتيت إلى هنا مع إحدى زميلاتي بالسكن، كانت زيارة سريعة خاطفة.

تبادره، وتكمل:

- بروفيسور، لديكم الكثير من التاريخ لكن لا أحد يكتب عنه.

تضحك وهي تلتفت إليه. كانت التفاتتها جميلة وخصلات شعرها البني الناعم تتساقط كشلال على جانبها الأيمن.

لاحظ أنها ترتدي لأول مرة قميصا بيج، ناعما، مصنوعا من الحرير الخالص، يشفّ عمّا بداخله، لكنها نثرت على كتفيها وصدرها وشاحاً بنياً غامقاً، جديد هو الآخر. الشيء الذي لم يكن جديداً عليها هو ذلك العطر الفرنسي المعتاد الذي عبق في أرجاء السيارة، فخلق بداخلها جواً لا يمت لجو «الرحلة الحقلية العملية» بأية صلة. لا يعرف كيف عليه أن يقاوم تلك الرائحة. استمرأها وصارت ملازمة له. سألها عنه اسمه ذات يوم متحججاً برغبته في شرائه لزوجته ليبين لها مدى إعجابه بالعطر:

- يبدو أنه فرنسي هذا العطر الجميل الذي تضعينه عليك، سأنصح زوجتي بشرائه، ما اسمه؟

- إن ريزيستبول.

تجيبه.

اشتراه لسميرة وهما في دبي، لكنه لم يفلح في أن يشم فيها ذات الرائحة. تأكد له أن مروة إما أنها تخلط ذلك العطر بعطر آخر أو أن جسدها هو الذي يختلط بالعطر فتخرج منه تلك الرائحة المختلفة.

تكمل حديثها:

- لماذا لا تكتب عن كل هذا التراث الحقيقي بروفيسور بدلا من أصول الإنسان وتاريخه الذي لن يوصلك إلا إلى حيث وصل الآخرون من العلماء قبلك.

لم يصل تماما إلى ما ترمي إليه حينها، لكنه اعتبره، كعادة ما استمرأت القيام به حين تكون معه؛ استفزازاً لإجباره على الحديث. قال بهدوء:

- كثيرون كتبوا عن هذا التراث، ولكن لم يصل بالشكل المطلوب إلى الناس.

كانت هي أيضاً على جانب كبير من الهدوء غير المعتاد صباحها. قالت تُعقِّبُ على ما قاله:

- نحن في الأردن لدينا ثلاثة أو أربعة مزارات سياحية كلها مُكتظة بالبشر، بالسيّاح، تقريباً طول السنة، وأنتم عندكم المئات منها وما أشوف إلا القليل من الزوار.

- إذاً الحل في أنكم تسلّفونا وزير السياحة اللي عندكم.

تطلق قهقهة سريعة ومقتضبة. كانت تلتفت إلى جانبها الأيمن محدّقة في المناظر التي يمرون عليها. تضحك وهي تشير إلى منظر أحدهم وقد أصرّ على ما يبدو على غسل حصيره المصنوع من سعف النخيل في مياه فلج الخطمين المخترقة لجدار حصن باب الرديدة، تماماً أسفل اللوحة التي كتب عليها بالخط الأحمر العريض «ممنوع الاستحمام في مياه الفلج أو استخدامها في تنظيف الملابس والسيارات والحُصر وغيرها».

قالت مازحة:

- أنتم شعب طيب.

ثم تضحك من قلبها على ظرافة المنظر. جسدها الجميل يهتز أمامه وهي تحني ظهرها للأسفل وقد غطت سائر وجهها - الذي تشّرب حمرة قانية ساعتها - بكفيها. هزّه المنظر وتخلل أعماقه بخفة وطواط، فالتهبت معه سائر الأحاسيس.

هل يلمسها الآن ليقول لها بأنها شملته؟ هل يمد كفّه ليلمس يدها بشكل خاطفٍ كمن يجسّ النبض؟ أم أنه سينتظر منها أن تبادر بذلك. من بمثل ذكائها يستطيع أن ترمي له مثل تلك الإشارة، ومثله سيستلمها بسرعة.

لا لن تفعل، يقول لنفسه، هي أثقل من أن تقوم بذلك. تعرفُ بكل تأكيد تلك القدرات الخارقة التي وهبها لها الخالق، تعرف أنها بفضل ما تملكه من جمال لن تركض باتجاه أحد وإن كانت ترغب فيه، بل ستنتظر منه أن يبادر بالجري وراءها.

عاد إلى التيه ثانية. في ظرف ثانية واحدة وبحركة صغيرة منها أعادت له تلك المشاعر التي من المفترض أن يكون قد خلفها داخل أدراج طاولته وأحكم قفلها بالمفتاح، مثلما تأكد كذلك من إغلاق الباب والنوافذ بإحكام كي لا يترك لها أدنى فرصة للخروج واللحاق به.

لن تهزمه أحاسيسه. عليه أن يتحررِ منها سريعا ويتركها أسفل الجبل مع ذلك الذي يغسلُ حصيره. سيطلب من ذلك الرجل كما كان قد فكّر، أن يغسلها كي تعود بيضاء ناصعة كما كانت قبل أن يلتقي بالجالسة بجانبه.

لا يدرك كيف بنى في داخله تلك القناعة؟ قناعة أنها تريده. فهي حتى اللحظة، رغم كل ما قامت به من حركات أمامه وما قالته من أحاديث؛ ما زالت تقف في ذلك الخط الرهيف الفاصل بين الإعجاب الموصل إلى الحب والإعجاب الذي سيبقى إعجابا فقط. فمن أين وُلدت وترعرعت القناعة في جوفه بأنها تسعى إليه وأنها تنتظر منه أن يبدأ رحلة غرام مجنون معها.

لماذا يفسِّر الأمور على هواه؟ فحين تسأل عنه بلهفة هي بلا شك مشتاقة إليه، وحين لا تسأل فلأن غرور العاشق منعها. قد لا يتعدى الأمر أن يكون مجرد إعجاب، وقد لا يكون ذلك الإعجاب من كلا الطرفين. ولماذا لا يزال يصرُّ بأنها حتى إن لم تصل إلى مرحلة الغرام به بعد، فإعجابها وحده كفيل بأن يوصلها إلى مرحلة الوجد إذا ما قرر أنها له؟

لماذا ترسخت لديه القناعة التي لا تقبل الزعزعة بأنها لا تقوم بما تقوم به من حركات إلا لأنها تريد لفت انتباهه إليها، لماذا يصّر بأن حركاتها يستحيل أن تكون بريئة، وإلا ما الداعي لاتصالها في بيته والسؤال عنه وهي تدرك حينها بأنه في دبي مع زوجته؟!

تدوّخه الأسئلة من جديد، يتوه فيها، وبها. يعود فيؤنب ذاته من جديد على إبحارها المستمر نحو البقاع التي حذرّها منها. يهزُّ رأسه، بلا إرادة، علامة على الرفض، فاليوم بالذات يجب عليه، بالطيب أو بالقسوة، أن يتخلّى عن كلِ ما له علاقة بالمشاعر والإعجاب. هي معه من أجل أمرٍ أكبر من الحب والعشق والهيام. هي معه لتشهد بأم عينيها مشهدا استثنائيا في علمي الجيولوجيا والأنثروبولوجيا في آن. ستتعرف اليوم على الصخور التي تحوي بقايا إنسان رغم انغماسها في قاع البحر من قبل، وسوف

يكون لها الشرف، بعده وبعد سليمان، أن تشاهد عظام أبي البشر، آدم عليه السلام.

مدت يدها لتلامس كتفه:

- بروفيسور، شايك برد.

اهتز من الداخل لتلك اللمسة. ها هي تتجرأ أخيراً على لمسه، تفعل ما جبُن هو عن فعله. هل يمد يده الآن ليعصر كفها الرقيق داخل كفه؟ أعطته الضوء الأخضر! أليس ذلك ما كان ينتظره؟ ها هي إذن تلك الإشارة.

لم تفعل ذلك إلا لأنها تريده أن يتقدم خطوات نحوها بعد أن بادرت هي بالخطوة الأولى. لا ريب أنها تشعر بأن الوقت أمامها يمضي سريعاً. ستجد نفسها مع السرعة التي تمضي بها الأيام، تودّعه في المطار قريباً. ستنقضي الأيام بأسرع من لمح البصر. شهران مرّا كأنهما يومان، وستنطوي السبعة أشهر الباقية بمثل تلك السرعة. ماذا ينتظر؟!

يقتلهُ الموقف. فلو أن غير البروفيسور سالم لكان قد أوقف السيارة وحضنها. ما الذي عليه فعله؟ فحتى بعد تلك الإشارة التي انتظرها بنفاد صبر، فلن يقدم على خطوة من شأنها أن تدخله في نفق ليس له بداية ولا نهاية. لن يفعل ذلك، يحسب للأمر ألف حساب.

مشتتٌ هو. رأسه يسكنهُ مائة هاجس وشعور. ما يزال إحساسه بأنها جاءت لأغراض أخرى لم يكتشفها بعد؛ تسيطر على جزءٍ كبيرٍ من فكره. هي ليست هنا لإقامة علاقة غرامية قصيرة تنتهي برحيلها. لا ليست مروة من يمكن أن تُفكّر بذلك بكل تأكيد وإلا لكانت قد اختارت لها من هو في سنّها.

- بروفيسور سالم...

تخرجه من جديد من حالته تلك. يمسك بكوب الشاي «البارد» المصنوعة جدرانه من الورق ويكرع ما تبقى منه دفقة واحدة. كان صوت فيروز طاغياً حينها وهي تنام مع هبوب الغربي على «جسر اللوزية».

صعد بها الطلعة الحادة الملتفة مثل ثعبان، مرَّا أولاً من أمام نقطة تفتيش الشرطة:

- كأنا ندخل بلد ثاني؟

تسأله مستغربة بعد أن طلب منهما الشرطي هويتيهما.

مسألة تنظيم لا أكثر.

يجيبها محرجاً؟

- أشار إليها أن تفتح النافذة وهما في منتصف المسافة الموصلة إلى قرية سيق، لتباغتها نسمة الهواء الباردة حينها. قال:

- يجب عليك أن تبقيها مفتوحة لأن الهواء سيزداد برودة ونحن نصعد.

- قرأت بأن درجة الحرارة المتوقعة بالليل قد تصل إلى 15 درجة.

تضيف على كلامه.

حين وصلا إلى سيق كان سوق بيع ثمار الرُّمّان والمشمش الجبلي أول ما قابلهما بعد فندق الجبل الأخضر القديم. توقف هناك وابتاع لها كيسا من الرُمّان ومثله من المشمش. قال إنه لا يوجد في العالم مثل حجم رمان الجبل الأخضر الطبيعي ولا في مثل لذته. تضحك وهي تُعقب على كلامه «الرُّمّان في أمريكا كما حجم البطيخ».

عرج بسيارته بعد السوق بمسافة قصيرة باتجاه مساحة صخرية ممتدة تقع على الجانب المعاكس لكتيبة الجيش التي احتل سورها مساحة هائلة يمتد إلى حيث لا يصله مجال النظر. توغّل قليلا مبتعداً عن الأحياء السكنية وحائط الكتيبة، ثم أوقف السيارة وأطفأ محركها.

ها هي الذاكرة تعود به مرة أخرى إلى الوراء، إلى تلك الفترة التي يعتبرها «سوداء» في مسيرة حياته والتي لا يوّد تذكرّها، بل تمنى لو أن بإمكانه إلغاءها مثلما تلغى الملفات من حافظة جهاز الحاسب الآلي. اللحظة الحاضرة أعادته وفي غضون ثوانٍ معدودات إلى أيام الدراسة الجامعية. لقد كان في مثل هذا الموقف من قبل، مع من؟ لا يذكر، لكن مشاعره الحاضرة الآن ومروة بجانبه هي ذاتها تلك التي كانت تتلبّسه قبل أكثر من ربع قرن. يمسك بذراعيها بينما تنتظره أن يهبّ عليها، يتلفت هو أولاً يميناً وشمالاً ريثما يتيقن بخلو المدى من «الأشرار». يغوص بعدها ومعها في طقوس من المتعة التي في العادة لا تطول كثيراً إلا إذا كتب له أن يكون اللقاء في المساء. معظم لقاءاته كانت تتم قبل الغروب. كان يجب أن يعيد الطالبة إلى سكنها قبل أن يرفع المؤذن نداءه لصلاة المغرب وإلا باتت في حضنه طوال الليل، ثم يتعين عليها في الصباح أن تُقدِّم لمشرفة السكن الأسباب المقنعة لغيابها قبل أن تنهال الأسئلة عليها من والديها.

وعلى الرغم من استمراره في «غيّه» بعد ذلك وهو في بريطانيا، لكن فترة الدراسة في جامعة السلطان بالذات كانت أسوأ فترة مرّ بها في حياته. فلا أبوه ولا جده ولا أي أحد من عائلته المعروفة بالمحافظة على القيم والأخلاق «النبيلة» أقدم على ما أقدم عليه. ما كان سيتخطى تلك الخطوط الحمراء لو كان أبوه بينهم، لكن السجن الذي غيّب أباه غيّب عن ذهنه ما كان يتحلى به والده من أسس ثابتة لا تتزعزع. أغوته الأنثى خصوصاً مع يقينه بأن طوله ووسامته غير المعهودة بين زملائه من الطلبة قد منحته جواز العبور نحو قلوبهن. عيناه السوداوان والواسعتان كانتا مفتاحا آخر لأن يذيب بنظراته الثاقبة الجالسة أمامه فتنقشع طائعة راضية بكل شيء يأتي منه. لكنه يتذكر بأنه لم يتجرأ على الوصول بسوء أخلاقه إلى ذلك المستوى لولا مساعدة زميله «يوسف» الذي دفع به دفعاً للحديث الجريء مع أول فتاة عرفها في حياته، وبعدها عجز عن التحكم في نفسه، فأطلق لها العنان لتروي عطشها وتشبع جوعها كيفما تشاء.

نزل بسرعة عن السيارة، قبل أن تتغلغل تلك التخيّلات في أعماقه أكثر وأكثر ويقدم على ما ليس في الحسبان مع طالبته، فقد شعر بجسده يوشك أن يخرج عن طوعه، لكنه لم يغفل هذه المرة أن يسبقها ويفتح الباب لها.

- هذه هي حديقة المرجان.

يبادرها وهو يشير بيده إلى الأرجاء الصخرية الممتدة.

همست في أذنه بغنج ناعم: سأبتعد عنك لمسافة مائة متر، وسأجري بعدها حافية فوق رمال الساحل «وإذا لحقتني تاخذ ما تريده». لكنها سريعا كانت قد صعدت تلة صغيرة وهو يركض ويلهث وراءها كالمسعور. أتعبته يومها، كانت رياضية وكان كسولاً، لكن الرغبة الجامحة أوصلته إليها بسرعة. «هل أوصلته رغبته إليها أم أنها خشيت أن يتوقف قلبه يومها فادعت الهزيمة؟» أعجبته حركة الفتاة حينئذ، وبقيت حاضرة في ذاكرته لم تتبخر لدرجة أنه طلب من سميرة أن تقوم بذات الفعل في فترة خطوبتهما. لكن سميرة التي لم تجرِ في حياتها ولا متراً واحداً، ناخت واستسلمت له في ثوانٍ.

على ضفاف الوادي السحيق، وادي سيق، تسكن الصخور السوداء. صخور الحِقب الزمنية الأولى، الأقدم في تاريخ الجيولوجيا. صخور ناتئة ومنبعثة من بطن الأرض ومنتشرة بكثرة على مساحات شاسعة ممتدة إلى أبعد من حدّ النظر.

مروة قفزت، كما توقعها؛ فرحة وهي تتعرف على تلك الآثار الصخرية المتناثرة في الأرجاء.

- هذه مكانها أسفل المحيط.

تقولها بصوت عالٍ وقد ابتعدت بخطواتها السريعة عن مكان وقوفه. كانت تلتقط الصور الواحدة تلو الأخرى دون توقف وبسرعة طفولية غريبة، وكأنها ستختفي عنها بعد فترة قصيرة من الزمن.

مكث يتابع قفزاتها وحركاتها فوق الصخور وكأنها غزال بري تحرر للتو من قيوده. طفلة كانت، أسرَها حُبُّ اللعبة، لعبتها المفضلة؛ الصخور، فانطلقت تصوّر كل شيء يقابلها. تلتقط ما يمكنها التقاطه من أحجار وصخور نارية ورسوبية التصقت فيها بقايا كائنات بحرية مختلفة وغير بحرية.

يعلم بأن هذا الحقل من الصخور ليس إلا مدخلاً إلى المكان الذي سيجرّها إليه، ومن خلالها سيجر معها من ينتظرها في نيويورك لكي ترسل له المعلومات الجديدة «الصحيحة» التي ستكذّب ما يتوهم «العُماني» وجوده في بلاده.

رآها تنحدر بخطواتها باتجاه وادي سيق اليابس في الأسفل، ثم سمعها تطلب منه الحضور. الجو بارد جدا رغم أن الشمس كانت قد قاربت كبد السماء، والهواء يلفح وجهه وهو يقترب منها وقد وقفت بجانب حمار في أسفل الوادي ينهق بلا توقف رافعاً ساقه المكسورة إلى الأعلى. بدا له أن الكسر قد حدث قبل فترة وجيزة وكان الحمار بسببه قد عجز عن العودة أدراجه إلى أعلى الوادي. كان ينهق طلباً للمساعدة، وكانت تتمنى لو أن بإمكانهما مساعدته. أكد لها أن من يملكه لا شك سيهبُّ لمساعدته بعد حين بعد أن يشعر بغيابه عن بقية القطيع، وأن الحمير كما يذكر في فترة صباه قادرة على تحمل الألم والوصول حتى بساقها المكسور إلى حيث تسكن.

انطلقت بعدها تلملم بقايا طلقات نارية متناثرة بكثرة على المساحات الممتدة من أسفل الوادي حتى سفحه الذي تبدأ الصخور السوداء فيه بالانبساط. كانت بقايا طلقات حرب الجبل الشهيرة. يذكر بأن تلك الحرب ما كانت ستقوم لها قائمة لو لم يستعجلوا على أبيه. لا تعرف الحكومة أن الإمام كان قد رفض تسليم نفسه كما طلبت منه الحكومة، ولو كان أبوه قد أبلغه بأن الحكومة قد منحته هدنة الأيام الثلاثة ليجهز نفسه ومن معه من مقاتلين للاستسلام لكان قد زمجر وغضب وقاتل حتى النهاية، ولكان المئات من سكان الجبل الأخضر والمقاتلين من الجانب الآخر قد لقوا حتفهم حينها.

لكن أباه أوعز للإمام بالخروج سالماً من أرض المعركة ومعه من يريد من قادته وسهّل لهم خروجهم بمقابل موافقة الحكومة على الصفح عن بقية الثوّار.

لم يعجب الحكومة ما حصل. فما إن وصلها خبر هروب الإمام خارج حدود البلد وهي التي كانت تمني النفس بتصفيته أمام الملأ، حتى اتهموا أباه بالخيانة والكذب والتآمر ضدها. ألقوا القبض عليه وكبّلوه ودفعوه إلى ذلك القبو المميت في أعلى القلعة. القبو الذي لم يزره الهواء مطلقاً.

لم يمنحوه الفرصة في أن يوصل إليهم وجهة نظره ولم يتركوا له المجال لكي يشرح لهم لِمَ قام بذلك. تم الأمر سريعاً جداً. شنّت الحكومة خلالها الحرب على من تبقى في الجبل وقتلت الكثيرين. هو نفسه فقد العديد من الأقارب في الحرب، بعضهم كان لا يزال طفلاً لم يسعفه قدره أن يذوق طعم الحياة التي شهدها هو.

شعر حينها بأن كل ما قامت به الحكومة في حق والده كان مبيتاً وليس وليد اللحظة. أحسّ بأنها كانت تتحسس من النفوذ الذي كان يملكه أبوه في نزوى فوجدتها فرصة سانحة للتخلص منه وإنهاء وجوده، وقد ملكوا يومها القوة والسيطرة على منطقة الجوف، وملكوا سبباً قوياً لسجنه وتصفيته تدريجياً، وقد صدّقهم في ذلك الكثيرون. صفقوا وهللوا وأثنوا على كل ما قامت به الحكومة.

لا تصدق أمه كل ما كانت تتشدق به الحكومة عن زوجها، حلفت ألف مرة أن الشيخ سالم الكندي أمين وصادق وأبعد الناس عن الخيانة والكذب. نفت وبشدّة أنه وقّع عهداً مع صاحبه الإمام قبيل هروبه ليشكلا معارضتين إحداهما في الخارج والأخرى في الداخل للانقضاض على الحكومة لاحقاً. ظلّت تكرر له «أبوك بطل»، «أشجع الشجعان»، «ضميره حي يوم أن ماتت الضمائر في البشر»، «صاحب دين، يخشى الله ولا يخشى من عباده حتى الملوك منهم»، «صاحب مبادئ وأخلاق لا يملكها أحد»، «وفوق كل هذا صاحب واجب وحِس وطني، وكل اللي قام به كان هدفه حماية الناس وحماية

البلد من الموت والدمار».

قالت: ماشي مثل الأيام تبين الصح من الخطأ، الصالح من الطالح. أبوك ما قدر ينصفه وطنه لكن الله بينصفه والأيام بتبين من الخائن ومن البطل، وأضافت: التاريخ بيثبت للناس من كان أبوك، وبيندم كل اللي ظلمه.

مات أبوه بعد أن أصيب بالتهابٍ حادٍ في رئتيه، رفضت الحكومة حينها حتى عرضه على طبيب.

توقفت مروة بعدها كثيرا أمام صخرة منزوية على منحدرٍ من الوادي كان قد شاهدها من قبل، صخرة كانت معروفة لمجموعة علماء الجيولوجيا. التصقت عليها بقايا أضلع ناتئة تشبه أضلع صدر الإنسان.

قرر أن يوهمها بأنه مثلها، يرى ما تراه للمرة الأولى في حياته.

- هل يمكن أن تكون عظام بشر؟

لا توجد فرصة أفضل من تلك لكي يستغلها أيما استغلال في الوصول إلى مبتغاه الأهم.

لقد أرسلها القدر إلى تلك الصخرة لسبب. يقول لنفسه.

من خلال العين المجردة لن يتمكن أحد من الجزم بأنها ليست لبشر، فالأقفاص الصدرية تتشابه بين الإنسان والعديد من الحيوانات. لكنه يعي بأنها ليست عظاماً لواحد من بني جنسه، ومع ذلك قرر أن يستغل الفرصة السانحة. سيربط تلك العظام بتلك التي تنام داخل كهف سليمان.

- لم لا، بالنسبة إلي فأنا أراها عظام إنسان.

يجيبها.

- وهل يمكن أن تكون قد غطست في قاع الأرض وخرجت منه دون أن تنصهر؟

تسأله مستغربة.

لكنه يقهقه وقد شدّه ما قالته، ففغر فمه وهزّ رأسه علامة على تعجّبه مما يسمعه منها:

- أنت بكل تأكيد لا تقصدين ذلك مروة، أنت قصدت هل كان الإنسان موجوداً قبل أن تغرق الأرض في المياه. ما ترينه هنا هو دليل على أن هذا الكائن قد تغطى بالمياه وتحجر ثم انبثقت عظامه مرة أخرى إلى سطح الأرض. وإذا كانت هذه عظام إنسان فيعني واحدا من اثنين؛ إما أن الإنسان كان موجودا مثله مثل الأسماك داخل مياه المحيطات، وهذا طبعاً غير منطقي، أو أن الإنسان كان يعيش على ظهر الأرض وغرق مع المياه ثم خرجت بقاياه مع الصخور كما تشاهدين.

تضحك هذه المرة، تهزُّ رأسها وهي تقول له وعلامات الاستفهام تملأ وجهها كله:

- يعني غرق ثم رجع حي؟

- لا طبعا؟

- إذن كيف بقي الجنس البشري يعيش إلى اليوم؟

ها هي بنفسها تقترب مما يريد أن يصل إليه، فيسألها:

- وهل تعلمين بالضبط متى غرقت الأرض في المحيط؟

تهز رأسها:

- ليس بالتحديد طبعاً.

فيكمل ما بدأه بسؤاله، وثمة إحساس بالفرحة والنشوة يطوف في وجدانه:

- هل ثمة ما يؤكد أن الأرض جميعها غرقت في المياه حينها؟

تقف مشدوهة مما يقوله، وهي تُنقّل نظراتها بينه وبين تلك العظام قبل أن تطلق صرختها رافضة تماماً ما يحاول أستاذها جرّها إليه:

- مستحيييييييل، هذا خيال، بل وهم.

يقول لها ذلك وقد تجرأ هذه المرة على وضع قبضة يده اليسرى على معصمها الأيمن ليجرّها خلفه ناحية صخرة قريبة تبرز فيها بقايا كائن بحري يشبه السمكة. يضيف إلى ما بدأه وهو يشير بسبابته ناحية الصخرة:

- هذا أمرٌ آخر، العلماء الذين زاروا هذا المكان مؤخراً كانت لديهم قناعة بأن هذه السمكة كانت موجودة خلال حقبة الديناصورات. هذه سمكة ديناصورية إذن، وهناك بالقرب منها عظام إنسان، فهل كان الإنسان موجودا كذلك أيام الديناصورات؟

لم تنطق، كانت لا تزال واقعة تحت تأثير الدهشة مما تسمعه منه، بينما مضى في حديثه كمن فُتحت له أبواب السماء فانطلق:

- لكن هل هذه العظام وصلت ناحية الماجما في بطن الأرض؟ أنا أجزم بعدم دقة ذلك. هذه العظام وصلت إلى قاع المحيطات بكل تأكيد، ثم خرجت بعد أن دفعت بها الصخور المنصهرة تحتها إلى السطح. الإنسان كان هنا حين كانت هذه الأسماك الديناصورية تعيش. الإنسان يبدو أنه عاش مع الديناصورات ولكن يبدو أيضا أنه لم يكن موجوداً معها في نفس المساحات المنبسطة، بل على الجبال البعيدة عن متناول الديناصورات القارضة.

التفتت إلى معصمها الذي لا تزال كفّه ممسكة به، ثم إلى وجهه وثمة ابتسامة صغيرة ارتسمت على وجهها. انتبه لذلك. ترك معصمها من دون أن يتأكد من أن نظرتها تلك حملت معنى عدم الممانعة أو العكس.

قالت وكأن شيئاً لم يحدث:

- لا يمكن لذلك أن يكون صحيحاً يا بروفيسور، أنت ذكي جداً، تعشق اللعب في تلك المناطق الرمادية. أنا أعترف أنني أقف أمام شخص بإمكانه توريط العالم بذكائه الخطير.

تضحك وهي تضيف:

- أنت تشكل خطراً كبيراً على تاريخ البشرية، بل الإنسانية جمعاء.

تحدق في وجهه بتمعن. تعقد حاجبيها، تهزّ رأسها. لا تلبث أن تتراجع خطوة إلى الوراء وهي تكمل ما بدأته:

- كيف تأتيك مثل هذه الأفكار؟ الإنسان كان يعيش مع الديناصورات؟! المعلومة التي سلّم العالم بعدم منطقيتها وبعدم صحتها. وحدك تغالطها! من تكون لتفعل ذلك؟!

لم يشأ الاستمرار في الحديث في ذلك الموضوع. كان منتشيا لحظتها بما وصل إليه من نتائج حتى تلك اللحظة. منتصر هو الآن، هكذا يحس، لقد حقق هدفه ورمى لها الطُعم الذي التهمته، تجرّعت القطرة الأولى من الغيث.

- سيكون للأمر بقية لاحقا.

يقولها وهو يمضي مبتعداً عن مكان وقوفها، ويكملُ وهو يشير لها بيده أن تتبعهُ بسرعة.

- سنتحدث في الأمر مطولاً فيما بعد. الآن يجب أن آخذك إلى مكانٍ هامٍ جداً.

تضحك مجدداً وهي تُعلّق «أهم من هذا المكان؟!»

ركبا السيارة من جديد. انطلق بها حتى نهاية وادي الصخور السوداء أو حديقة المرجان. أوقف السيارة ثانية وهبطا معاً باتجاه الوادي عند طرفه الأخير. لم تقل شيئا في الدقائق التي قطعتها السيارة إلى حيث وصلت بهما. كانت سارحة في تفكير عميق بعيد عنه، وبين الحين والآخر كانت تلقي عليه نظرة الاستغراب تلك.

ينتشي أكثر. يتأكد له انتصاره الأولي عليها. لكنها من وجهة نظره لم ترَ شيئاً بعد. كل ما شاهدته لن يساوي شيئاً أمام ما هو قادم من مشاهد قادرة على جعلها تفقد عقلها وعقل من أرسلها إلى نزوى.

نزل قبلها على صخرة شبه ملساء مادّاً يده إليها لمساعدتها في الهبوط. نزلا مسافة تزيد على العشرة أمتار. وقف بعدها بجانبها أمام جبل من صخور بنية متداخلة تسكن في وسطها بوابة حديدية خضراء مكوّنة من قطعتين أصاب السفلى منهما صدأ حاد، كانت الطريق الضيقة إلى البوابة متعرجة، تهبط إلى الأسفل بحدّة مخيفة.

قال وهو يشير إلى البوابة والسرور الشاسع يشعُّ من وجهه:

- هذه البوابة تخفي داخلها واحداً من أهم أسرار البشرية على الإطلاق. ستكونين أول مخلوق من خارج عُمان يتعرف عليه.

فرحاً كان وهو يتمعن في وجهها المصاب بالحيرة الشديدة. انتابته حينها تلك المشاعر من جديد وهو يُحدّق في صفحة خدّها. تقاسيم وجهها لا يمسّه الشين. محتوياته رائعة. لا يوجد في وجهها ما يعكّر جماله، وكأنه قيس بالقلم والفرجار والمسطرة؛ صغير ومتناسق في محتوياته. شفتا أنجلينا أجمل ما فيه.

هو الآن معها ووحدهما. في نقطة ما على الأرض. نقطة ما في هذا الوجود الشاسع من الصعب أن تصل إليها أقدام البشر. هو وهي معاً فقط، هما الاثنان، لا ثالث معهما. ربما لن يجد فرصة كهذه ليضمها ويقبلّها.

يرتجّ قلبه في أعماقه حينها مع تخيله للمشهد. تذكّر بعدها أن هذه البقعة التي يقفان عليها هي إحدى البقع الخالدة في التاريخ. ففي هذه النقطة بالذات ارتكب قابيل أول جريمة قتل في تاريخ البشرية بقتله لأخيه هابيل. هنا، في هذا الموقع التاريخي العظيم استطاع إبليس أن ينشب أنيابه في صدر قابيل. أن يحرّضه على أخيه الذي رزقه ربّه بزوجة أجمل من زوجته. ربما قال قابيل لربه حينها كيف تمنح أخي الذي يصغرني سناً فتاة كالبدر، بيضاء، كاملة الحسن، بينما تمنحني أنا الأكبر فتاة لون جلدها أقرب إلى الليلة الليلاء. لو لم يشعر قابيل بذلك لما كان في الحياة أبيض وأسود. من خلق فيه ذاك الشعور؟ من أوحى إليه بأن اللون الأبيض أجمل من اللون الأسود؟ وكيف وصله هو أن مروة أجمل من كل من عرفهن من قبل؟ وكيف سيكون شعوره لو أن بشرة مروة داكنة كظلام الليل؟

ما كان لذلك الشعور من وجود في قلب البشر لو يقم قابيل بفعلته الشنعاء ولو رضي بما قسمه له ربّه. يهمس في أعماقه.

لطالما عشق القميص الأسود حين ترتديه الصبية البيضاء، تصبح الفتاة حينها أشهى ما يكون. لا يمكن لأي فتى أن يغضّ النظر عن الفتاة البيضاء، الشقراء، التي ترتدي قميصاً أسود يكشف جزءًا من صدرها الأبيض. حتى أصحابه الإنجليز وافقوه في ذلك. «اللون الأسود ملك الألوان حينما ترتديه فتاة بيضاء جميلة»، يقولها لمن حوله.

ها هو إبليس «اللعين» حاضر من جديد في البقعة المقدّسة نفسها من تاريخ الإنسانية، بعد أن توقّف عن زيارتها لملايين السنوات. ها هو يدفع به ليُقدم على تلك الخطوة الصعبة. الخطوة التي إن قام بها فسوف تخفف عنه بعد ذلك كل المعاناة والتشتت الذي يرزح تحت وطأته؛ يملي عليه إبليس.

- ما الذي يحويه يا بروفيسور؟

تنتشله من عمق تخيلاته. يشعر وكأنه غاب عنها دهراً من الزمن. لاحظ علامات اللهفة مرتسمة بوضوح على صفحة وجهها. لهفة التعرف على السرّ الذي ظلّ يحكي لها عنه منذ لقائهما الأول.

- عندما ندخله ستعرفين السر.

- لندخل إذن.

- للأسف الشديد لا يمكننا الدخول من هذا الباب، فمن أوجده هنا ادّعى بأن الكهف ملكه ومنع الكل من دخوله مؤكداً لهم حينها بأن من يتجرأ على دخول الكهف فلن يعود منه إلا في حالتين؛ فاقدا للعقل أو فاقدا للروح. لذلك وضع على الباب ذلك القفل العريض الذي تشاهدينه. أحكم قفله وأخفى المفتاح، وبعدها مات. لا أحد يعرف أين المفتاح ولا أحد من أقاربه رضي أن يخاطر ويكسر القفل.

تُرجع رأسها إلى الوراء مستغربة:

- معقولة فيه كهف في العالم مملوك لشخص.

- في عُمان كل شي ممكن، حدّ يملك بحر، حد جبل، حد شاطئ، ممكن نعم.

يضحك وتضحك معه، لتعود إلى وجهها علامات الدهشة من جديد وهي تقول:

- بروفيسور، كان الأولى لو جئنا هنا من أول يوم، صخور الجبل وحدها تكفي لإعداد رسائل في الدكتوراه وليس الماجستير فقط.

يبتسم. كانت أشعة الشمس الساطعة بقوة والنهار ينتصف؛ قد أبرزت صفاء عينيها البنيتين الجميلتين، إنه بكل تأكيد لون العينين الذي يُحبه. إنها تنتمي إليه، إلى فصيلة دمه الأصلية، هكذا قرأ: العين السود تعشق اللون البني أكثر من أي لون آخر. لا يذكر أين قرأها، لكنها قرأها في مكان ما بكل تأكيد.

ثمة رابط بينهما، فبحسب ما قرأه كذلك، فإن أصحاب العيون السود والبنية ينحدرون من ذات العائلة الكبيرة للبشر. لا ريب أنه ومروة ينحدران في الأساس من ذات المكان، والاحتمال الأكبر أنهما ينحدران من الجبل الأخضر. مروة أصولها من الجبل إذاً، ولذلك هي تعود إليه الآن.

قال:

- بالعكس، المقصود أنك تزورين المناطق الجيولوجية من الأحدث إلى الأقدم. ليس جبل قهوان هو الأقدم في عُمان كما يعتقد الكثيرون، هنا الأقدم بكل تأكيد.

تهز رأسها:

- قد تكون على حق. لكن كيف نستطيع الدخول إلى الكهف المقفل؟

- هناك مدخل آخر اكتشفته بنفسي وينبغي الدخول إليه من الجهة الأخرى للجبل، لكن الطريق إلى ذلك المدخل وعرة جدا ومخيفة، سنذهب إليها بعد أن نتناول وجبة الغداء إن كنت لا تمانعين.

- أنا أعشق المغامرات يا بروفيسور، لا تهتم.

***

- من الصعب التسليم بصحة ما تقوله يا بروفيسور.

تبادره وهما يتناولان وجبة الغداء في فندق (أليلا) الجديد القابع على مسافة نصف ساعة في مرتفعات الروز على الجانب الشمالي الشرقي من قرية سيق. قطعا المسافة من حديقة المرجان حتى الفندق دون أن تبدر منها كلمة، في حين تركها سابحة وسط تلاطم أمواج الأفكار في ذهنها. سوف يكون لديها متسع طويل من الوقت للحديث وهما يتناولان وجبة الغداء.

لم يشأ أن يدعوها إلى الغداء في فندق (أنانتارا) الضخم الواقع في قرية سيق خشية أن يصادفه أحدٌ من معارفه.

- ما هو الصعب في الأمر آنسة مروة؟

- أن تكون هذه الصخور كما تقول أقدم الصخور على سطح الأرض.

- قد لا تكون كذلك، ليس ذلك ما يهمني، أنا أجزم أنها أقدم الصخور التي مشى عليها الإنسان، وأجزم أن آدم نزل على هذه الصخور، ليس إلا.

تبتسم قليلا. تصمت طويلا وهي تفكر. كانت قد بدأت في تناول شربة الدجاج بالفطر، شفتاها وعيناها تتحركان كمن يبحث عن كلام يقال، لكنها فجأة ولسبب ما قررت تغيير دفة الحديث. اعتقد في البداية أنها تقوم بذلك لأجل التهرب من الخوض في أمر يبدو بأنها ستكون الخاسر فيه لا محالة. تركها تمخر بشراعها عباب المحيط الذي تعشقه ريثما يعاود الكرّة لاحقاً من جديد.

قالت وقد رسمت ابتسامة مختلفة على وجهها، ابتسامة شبه جادة:

- بروفيسور، لنترك أمر الصخور الآن، تعبت من الحديث عنها منذ أن وصلت نزوى. دعنا نغيّر الحديث. هل يمكن أن نتكلم في أمر آخر؟

تستأذنه فيومئ لها بالموافقة. تُكمل:

- أريد أن أسالك هل تعيش حياتك كما تشاؤها؟ أم تعيشها كما يريد الآخرون أن تعيشها؟

داهمه السؤال على حين غِرّة، فلم يحسب لمثله حساباً وهما في وضعهما ذاك وقد خرجا للتو من وسط مشاهد مذهلة تأسر الألباب توقعها كفيلة بأن تجعل طالبته مشمولة بتلك المناظر لأيام قادمة وربما لأشهر.

- عذراً..

تقطع عليه حبل تساؤلاته.

- دعني أعيد السؤال بطريقة جديدة.

تقول له وتُكمل:

- هل أنت تعيش الحياة التي تريدها وتُحبها وتستمتع بها، أم أنك تعيش الحياة التي يفرضها عليك المنطق والبيئة المحيطة والأعراف والتقاليد وما إلى ذلك واقتنعت بها؟

ما الذي تريد أن تصل إليه بسؤالها ذاك؟ ولماذا ذلك السؤال الآن وهما في وسط أمرٍ علمي هام؟

- أعتقد أني أعيشها كما أريد.

يجيبها وعلامات الدهشة لا تزال واضحة على وجهه. لم يشأ أن يسألها عن السبب من وراء سؤالها. كان همه أن يعود بها سريعاً إلى موضوعه الرئيسي.

- يعني هل تستطيع أن تقوم بكل ما تريده في حياتك؟ بمعنى هل تمارس كافة الأمور التي تحبها؟ التي تستهويك؟

- أعتقد ذلك.

يجيبها.

تدخل بعدها في صمتها ثانية.

لا ريب أنها تحاول الوصول إلى أمرٍ ما من خلال تلك الأسئلة. يهزُّ لها رأسه مشجعاً إياها في الاستمرار بما بدأته. كانت تتأمل قائمة المشروبات في كتيب المطعم الذي أمامها.

- ما الذي يعنيه سؤالك مروة؟

تبتسم وعلامات التردد من قول ما تريده تملأ وجهها.

- هل تزعل لو قام أحد بما يُحب حتى وإن خالف ذلك اعتقاداتك؟

يأخذه الاستغراب أكثر. «ماذا تريد أن تقول» «ما الذي في جعبتها؟» حيّرته حينها، لكنه كان كذلك متلهفاً أكثر لمعرفة ما يخبئه نهاية ذلك الحوار. لم يرها بمثل تلك الحالة من قبل.

- لا طبعاً، لماذا أزعل إذا لا يضرني شيء في الأمر.

تصمت مرة أخرى، يزداد احمرار وجهها. تتحرك شفتاها تردداً. حالتها بالفعل جديدة عليه. لا يملك سوى الانتظار، لا يملك أن يدخل إلى عقلها فيعرف ما يعتريه من أفكار ولو أنه تمنى ذلك بشدة.

ترتسم على شفتيها ابتسامات لا يسهل تفسيرها. تتنوع وتختلف كل ثانية. ابتسامات تحوي إشارات مختلفة ومتداخلة بين رغبة البوح والتعبير عمّا يهيج بداخلها وبين ما هو أبعد من ذلك.

هل لأنها وجدت من تمنت أن تكون رفيقته إلى دبي وقد أصبح معها، ووحدهما؛ وبالتالي تريد منه أن يتفطن بسرعة إلى أن فرصة مواتية مثل التي هما فيها الآن لن تتكرر، وأن عليه اقتناصها بلا تردد؟

يغلي الدم في عروقه. يحسُّ بوجهه وقد احمر هو الآخر. احمر رغبة. يدقّ قلبه وترقص الدماء في عروقه. عمقه يرغب فيها بقوة الآن، عقله متردد.

يتوه للمرة الألف، للمرة المليون. ما الذي عليه أن يقوم به الآن؟ هل يمدُّ كفّه ويمسك بكفّها؟ هل يرسل لها «أحبك مروة» وينهي الألم الواصل إلى الكبد؟

يا لتلك اللحظة المؤلمة في تفاصيلها. كيف لا يمكنه بعد كل هذا العلم والتبحر في خبايا النفس البشرية أن يقرر ما يصلح لنفسه المشتعلة؟ كيف يعجز عن عبور ذلك الخط الرهيف بين لوعة الانتظار وحلاوة الإقدام؟ وهو الذي كان مضرب الأمثال بشجاعته وجرأته مع النساء. كيف فقد تلك المهارة؟ «في هذه اللحظة بالذات يا مروة أنا لا أعيش الحياة التي أريدها. أنت حذقة في سؤالك، فلا ريب أنك لاحظت بوضوح التغيّرات التي طرأت على وجهي، لا بد وأنك فهمتِ مغزى نظراتي الطافحة بالرغبة نحوك. في هذه اللحظة يا مروة أريد أن أحتويك وأشملك بذراعي». كان الأحرى به أن يهمس لها بمثل تلك الجملة إجابة على سؤالها الملتوي ذاك، سؤالها «الخطير».

- ربما ليس الآن هو الوقت المناسب لطرح ما أريد قوله.

تقطع عليه حبل أفكاره من جديد. لكنها حسناً فعلت. يقول في نفسه. لقد غاص في تفكيره إلى أعماق قصية، أكثر من اللازم.

ولكن لماذا الوقت ليس مناسباً؟ ما الذي يجعله غير مناسب؟

أجال بنظره على ما يحيط بهما من طاولات توزعت بانتظام على المكان. ليس بالمطعم من يعرفه، بل لم يكن من بين الوجوه القليلة الموجودة والجالسة على مسافات بعيدة عن طاولتهما من يوحي بأنه عُماني أو حتى عربي. لقد مهدّ الله لهما الجو تماماً لكي يُخرِجا ما بصدر الواحد منهما تجاه الآخر، لأن يقطعا ذلك الخيط ويمضيا نحو أماكن أكثر راحة لقلبيهما ورُوحيهما. لكنه يجد نفسه مكبلا بالكثير من القيود والخوف الذي يجزم بأنه سيفتك به في النهاية، ويجزم بأنها هي الأخرى مكبلة بمثل تلك القيود.

لكن الدم المتدفق في شراييه لم يشأ أن يهدأ حينها، فبقي مسيطراً على دماغه. ماذا لو حجز غرفة الآن ودخل معها في لحظات المتعة المجنونة وانتهى؟ هل كان سيختفي بعدها عنه كل تلك الماجما الملتهبة التي تسري في أودية عروقه وتتخلل شعاب قلبه؟ ولكن، هل هذا ما تخطط له ليصبح بعدها ألعوبة في يديها تحركه كما يشاء. قد تبتزه بشكل أكبر من ذلك لو أنها في حقيقة الأمر جاءت لتحقيق ما هو أكبر؟!

لا، لا يمكن لفتاة في ذكائها أن يكون لديها مثل تلك الطرق «الحقيرة». يستحيل. لن تمنحه جسدها الملائكي فقط من أجل ابتزازه. ولماذا تبتزه؟ من يكون هو في النهاية حتى تغامر وهي الباذخة في كل شيء، في جمالها وذكائها ورائحتها؟! هل صدّق نفسه، واعتقد أن مثلها تراوده عن نفسها لأجل ذكائه و«عبقريته»؟

يعصر فكره المتشتت علّه يخرجه من جحيم اللحظات تلك. قال، وكأنه يحثها على البوح بما في صدرها، ونظراته هذه المرة مركزة في عينيها:

- أنت فتاة ذكية جداً يا مروة ولك قلب جميل مثل وجهك، وهذا يكفيك لأن يتقبّل أي شخص طلبك مهما كان.

لكنه لم يستطع إخراجها من صمتها. وجهها يزداد احمراراً. لا بد وأن ما تريد البوح به على درجة

عالية من الحساسية وربما «الخصوصية».

- لا تقلقي، أعدك أن يبقى الأمر بيننا سرًّا مهما كان.

تبتسم. تشجعت. كأن لكلماته تلك مفعول السحر عليها. يبتسم لها بالمقابل. تبادره سريعاً وهي تغمِض عينيها وتُنزل رأسها خجلاً:

- هل يمكنني أن أطلب كأس نبيذ؟

يُشظّيه طلبها.

في تلك اللحظة الصغيرة من الزمن شعر بأنه يتناثر قطعا صغيرة في الهواء. لا لم يتوقع مثل ذلك الطلب منها. هل قالت ذلك؟! هل هي من قال ذلك؟! هل هي من طلب منه ذلك؟! كيف تجرؤ؟! أين تعتقد هي أنها موجودة الآن؟ على أي بقعة أرض هي تتصور أنها تجلس؟ ليست هذه نيويورك. ليست حتى مسقط. هي الآن في موقع لو رجع بهما الوقت لعقدين من الزمن، لمجرد عقدين فقط، لا أكثر، لكانت ربما قُتلت وسُلخ جِلدها أمام مرأى من البشر بسبب ما قالته. بل لزُهقت روحه في الحال لو أن من طلب ذلك كان رجلاً وليس امرأة!!

«امرأة عربية ويفترض من اسمها أن تكون مسلمة تطلب تطلب كأس نبيذ؟! وأين؟! في الجبل الأخضر؟!» يا لها من جملة لا أقوى منها لجذب الانتباه، ستُخرج حتى الأموات من قبورهم مرتعبين مما سمعوه. «فتاة مسلمة تحتسي خمراً في الجبل الأخضر» عنوان يصلح لرواية أو لقصيدة شعر صادمة.

ما سمعه للتو أمرٌ لا يصدّقه عقل. لا يمكن له أن يكون حقيقياً خصوصاً وأن من نطق به هي مروة لا غيرها.

مكث في صدمته وحيرته تلك طويلا. لا يعرف ما ينبغي قوله.

كانت لا تزال منكِّسة رأسها، وكأنها قررت ألا ترفعه قبل أن تسمع رده. سمعها تهمس بصوت بالكاد يُسمع «أنا آسفة جداً على ذلك»، «يمكنك أن تنسى ما سمعته يا بروفيسور».

يعود من جديد إلى داخل عقله، وإلى تلك التساؤلات التي لا تنتهي والتي كان بيده الحصول على إجابات لها منذ اللحظة الأولى لصعودهم الجبل.

ما الذي تريد أن تصل إليه؟ أو الأحرى؛ ماذا تريد أن توصل إليه من معلومة؟ وتذكّر الآن فقط أنه لم يرها تصلي، ثم تذكر أنها عاشت سنوات في أمريكا وطلبها ذاك يعد أمراً اعتيادياً ليس إلا، أم نسي سنوات حياته في بريطانيا هو الآخر؟

هي لا تصلي، فما العجب إذن إن رغبت في الشراب؟ هي لا تهتم كثيرا بما يهتم به الآخرون في طريقة لبسهم «المحتشم». لا تأبه بتغطية شعر رأسها وساقيها حتى لو وقفت مع رجل دين. لا يهمها أن تختلط بالرجال أو تخرج معهم وحدها دون «محرم». فتاة متحررة تماماً.

يعود ليتعمق أكثر في الهدف من وراء طلبها ذاك، فالكثير من البشر يؤمنون بأن للكأس مفعول السحر، يجعل الواحد أكثر انعتاقاً وحرية في البوح بما في صدره. مع الشراب يتحرر المرء من تردده ويبوح بالمكنون. ربما لهذا السبب كانت ترغب في احتساء كأس النبيذ. عليه أن يبتسم لها وأن يوافق بكل رضى وسرور. إنها في كل الأحوال لا تزال تثبت له حتى بطلبها الغريب ذلك أنها مختلفة عن كل من قابلهن في حياته، وأن لها جانباً آخر في الحياة قد يكون أجمل بكثير مما توقعه.

تذكّر حينها أنه قرأ ذات مرة أن النبيذ كان يصنع في عُمان قديماً، بل كان يصنع في الجبل الأخضر تحديداً، في المكان الذي يجلسون عليه الآن! وكان يضربُ به المثل لشدّة لذته.

- لم لا.

وكأن كلماته تلك هطلت كالبلسم على جروحها. انتشلتها من حرجها الشديد، فانتفضت رافعة رأسها الذي ظلّ منكساً لأكثر من نصف دقيقة، ليكشف عن وجه ينقع من الدم، لكنها لم تستطع وسط حرجها وخجلها ذاك التفوه بأكثر من كلمة «شكراً».

سيبدو الأمر محرجاً له بشدة لو رآهما أحد وكأس النبيذ على الطاولة، لكنه لن يهتم الآن، لقد سلّم بما يجري، بل خالجه شعورٌ بالفرح في صدره وهو يراها تفتح له قلبها وتطلعهُ على سرٍ هام من أسرار حياتها، ربما الأهم. لكنها كذلك أعادته بطلبها ذاك إلى ذكريات سنوات دراسته للماجستير والدكتوراه في بريطانيا. شرابها ذاك كان شرابه المفضّل قبل أن يعود أدراجه إلى عُمان ويتوقف عن الشرب. لم يتوّقف بناءً على قرار منه، بل لأنه لم يعثر في عُمان على مكان مغلق مظلم يستطيع فيه ممارسة متعته تلك دون أن يراه أحد. توقف مجبراً. حين سافر في شهر العسل مع سميرة إلى مدينة بوكت التايلندية، كان يتسرّب في أحيان قليلة منها ليكرع كأساً أو اثنين من النبيذ ويعود أدراجه إليها، لكنه توقف تماماً بعد ولادة محمد وزهراء.

لن يهتم بما تريد مروة القيام به وهي معه، سيترك لها الحرية المطلقة في أن تطلب ما تشاء. ما يهمه هو أن تصلِ به، هذه التي تلعب بدمه؛ بل تلعب داخل دمه، إلى نهاية لعبتها، أياً كانت تلك النهاية. يجب عليه عاجلاً وليس آجلاً الحصول على الإجابات التي دوّخت رأسه.

لكن الأسئلة في ذهنه لا يبدو أنها ستقف عند حدٍّ معين، وكأن ما يجري لا يحدث اعتباطاً. كأن كل حركة تقوم بها وكل كلمة تتلفظ بها مخطط لها مسبقاً، فها هي تطلب كأساً من النبيذ الأبيض ومعه «قطعتين من الثلج»!

لا، لا يمكن للأمر أن يكون محض صدفة! «نبيذ أبيض بقطعتي ثلج؟» أمر لا يصدّق.

- لماذا قطعتا الثلج؟

يسألها متفاجئاً من طلبها. لم يفكر مسبقاً في وقع سؤاله عليها، أو في الكيفية التي ستفسر بها سؤاله.

- حتى يخفف حدّة المذاق والتأثير.

أكثر من عقدين من الزمن منذ وداعه لأصحابه في بريطانيا، انقطع خلالها عن التواصل معهم تماماً، وما كان من بين أولئك من درس الأنثروبولوجيا واستمر في التواصل معه. في لحظة سريعة، كرّ المسافات والوجوه باحثاً عن وجه تمكّنت مروة من الوصول إليه لتسأله عمّا كان يشرب صاحبه العُماني النزواني. لكنه لم يجد من بين من احتسى معهم كأساً في السابق من يمكن أن تصل إليه مروة.

لم يخبرها عن أمره أحد؛ ذلك من عاشر المستحيلات. الأمر ليس أكثر من «ضربة حظ». مصادفة بحتة، بكل تأكيد. إما ذاك أو أن المعلومة التي ظلّ يجهلها طوال كل تلك السنين هو أن السواد الأعظم من النساء إنما يحتسين النبيذ الأبيض مع قطع الثلج. «لا، ليس ذلك صحيحاً» يقولها لنفسه وهو يتذكر أنه لم يرَ فتاة بريطانية واحدة تحتسي نبيذاً أبيض مع الثلج!! «لا يحتسي النبيذ بتلك الطريقة سوى باذخات الجمال من النساء».

انتهت سريعاً من كأسها الأول، وكان الإحراج لا يزال مسيطراً عليها. استأذنتهُ أن تطلب كأساً آخر. «اسمح لي أن أدفع أنا للشراب يا بروفيسور».

عليه أن ينقذها مما تشعر به. قال مبتسماً:

- آنسة مروة، الأمر بالنسبة لي طبيعي جداً وعادي، فلا تتحرجي أرجوك حتى لو طلبتِ زجاجة، أنا رجل أؤمن بالحريات الشخصية، مثلما تؤمنين أنت بها. الإنسان منا حر في تصرفاته، ثم إنك في ضيافتي اليوم وعيب عندنا أن تدفع الفتاة وهي في ضيافة رجل.

قرر أن يمنحها دفعة أكبر من التشجيع. قال:

- على فكرة أنا كنت أشرب وأنا في عمرك، فلا تهتمي.
لمح حينها علامات الارتياح في وجهها، بعدها انطلقت في حديثها كما توقع:
- ولكن اسمح لي برفيسور على طلبي السخيف هذا...
هكذا بدأت حديثها. تُكمل:
- لم أتوقع أن تكون عُمان بلداً مغلقة هكذا، توقعتها منفتحة أكثر.
- ربما لأنك في نزوى، لو كنت في مسقط فإن الأمر سيكون مختلفاً.
- لا لا يتعلق الأمر بالشرب، إنما في نظرة المجتمع إلى المرأة.
يبتسم لها هازاً رأسه ومشجعا إياها على المواصلة. ليس ما تقولهُ هو الكلام الذي يريد سماعه منها، لكنه، في كل الأحوال، كان سعيدا كونها اختارته دوناً عن الآخرين لتكشف له بعضاً من أسرار حياتها.
قال:
- صحيح، بس يمكن السبب في العادات والتقاليد اللي ما زالت مترسخة في داخل عُمان.
استرسلت بعدها في حديثها. عرجت على المناطق التي يميل إليه تفكيرها. أخبرته أن الدين عندها أداة تنظيم حياة، تنظيم علاقات البشر بعضهم ببعض ليس إلا. عن حياتها التي اختارت لها أن تكون منفتحة على كل شيء، وأنها منذ نعومة أظافرها قررت ألا تعتنق أياً من العادات والتقاليد والمسلّمات التي نشأ عليها أهلها. لم تشأ أن تصدمه وقتها وتقول له بأنها لا تنتمي إلى أي من الأديان المعروفة، وأن لديها دينها الخاص بها، لكنه فهم ذلك. قالت إن الحياة في أمريكا كانت دائما بالنسبة لها حلماً جميلاً زحفت إليها «بيديها ورجليها وأسنانها». قالت «حين عرضت علي الحكومة الأمريكية الجنسية قفزت من الفرحة وكأني ولدت من جديد». قالت «لكني ما زلت أتمنى أن أرتبط بعربي متفتح مثلي مستعد أن يقضي بقية حياته معي في أمريكا».
مضى الوقت بينهما سريعا، وحين انتبه إلى معصم يده كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة، وأصبح معها من المستحيل الوصول إلى كهف آدم قبل حلول الظلام. لكنه لم يُعِرْ ذلك الأمر اهتماماً، والأصح أن أمر تلك الزيارة لم تعد بذات الأهمية بالنسبة إليه بعد تلك الجلسة الرائعة.
أكثر من ثلاث ساعات قضاها أمامها معظم الوقت مستمعاً إليها، بل منصتاً. اندمج معها في الحديث حتى ألفى نفسه يرشف من كأسه الثاني من النبيذ، بعدما ترجته مشاركتها «فسحة الروح». قالت ضاحكة «لا تتركني أسبح لوحدي، لازم تشاركني السباحة» تضحك أكثر وهي تقول باللغة الإنجليزية «To be at the same mood [15] ».
طاوعها بكل سرور. حضورها البديع أمامه تمكّن منه. علا كعبها عليه ففرضت نفسها سيدة على الجلسة. في تلك اللحظات، غاب معها وبها، فاختفت من الأرجاء كل الوجوه التي كانت تسكن الطاولات. أصبح المطعم ملكهما. كم تناولت هي من كؤوس إضافية بعد الرابع؟ لم يحسبها.
استطاعت أن تعيد إليه ذلك الشعور «القديم» الذي لم يتخيّل أنه يفتقده، بل ويفتقده بشدّة. ولولا أنه كان عليه أن يسلك بسيارته كل تلك المنحدرات والمنعرجات في طريق العودة لكان قد احتسى معها الكأس الثالث والرابع، ولربما مكّنه ذلك من أن يطلق لنفسه العنان أيضاً ليحكي لها ما يجيش بداخله نحوها، وبعدها سيكون لكل حادثة حديث.
كان ذهنها حاضراً بقوة وهي تتحدث، لكنها بأحاديثها المتنوعة التي شرّقت فيها وغرّبت؛ قلّبت عليه العديد من «المواجع». أحس في نهاية الجلسة بأنه أمامها وأمام طريقة تفكيرها؛ ضعيف، وأن هذه الفتاة التي لم تتمل حتى بعد أن فرغت من كأسها الرابع، في حين شعر هو بتلك الدوخة الجميلة وهي تجتاح رأسه بعد كأسين فقط؛ ليس لها مثيل من فتيات البشر. إنها تفوق بنات جنسها اللواتي في سنّها

في الذكاء والمعرفة بعقود من الزمن.

لم تتفوه في جلستهما تلك بشيء عنه، ولا عن علمه. كانت تتحدث عن نفسها، عن عقلها بالتحديد؛ كيف يفكر وكيف تريد لحياتها أن تكون. عليه إن أراد أن يكون معها أن يركل عنه بعيداً حياته الحالية، عليه أن يمحو من ذاكرته سنوات حياته الماضية ويبدأ رحلة عمر جديدة معها. هكذا فهم منها.

كانت أمامهُ تبدو جائعة جدا للكلام، كأنها تنتظر من يمنحها الفرصة لتفرغ ما بجعبتها من حكايات غير منتهية.

وقبل أن يفضّا جلستهما أخبرته بأنها لم تستطع الاستمرار في المكان الذي تسكن فيه. قالت تعاتبه على تقصيره في تدبير سكن بديل لها:

- طلبت منك منذ اليوم الأول أن تبعدني عن بنات البكالوريوس وتبحث لي عن سكن بجانب بيتك، لكنك أكيد قلت في خاطرك يومها يعني الله كاتب لي أشوفها وين ما أروح في هذي التسعة أشهر؟!

تضحك بصوت عال قبل أن تخبره بأنها تصرفت بطريقتها الخاصة وأنها ستنتقل لتسكن في شقة صغيرة بجانب زميلته سامية بعد شهر. تلك الشقة التي لا تبعد أكثر من ثلاثمائة متر عن بيته.

إحساس بالفرح يسيطر عليه وهو يفتح لها باب السيارة ليبدأ رحلة الهبوط من الجبل، رغم أنه لم يحصل على إجابات للأسئلة التي جهّزها، لكنه كان مبسوطاً بما منحته من أسرار حياتها وكأنها ائتمنتهُ عليها وحده. كأنه الوحيد في حياتها الذي منحته حق ذلك الامتياز.

تذكّر بعدها خلفان «المسكين» وكيف أنه بكل بساطة وسذاجة فكّر في مروة التي لا يعلم بتاتاً من تكون ولا يعرف شيئاً عن عقلها «المتنوِّر» الذي يدور في فلكٍ آخر مختلف عن الجميع. وتخيّله في مكانه في تلك الجلسة! وتساءل كيف كان بإمكانه تحمّل ما سمعه منها قبل قليل؟! مروة الكافرة بكل ما يؤمنون به، التي ليست لها علاقة بحياتهم في الأساس، ليست منهم، ليست من شريحة البشر الذين اعتادوا عليه، كيف لأي إنسانٍ عادي أن يطيق معاها صبراً؟

في تلك الجلسة وبعد أن كررت عليه ولأكثر من مرة أن مثلها لا يمكنه العيش إلا في أمريكا وليس في أي دولة أخرى مهما كان انفتاحها، سألها عمّا إذا كان لها «حبيب» أو «فارس أحلام»؟ تبتسم وهي تؤكد له بأنها حين تجده «سوف تسرقه» معها إلى نيويورك.

سألها بخبث:

- وسط كل الذين التقيتِ بهم ألم تجديه بعد؟

لتجيبه بخبث أكبر بعد أن ضحكت وهي ترمقه بتلك النظرة التي لم يستطع أن يجد لها تفسيراً محدداً:

- عليه أن يظهر لي نفسه أولاً. وسأقوم بخطفه وسرقته معي لأعرفه على أوباما وترامب.

تقهقه ثانية لتتركه بعطشه ذاك.

يُقرُّ مجدداً بأنها انتصرت عليه. سيرجع إلى بيته وقد هزمته بدل أن يهزمها. سيعود وقد ملأته فوق إعجابه المتزايد بها؛ ندماً على ما أضاعه من سِنِيّ عمره السابقة. لم تكن تلك التي أمامه طالبة ماجستير، ولم تكن جيولوجية. كانت عالمة، موسوعة. تفوقت عليه حتى في حقله العملي. كانت أنثروبولوجية أكثر منها جيولوجية، وهو الذي كان يصارع ليكتسب مزيداً من المعرفة في تخصصها، ليُفاجَأ بتفوقها عليه في تخصصه.

كيف استطاعت تجميع كل تلك المعرفة في رأسها؟ كيف أسعفها عمرها القصير في أن تحوي كل تلك الثقافة؟ هل بدأت تقرأ وهي في بطن أمها؟ لم يمر عليه أحدٌ مثلها من قبل في حياته، ولم يقابل في سنواته الماضية من أحد يملك تلك المدارك وهو لم يفسخ بعد ربع قرن من العمر!

هل ذكرت له بالاسم علماء حقله وماذا قالوا؟ تعرف «هيرودوتس» المؤرخ الإغريقي العظيم الذي

يعتبر أبا الأنثروبولوجيا والتاريخ في آن. تعرف متى بدأ تدريس الأنثروبولوجيا في الجامعات البريطانية كعلم منفرد يختلف عن علوم الاجتماع. تعرف عن قرب «إدوارد تايلور» وكتاباته الأولى في علم الإنسان. أسهبت في حديث طويل عن مدرسة دارون ولامارك التطورية التي تؤمن بشيء مما جاء فيها، ولا تتفق تماماً مع كل ما جاءت به مدرسة الانتشار الحضاري المعادية لدارون. «هل كانت تُظهر عضلاتها من خلال صف معلومات عامة قرأتها في الإنترنت؟» لا لم يكن كذلك. فالطريقة التي كان تتحدث بها وتناقش تنّم عن معرفة حقيقية وقراءة متعمقة في علم الاجتماع ككل.

قالت في محاولة منها لإضافة جو من المرح للجلسة بأن علم الجيولوجيا المنسي في مؤرخات علماء الإنسان هو في الأخير جزء من علم الأنثروبولوجيا. قالت الإنسان كان يتأثر بطبوغرافيا المكان ومدى سهولة الحياة فيه، سواء كان صخرا أو سهلا، رملا أو جبلا، فبيئة الحياة المحيطة عنصرٌ رئيسي وجزءٌ لا يتجزأ من علم الأنثروبولوجيا.

جزمت كذلك بأن الحضارة العربية رغم قِدمها لم تُقدم أي شيء يُذكر في حقل الأنثروبولوجيا، ثم توقفت قليلا لتردف وهي تنظر إليه بعينين مبتسمتين:

- طبعاً إلى أن جاء البروفيسور المشهور سالم الكندي، فبدأ يتحدث في أمور جديدة تماماً في هذا العلم.

تحدثت عن تطور ذلك العلم بدءاً بالإغريق والرومان وانتهاءً بالحضارة الأوربية، عن عصور التنوير في أوروبا. ولم تنس كذلك أن تشتكي له من شحّ المراجع الورقية في جامعته، وافتقادها مكتبة جامعتها في نيويورك والتي تملك بين رفوفها أمهات الكتب، وكل ما يصدر من مؤلفات في العلم أولاً بأول.

أخبرته بأنه لولا أنها تسعة أشهر لا غير هو كل ما سيضيع من عمرها في نزوى لكانت قد عادت أدراجها سريعاً من حيث أتت.

هل سمعها تقول وهي توّدعه، أنها تمنت لو أنها قضت الليلة في الجبل وباتت في ذلك الفندق الساحر، أم أن ذلك كان من صنع خياله الذي تأثر بفعل النبيذ؟

في كل الأحوال، تمنى لو أنها قالت ذلك، مثلما تمنى عليها ألا تبرح السيارة قبل أن تهديه قبلة.

. حتى نكون بمستوى مزاج واحد (ترجمة الكاتب)

لقد وقع في الفخ. «وقعت يا سالم في الفخ». هل أكل الطعم؟ «لقد تناولت الطعم يا بروفيسور بمحض إرادتك».

هل ساءت حالته بعد رحلة الجبل؟ بالتأكيد ساءت.

عليه أن يهرب مما وقع فيه وبأسرع وقت ممكن. لم يعد هناك مجالٌ لأن تبقى أمامه دون أن يُقدم على أمرٍ أقل ما يوصف بالجنون. في المرة القادمة لو أتاح لنفسه فرصة لأن تكون معه بمفردها لهجم عليها بنَهم مهما كانت النتائج.

عليه أن ينفذ بجلده ويهرب بسرعة، فالأمور بداخله تتطور وتنمو وتزداد تعقيداً بشكل يعجزُ عن التحكم بها. فلم يمضِ على عودتهما من رحلة الجبل سوى أسبوعين حتى لاحظ الجميع بمن فيهم هو نفسه، ذلك التغيّر الكبير الذي طرأ في طريقة معاملته لها. يُقرُّ في نفسه بضعفه تجاهها وبفشله في التحكم في عواطفه نحوها قدّام الآخرين، لقد أصبح كتاباً مفتوحاً، ومفضوحاً.

- بروفيسور، خلي بالك من مروة، أعتقد أن غايتها أكثر من مجرد رسالة ماجستير تشرف عليها أنت.

يهمسُ له خلفان ومروة تدلف القاعة الصغيرة القريبة من مكتبه.

كانا يجلسان بجانب بعضهما في انتظار أن تقوم إحدى الطالبات بتقديم عرض مرئي أمامهم عن رسالة الماجستير التي انتهت منها مؤخراً قبل أن تقف أمام الممتحن الخارجي بعد ذلك.

- هذي سرّها دفين وبحرها عميق.

يردف بصوت خافت ومروة تتقدم نحوهما.

لم يستسلم خلفان حتى بعد شعوره باليأس من استمالتها نحوه، وحتى بعد أن اشتعلت القاعات والممرات بالحديث عنها وسالم، وكان قد استمر في محاولاته المستميتة منذ تلك الحادثة مستخدماً طرقاً جديدة، لكنها جميعها لم تفلح في تليين قلبها تجاهه، إلى أن اكتشف أن فتاة أحلامه الجديدة لديها همٌّ شبيه بهمه، وأنها هي الأخرى تسعى إلى جذب انتباه أحدهم وإيقاعه في شباكها، وأن رئيسه في العمل بات كما يبدو على بعد خطوات معدودات من الوقوع في تلك الشباك، إن لم يكن قد وقع فيها فعلاً.

لاحظ، وآخرون من موظفي الكلية، بل حتى بعض الطلبة والطالبات، كثرة ترددها على مكتب المشرف على رسالتها، وبقاءها معه بالداخل لأوقات تمتد أحياناً أكثر من ساعة وهو الأمر الذي لم يلاحظ قبل صعودهما الجبل.

اعتقد خلفان في البداية بأن الطالبة الأمريكية إنما معجبة بأستاذها، وهو أمر معتاد ويتكرر كثيراً مع من هنّ في مثل وضعها. عشرات من الطالبات يعجبن بأساتذتهنّ أثناء سنوات الدراسة، إلا أن تلك المشاعر سرعان ما تزول مع الوقت، خصوصاً حين لا تجد الطالبة من أستاذها ما يجعلها تتشجع وتخطو خطوات إضافية.

كان واثقاً في البداية من أن البروفيسور المعروف واعٍ للمشهد الذي أمامه ويفهم ما تسعى تلميذته الحسناء إلى الوصول إليه، وأنه لا محالة سيصرفها عنه موضحاً لها حدودها التي يجب ألا تتعدّاها كما فعلها في السابق أسفل جبل قهوان؛ ليكتشف لاحقاً بأن الأمور قد تطوّرت أكثر مما توقع، وأن البروفيسور نفسه، صاحب الخمسين عاماً، قد وقع في المصيدة.

بعد ذاك، وقد ساهم خلفان مع آخرين في نشر الخبر؛ لم يسلم البروفيسور الوقور، الرصين في حركاته والحريص في تعامله مع الطالبات بالذات، والذي يحترمه ويوقره الجميع، صغيرهم وكبيرهم؛ من القيل والقال. أصبح على لسان الجميع مضغة.

«الحبيب غارق لشوشته»
«هذي الأردنية ما سهلة، خبيثة وعرفت له»
«بس لأنه بروفيسور تفكّر إنه عنده أموال الدنيا»
«لا، هي يهمها عقله، الأمريكان شاطرين في سرقة العقول»، يقولها سلطان.
«أمريكية لكن عقلها ظل عربياً لم يتغيّر، وإلا ماذا تريد بواحد في سنّ أبيها»
«لكنها قطعه من الجنة، حتى أنا بترك أولادي وبعيش معها»
«مجنونة تفكر في شايب، ما بينفعها كثير، كله كم سنة وبيتعطل عن العمل معها بالليل».
أما الحكايات التي نُسجت عنهما وهما وحدهما في الجبل فحدث ولا حرج.
يشعر بما يقال عنه وما يدور من حوله، لكنه قرر تجاهل الأمر. لا ينبغي عليه الالتفات إلى مثل تلك الصغائر من الأمور، فمثل تلك الإشاعات يسهل اندلاعها من العدم خصوصاً حين تملك الطالبة جمالاً كجمال مروة. حدث معه ذلك في السابق مع عدد من طالباته. تلك الإشاعات لا تلبث أن تختفي مثلما تظهر. تتخرج الطالبة وتنصرف لشؤون حياتها فتتبخر الحكايات وقصص الغرام و«يتوقف عبدالحليم حافظ عن الغناء أسفل شبّاك شادية». كُتب له في العديد من المرات وهو في جامعة السلطان، خصوصاً في العشر سنوات الأولى بعد تخرجه، أن يُصبح على لسان طلبته، بين عشية وضُحاها، «قيس بن الملوّح»، ثم لا يلبث أن يعود كما كان «الدكتور سالم الكندي» بعدها بفترة قصيرة.
«عاشق وولهان يا دكتور»
«فدع عنكَ «سلوى» العامريةِ إنني أغارُ عليها من فم المتكلمِ»
«إبعد عن منال وإلا ما يصير لك طيب»
«إذا ما وقفت شغل المراهقين مع نشوى فالأمر بيوصل لزوجتك، وقد أعذر من أنذر»
«عيب عليك وأنت دكتور معروف تعاكس طالباتك»
وغيرها من الجمل التي كتُبت له ووجدها محشورةً أسفل باب مكتبه.
أحدهم ترك له على مقبض الباب كتاب «الرجل الحيوان» الذي خلت صفحاته من ذكر ذلك الرجل الحيوان!! وقد بدا له أن من عنّى بنفسه واشتراه ووضعه على المقبض لم يكلف نفسه حتى «مشقة» قراءة ذلك الكتاب، بل اكتفى بالعنوان على ما يبدو.
- لا تخف خلفان، أنا أعرف ما أقوم به وقلقك ليس في محله، مروة مثل ابنتي لا أكثر.
يجيبه ومروة للتو تجلس على يمينه.
وهو وإن تمنى صدق ما سمعه من رئيسه لكن النظرة التي أرسلها رئيسه إلى مروة وهي تخطو باتجاههما كانت تدلّ على أن هناك «انجذاباً عاطفياً» نحوها. علاوة على أنه لاحظ كذلك تبدّل أحوال مروة، فصارت بشكل لم يعهدوه منها من قبل، قليلة الجلوس مع زملائها، كما اتضح لهم بأنها لم تنتقل لتسكن بجانب سامية، التي هي في سن أمها، إلا لكي تصبح على بعد خطوات من مسكن «حبيبها العجوز».
واثق خلفان، وهو يراقب تلك النظرات، بأن رئيسه واقع لا محالة في غرامها. تلك النظرات التي خبرها جيداً وقد سبقه هو إليها من قبل؛ غير تلك المجردة والخالية من المشاعر التي كان ينظر بها الشخص نفسه إلى لفتاة نفسها حين كانت تتحرك أمامه في حديقة الصخور ووسط الأنهار الجليدية وأسفل صخور قهوان. النظرات الجديدة المفضوحة أمامه ملأى بالعاطفة والعشق.
لم يعوّل سالم كثيراً على ما قاله لخلفان في طرد شكوك زميله حول علاقته بمروة، فلقد بات مكشوفاً لدى القريبين منه ومن يتردد على مكتبه بين الحين والآخر. لن يتعنت وينكر خصوصاً بعد أن نبهه

صديقه وعميد الكلية منصور بطريقة غير مباشرة إلى ما يقال عنه في الممرات وداخل قاعات المحاضرات.

- بروفيسور، أنت أهم اسم لدينا في الجامعة، وربما في عُمان كلها، أنت الآن لم تعد ملكاً لنفسك، ولذلك يجب أن تحافظ على ما حققته وأن تستمر في تحقيق المزيد.

يقولها والإحراج واضح عليه بعدما أُجبر على مفاتحة صديقه وزميله القديم.

للوهلة الأولى فاجأه ما سمعه، لكنه كان قد توقع ذلك.

- لم أفهم قصدك دكتور منصور.

ينطق بها راسماً علامات الاستغراب على وجهه، متمنياً أن يكون لدى رئيسه وصديقه أمرٌ آخر غير ما خطر على باله.

- أنا لا أقصد سوى أنك اسم كبير له وزنه، وله معجبوه ومتابعوه، والبعض منهم يتخذك قدوة في حياته فيقلدك، لذا، يجب أن تضع ذلك في اعتبارك في كل خطواتك.

يقف عاجزاً عن قول شيء. هل يطلب منه أن يكون أكثر وضوحاً معه؟ أن يكون صريحاً بغضّ النظر عمّا ستخلفه تلك الصراحة عليه؟

ينقذه منصور بعدما أحسّ بما يخامر صاحبه من أفكار:

- أعرف أنك فهمتني، وأنا متأكد كذلك أنك أكبر بكثير مما يقال. أنا مثلك، محرجٌ من الاستمرار في مثل هذا الحديث. أنت أعقل مني بمراحل، ولديك حياة جميلة ومستقرة، لذلك ما طرحته عليك لا يتعدى كلام أخ لأخيه، وأرجو أن تنساه وأنت تغادر المكتب.

لم يشَأ بعدها أن يطيل الجلوس، فاستأذن بالانصراف من دون أن ينبس بغير كلمة «شكراً».

لقد فهم الرسالة ولم يكن يجدي معه النكران والدوران حول أمرٍ سيخرج منه خاسراً في كل الأحوال إذا ما حاول الاستهبال.

تساءل ما إذا كانت قصص «الخيال» التي حكوها عنه وهي بصحبته في الجبل قد وصلت إلى صديقه وهل صدقها؟ وتخيّل أن أحدهم قد رآهما بالفعل وهما بالجبل، وقد أبا إلا أن يتحدث بمّا رآه أمام زملائه الذين أوصلوا الخبر إلى صديقه!

أمر تعلّقه بتلميذته انكشف بشكل لم يدع له من مجالٍ سوى الهرب. سيهرب ليس بسبب ما يقال من حوله، فحسب، ولكن بسبب الجحيم الذي يرضخ تحت وطأته بسببها. فبقاؤه قريبا منها لن يزيده سوى شقاءٍ في شقاءٍ. سيزداد مع الأيام تعلقاً بها.

ليس لديه من خيار آخر. فمثلها لا يملك المرء إلا أن يسلّمها كل جوانحه ويهيم بها عشقاً حدّ الجنون. ومثلها، تشبه ليلة القدر التي لا تزور المرء إلا مرة في الحياة، وليس عدا الأحمق، والأحمق فعلاً، من يتركها تفلت من بين يديه وهو يقف متفرجاً. فالله في العادة لا يخلق مثل مروة بكثرة، ربما واحدة في البليون نسمة. الله هو من أرسلها إليه بكل تأكيد. ربما ليمتحنه، ولكن الأصوب لكي يُسعدهُ فيما تبقى له من حياة، فلا ينتقي الربّ سوى المختارين من البشر ليوصلهم إلى حيث ينام أهم أبنائه في الأرض، ولا يمكن للربّ أن يعذبّ من انتقاه. إنها معه لإسعاده، والمغفل هو من يغضّ النظر عن ذلك ولا يقبل بهدية ربّه. قرر أن يكون ذلك الأحمق وذلك المغفل وذلك المعتوه.

حين عاد إلى مكتبه وقد طلب من منسقته عدم السماح لأحد بالدخول عليه، اتصل بصاحبه الدكتور مساعد في السعودية. قضى أكثر من ساعة من الزمان في الحديث معه. حكى له ما يمرُّ به من متاهات وتشظّيات. حكى له عنها، وصفها له بدقة متناهية. ترجاه بكل ما يملك من حيلة وعلم أن يُخلِّصه وبسرعة مما وقع فيه.

- ما لك إلا تتزوجها وتفك روحك.
ينصحه مساعد وهو يضحك من غرابة ما يسمعه.
لكنه يرفض ذلك الحلّ.
- ما أقدر أسويها وأنا اللي قطعت عهد على نفسي وأمام أم محمد وأهلها.
- لن تنتهي حياة كل من ذكرت على زواجك من ثانية.
نصحه حين وجده مشتتاً بشدة بأحد الأمرّين؛ إما أن يطلب منها الرحيل والعودة من حيث أتت منذ الصباح الباكر، أو أن يرحل هو في الحال ويبتعد عنها وعن محيطها إلى أقصى نقطة ممكنة.
في صبيحة اليوم التالي اتصل بمكتبه ليخبرهم بأنه مريض وأنه قد يغيب بضعة أيام.
كان عليه وبسرعة تقرير خطوته القادمة.

كانت أمامه وقد بدا على وجهها القلق الشديد من حالته التي يستحيل عليها فهمها. زوجها لم يعد زوجها الذي تعرفه. أصبح كثير الشرود، كثير الصمت، وأحياناً تنتابه لحظات غضب عارمة، يشتعل في وجهها ووجه أولاده على أتفه الأسباب. ليس هو كسابق عهده في تقبّله للنقاش وفي الأخذ والعطاء في الحديث. أصبحت نفسه ضائقة، وصار كثير التأفف والضجر، ولم يعد كالمعتاد يهتمُّ بسؤال ابنيه عن دراستهما وواجباتهما ودرجاتهما. تغيّر عليهم كثيراً وهو الذي ما كان كذلك حتى عهدٍ ليس ببعيد. بالتأكيد كان أفضل خلال رحلتهما إلى دبي والتي لم يمضِ عليها الكثير.

الآن يعود إلى بيته متعباً مرهقاً يشكو في العادة من يوم طويل ثقيل عليه، كمن يعاني من أمر ما لا يودّ أن يكشفه لأحد، بمن فيهم هي التي لم تأنس منه ذلك من قبل. تشعرُ وكأنه يقبع، لسبب أو لآخر، في جحيم يغلي دون أن يقوى على التحرر منه، كما يرفض أن يمد له أحدهم يد العون والمساعدة.

في ليلة عودته من الجبل جنّ جنونه عليها؛ فحرث جسدها بكل ذلك العنف الذي لم تألفه حتى في ذروة هياجه الجنسي خلال أيام خطبتهما. أشعل ذلك الموقف في رأسها الكثير من الأسئلة وعلامات الاستفهام؛ ماذا يحدث له؟ وما الذي يمر به بالضبط؟ لقد كانت معه في دبي ولم يعاشرها بمثل ذلك العنف؟ ما الذي حصل بين رحلة دبي ورحلة الجبل؟ لماذا تحسُّ بأن ثمة غضباً يغلي في دم زوجها لم تتبين أسبابه وهو في المقابل لا يريد أن يشاركها همّه، أو يبوح لها بما يضطرب في جوفه. حين تسأله عن أسباب حالته الغامضة تلك؛ يركن للصمت، أو يهرب منها إلى فراشه للنوم متعللاً كالعادة بالتعب والإرهاق.

هو وحده يعلم ما يجول بخاطره وما يعتريه من تيه وتشظٍّ. رحلة الجبل التي خطط لأن تكون القاصمة في مشروعه «العظيم» الذي سيقلب العالم رأساً على عقب، قصمته وقلبت رأسه هو رأساً على عقب. «على نفسها جنت براقش» يقول ويبتسم ساخراً على حاله الذي لا يسرُّ عدواً ولا صديقاً.

ليته لم يخطط لما خطط، وليته فعل ما طلبت منه منذ البداية بأن يكون الجبل أول رحلاتهما الحقلية وليس آخرها، أو ليته اصطحب معه شخصاً ثالثاً يومها بدل أن يَلقى نفسه في مواجهتها وحده ويصبح فريسة سهلة لها، لقمة سائغة في فمها.

وحيداً كان معها، مجرداً من قواه. نهشت منه كيفما شاءت، طبخته على نارها الهادئة، جعلته يستوي بهدوء وهو راضٍ تمام الرضى بما كانت تقوم به. سلّم لها الراية مذعناً في انتظار ما سيتبقى منه. لم يتبقَ منه شيء، فقد سلبته جميعه.

كان أخرق، أذعن طوعاً للمباغتة، لقساوة رياحها العاصفة، لزمجرة أمواجها العاتية التي علت فوق قاربه فأغرقته. كان ساذجا، لم يتخيّل عظمة جبروتها وطغيان بطشها.

ذلك جحيم وحده كافٍ لإهلاكه، غير أن ما يرزح تحت وطأته من عذاب ليس نتيجة ما خلّفته تلك الرحلة في داخله من انجراف هائل إلى تلميذته الصغيرة كما تنجرف الصخور الصلدة ساعة الزلازل وتنسحق تحت الطبقات الأدنى؛ بل فيما عزم على القيام به كمحاولة أخيرة، تبدو ضعيفة هزيلة، تبدو يائسة منذ البداية، للفرار من قيدها.

سيهربُ بكل ما تبقى له من عزيمة. سيصارع بما تبقى لديه من ضعف طوفانَ المشاعر التي وجد نفسه مكبلاً بها. ليس لديه خيار سوى ما نصحه به صاحبه مساعد وقبله «أليكس ستيفنسون» و«ميشائيل شيلبيرغ» وآخرون. قالوا له اهرب من كل ما يمكن أن يُذكّرك بها حتى ينتحر العشق في دمك، فليس لديك من مجال للفكاك من أسرها سوى الرحيل عنها. سينجو بجلده وسيفرُّ من بين أنيابها القاطعة كما تفر الأرانب ساعة المطاردة، سيهرب منها بسرعة النيازك المتهاوية عن عروشها، واليوم قبل الغد.

لم يكن بيده غير ذلك الحلّ، فلن يستطيع مهما كانت الأسباب أن يطلب منها العودة من حيث أتت قبل

أن تَكمل ما جاءت لأجله. كما أنه لا يملك لمثل ذلك القرار من مبرر ليسوقه على من سوف يسأله عن الأسباب.

أجلسهما أمامه على طاولة الطعام. سميرة كانت تتوجس شراً منذ أن سمعته يخبر من بمكتبه بالجامعة بأنه مريض. لم يفعلها من قبل. لم يكذب في السابق.

محمد ظلّ يتحاشى الحديث مع والده في الأيام القليلة التي مرّت، مقتنعاً في داخله بأن مردّ الحالة التي يمرُّ بها أبوه هي الصدمة التي تلقّاها من جرّاء ردود أفعال متابعيه على التويتر. فغير الذين اتهموه بالكفر والزندقة من قبل، خرج آخرون ليطالبوا بسفك دمه وسرعة «اعتقال البروفيسور الملحد وقتله». لكن محمد يعتقد أن أكثر ما أثار أباه وخلق فيه ذلك الزعل المتقد هو ما تجرأ به أحدهم مطالباً الحكومة «بسجن البروفيسور الكافر في نفس الغرفة التي سُجن فيها والده في القلعة، وتركه فيها حتى يتيبّس كما تيبّس أبوه».

زهراء التي تُحب والدها كثيراً أحست بأنه يعاني من مرض ما لا يريد أن يخبرهم به. أخبرت محمد بأن أبا زميلتها بالمدرسة دخل في حالة حزن وإحباط لم يعرف أحد سببه إلا بعد أن مات. قالت لم يشأ أن يُخبر أولاده بأمر مرضه حتى لا يُحزنهم عليه. محمد أكد لها إن ذلك ليس سبب حزن أبيهم، وأن عليها ألا تقلق.

- أنا مضطر للسفر إلى السعودية والبقاء هناك لمدة شهر.

بادرهم، وكان قد هيأ نفسه لأن يبلغهم بنيته الغياب عنهم لثلاثة أشهر، لكن نظراتهم المرعوبة والمتوجسة شراً مما يوشك أن يطرحه عليهم جعلته يتراجع. قرر لحظتها بأن يبدأ بشهر ليخبرهم فيما بعد وحالما يتعودون على غيابه بتمديد تلك الفترة.

ارتعشت بأكملها. اهتزّ قلبها أولاً قبل جسدها وهي تُصغي لما يقول. فتحت عينيها على مصراعيهما دون أن تنطق بشيء. أخذت وقتاً ليس بقصير لاستيعاب ما سمعته منه. لاحظ تغّير لونها، ولاحظ علامات الحيرة والخوف التي غزت وجهي ولديه. أردف سريعاً في محاولة لتسهيل الأمر عليهم وتخفيف حدّة الصدمة التي ارتسمت بوضوح في أحداقهم:

- لا داعي للقلق، كل ما في الأمر أني مضطر لمساعدة صديقي مساعد في إنجاز مشروعه البحثي الجديد...

- ما هذا القرار الغريب يا أبو محمد؟ شهر بالكامل؟

تقاطعه وقد اغرورقت عيناها بالدموع في لحظة.

- ربما يكون أقل من شهر إذا قدرنا نخلّص المشروع بسرعة.

لم يتوقع ما يراه من ردّة فعلهم، لم يعرف سوى الآن مقدار أهميته في حياتهم وهو الذي ملأ وقته بعيداً عنهم بالعمل. هاله ذلك الحب الذي تقاذف إليه من قلوبهم من خلال نظراتهم العابسة.

لم يقل بعدها الشيء الكثير، ولم تستطع هي ولا محمد ثنيه عمّا عزم القيام به. اكتفى أن شددّ على أن صديقه في حاجة ماسة إليه، وأن الصديق وقت الضيق، و«معادن الناس تبان وقت الشدّة» وأن عملاً مثل الذي سيقوم به مع صديقه من شأنه «تعزيز حضور اسمه في وسط علماء النفس هذه المرة»، وأنه سيحاول بقدر الإمكان اختصار الفترة والعودة بأسرع وقت ممكن.

مضى زمن طويل منذ أن ذكر لهم اسم صاحبه مساعد، كما أن قراره ذاك جاء بعد فترة «تصرفاته الغريبة» مؤخراً! لا سبيل لها إلا أن تربط هذا بذاك، فثمة ما هو غامض في كل تلك الحكاية التي لم «تبلعها».

لم تعتد منه أن يخبئ في قلبه أمراً لا يخبرها عنه. لا تذكر أنه كتم سراً عنها. لكن قراره ذاك بالنسبة

إليها يخبئ الكثير. هناك من الأمور ما لا يريد أن يكشفها لها.

سيشفعون له فعلته تلك حالما يوقنون بأنه إنما قام بها لأجلهم، لأجل حبه لهم ورفضه التضحية بهم مقابل سعادته التي يراها متجسدة مع مروة. سيعذرونه لاحقاً. هو يغتال في داخله حلماً ورغبة ساحقة من أجل أن يعود إليهم من جديد، كما كان.

ألحق مكالمته تلك لصديقه السعودي، برسالة إلكترونية ليبلغه على عزمه بزيارته والبقاء معه لأشهر كمحاولة أخيرة للفكاك من أسرها كما نصحه هو بذلك.

هناك سيكون وحده، على مبعدة من حقولها الملّغمة. وهناك أيضاً سيصبحُ على مقربة من ربه، ومن بيته الحرام حيث لا مسافة تفصل دعاءه من الوصول إلى ربّه. سيفعل كل ما بمقدوره. سيعود ليتقرّب من ربّه أكثر بعد أن أهمل شأن العبادات. سيستغفر الله كثيراً، وسيستغل أوقاته في المناجاة الخاشعة. سيطلب من خالقه أن يُخرجها من دمه، فهو الوحيد القادر أن يقول للشيء كن فيكون. سيدعو ربّه أن يرأف به وبزوجته الصالحة وبولديه المطيعين وأن ينقذه لأجلهم من تيهه وعذابه. سيستغفر طويلا؛ آناء الليل وأطراف النهار.

لا يزورهم في العادة أحد في مثل هذا الوقت عدا أصدقاء ابنه. ومحمد كان بعيداً حينها عن الصالة، فاضطر إلى لنهوض لفتح الباب ليفاجأ بها وزميلته سامية.

ارتبك بشدّة، انعقدت لسانه داخل تجاويف حلقه، وساد صمتٌ غريب للحظات قبل أن تقشعه سامية وهي تلقي عليه السلام. قالت تعتذر بعد أن ردّ عليها التحية وقد وضح عليها الإحراج الشديد لقدومها المفاجئ دون سابق إنذار؛ أن مروة «أصرّت» على أن تصطحبها معها بعد أن «عرفت بمرضه». سمعت ذلك سميرة وكانت منشغلة بهاتفها المحمول، فقفزت عند الباب.

كان عليه أن ينصرف حينها تجنباً لأي إحراج آخر، محتجاً بتغيير ملابسه، لكنه شعر في تلك اللحظة -التي عجز حتى عن وصف حدّتها على قلبه لصَديقه مساعد لاحقاً، وهو يراها أمامه عند عتبة الباب- وكأن شرايين صدره انفجرت من شدّة دقات قلبه التي بلا شك سمعتها مروة وربما سامية.

لحظة لن ينساها، فقد كان قاب قوسين أو أدنى من أن يصاب بذبحة صدرية. ولم يستطع حتى بعد أن غاب عنهم لأكثر من ربع ساعة، أن يخفف من حدّة الاحتدام في صدره، وكان قد غفل، من فرط تلك اللحظة، أن يُعرِّف زوجته التي تعرف سامية من قبل؛ على مروة.

هل لاحظت سميرة أمر ارتباكه وتسمّره في مكانه قبل أن تنضم إليهم؟ لم ينتبه لذلك لحظتها، كان مزدحماً بأفكاره.

لكن سميرة ستنتبه بلا شك إلى مروة. سيشد اهتمامها تلك الشابة الصغيرة الجميلة، التي يشرف زوجها على دراستها. ستتدفق الأسئلة والتخيّلات إلى عقلها من جديد، وسيكون عليه أن يستعد جيداً لموجة من أسئلة محتملة بعد أن تغادر.

ها هو ذا ثانية تمرُّه لحظات جديدة من التوتر والتردد، غير مطمئن هو لما يجب عليه فعله في مثل ذلك الموقف الجديد عليه كلياً، فهل يعود إليهم في صالة الجلوس أم يبقى في غرفته خشية أن تفضحه ملامحه؟

لكنهما جاءتا لزيارته والاطمئنان عليه. عليه أن يقوم بما تمليه عليه الأخلاق والعادات في مثل تلك المواقف. عليه أن يكون أقوى من مخاوفه، فبقاؤه في غرفته قد يتسبب في زيادة جرعة الشكّ لدى سميرة. وهو في نهاية المطاف، البروفيسور سالم، ضليع في التعامل، بكل احترافية ولباقة، مع المواقف التي تطرأ عليه. فما الذي يمكن أن يخيفه في الأمرتحديداً؟ ليس بينه وبينها حتى الآن ما يخشى منه. لا يزال هو في برّ الأمان، لا تربطه حتى تلك اللحظة علاقة من نوع ما معها، ولم يتبادلا حتى حينه كلمة حب واحدة.

لا يجمعه شيء بها وعليه ألا تفزعه مخاوفه.

لكنه أيضاً تمنى ألا تجتمع زوجته بمروة. دعا ربه مراراً بألا تلتقيا، وتعمّقت تلك الأمنية أكثر حين أخطرته بأمر انتقالها إلى الشقة الجديدة بجانب سامية.

هل ستربط أم أولاده أمر الحالة التي يمر بها بمروة؟!

حين عاد أدراجه إلى الصالة بعد تلكؤ كبير، كانت مروة وسامية تقفان عند حافة الباب تودعان زوجته، أراحه المشهد. لكنها أخبرته بأن مروة «الحبوبة والعسل» قد تبرعت بالقدوم إلى البيت في الغد لكي «تعلّمها طريقة إعداد المنسف الأردني».

لم تسأله بعدها عن شيء، اكتفت أن قالت له بأن «مروة حلوة ما شاء الله»، لكن ما حصل كان كفيلاً بطرد النوم عن عينيه بقية ليلته. طفق يُفكر في أمورٍ عدّة وقد توجسّ شراً مما لم تقلهُ زوجته. خشي من الحديث الذي سيدور بينهما غداً، وخاف أن تُخبر طالبته زوجته بتفاصيل رحلتهما تلك إلى الجبل؟

بات ليلته قلقاً، ولم يستطع العثور على المبرر المناسب لكي يتصل بمروة ليطلب منها، قبل مجيء

الغد، إبقاء أمر تلك الرحلة طي الكتمان.

***

في اليوم التالي قرر ألا يعود إلى بيته بعد صلاة الجمعة كما تعوّد. احتجّ بالتحضير لسفرته، ففضّل الذهاب إلى مكتبه ولم يبرحه حتى وقت صلاة المغرب. حين عاد أبلغته بأن محمد خرج مع مروة إلى مسقط. كان قلبه يخفق بشدّة خشية أن تفرش أمامه حوارها مع طالبته. قالت ضاحكة أن مروة مقتنعة بأن أصولها تعود إلى الجبل وأن جدّها الأكبر آدم نزل هو وزوجته حواء في سيق.

قالت بعدها وهي تضع أمامه نصيبه من المنسف، وقد أحس بأنها تعمدت التحديق ملياً في عينيه ريثما تقرأ منها ردة فعله:

- عطيته فلوس وقلت له لازم تعشيها في أحسن مطعم.

ليقابلها بابتسامة هادئة وهو يهزُّ رأسه موافقاً على ما قامت به من غير أن ينبس بكلمة.

***

حين عاد إلى مكتبه في صبيحة يوم الأحد، استدعاها ليبلغها بالأمر، لكن الخبر كان على ما يبدو قد وصل إلى سمعها قبل ذلك. بادرها:

- آنسة مروة، علي أن أكون بجانب صديق لي في المدينة المنورة لإنجاز مشروع بحثي مشترك.

- بروفيسور ما تفعله غير مقبول، ليس هذا اتفاقنا.

تزأر في وجهه غاضبة. فاجأته بردة فعلها. لم يتوقع ذلك.

- ماذا تقصدين؟

يسألها وقد توقع في لحظة بأنها ستعترف له بحبها وأنها لم تعد تطيق الابتعاد عنه.

- هناك اتفاق بين الجامعتين أم نسيت؟

تقولها بنبرة غضب واضحة. «يا لك من عنيدة» يقولها في داخله. آه لو يملك أن يضمها الآن.

- لم أنس، لكنني لم أقصّر في شيء، فما الداعي إلى غضبك؟

- في الحقيقة أنا لا أريدك أن تذهب، أنت لا تفهم بأنني أحتاجك دائماً قريباً مني.

تعدّل من نبرتها هذه المرة. إنها بالفعل خطيرة. محترفة. قادرة على أن تغطسه في الثلج في لحظة ثم تلقي به في الجمر في اللحظة التالية.

- سأكون قريباً حتى وإن بعدت جسدياً عن المكان.

لا يزال متحكماً في قلبه الذي يحس به سينفجر.

- لكنني بحاجة إلى وجودك الجسدي أيضاً.

تقولها بنبرة تتناهى فيها الرقة. تغرقه في الثلج. لا يعرف بماذا يجيبها. يعلق لسانه في فمه. تعود لتسأله:

- وهل ستغيب شهراً كما يقال؟

إحساسه متداخل بشكل لم يعد يطيقه. لكنه لن يمكّنها من إسقاط صموده، ليس بعد الذي قرره.

- ربما شهر وربما أقل، يعتمد على سرعتنا في إنجاز المشروع؟

- ألا يمكن لصديقك أن يأتي ليكمل مشروعه هنا بدل أن تسافر أنت إليه؟

«هل كان ذلك رجاءً أم عتاباً على هجرها له وقد باتا قاب قوسين أو أدنى من التلاحم؟»

واصل حديثه وقد أخرج قدّامها ورقة صفّ فيها الواجبات التي يجب عليها إنجازها خلال فترة غيابه.

- بعد أن تنجزي ما هو مذكور في القائمة، سيكون قد تبقّى القليل من العمل لكي تنهي رسالتك. عليك

أن تنتبهي للتواريخ هنا، المطلوب منك أن تبعثي لي بالفصلين الأول والثاني قبل انتهاء الشهر. سيكون لدي متسع من الوقت لقراءتها هناك ولمناقشتها معك حين أعود.
ثم، وبتكلفٍ كبير، أخرج من لسانه ما كان يمنعه عنه قلبه:
- آنسة مروة، لقد وضعت لك برنامجاً تستطيعين من خلاله إنهاء رسالتك مع نهاية الشهر السادس، لذا ليس عليك تحمّل البقاء في نزوى المغلقة لثلاثة أشهر أخرى.
تبتسم ابتسامة واسعة، تشكره.
- فكرّت أن أطلب منك ذلك. شكراً يا بروفيسور لأنك تفكّر نيابة عني.
تلقي به في الجمر. يستمر ضاغطاً على نفسه غير مبال بما يجتاح صدره من وجع.
- بالفعل آنسة مروة، أريدك أن تبذلي كل ما في وسعك لإنجاز رسالتك بأسرع وقت ممكن.
تنتبه حينها لذلك التغيّر في لهجته معها.
- لماذا العجلة فجأة يا بروفيسور؟ ما الذي حدث؟
تطلقها بلهجة ملأى بالاستغراب والغضب في آن.
- لا شيء، فقط أُفكر أن آخذ إجازة تفرغ علمي لمدة سنة، ولن أستطيع أن أبدأها قبل أن ننتهي من رسالتك.
يردّ عليها بهدوء.
- أنت تهرب من شيء، آسفة إن قلتُ لك ذلك.
هي تعلمُ إذن بأنه يهربُ منها، تعرف بكل شيء. يا لها من حيّة في شكل أنثى. لو بقيت أمامه مزيداً من الوقت لجفّت الدماء في عروقه. عليه أن ينهي المأزق الذي يقاسيه.
- أبدأ آنسة مروة لا يوجد ما أهرب منه.
لتبادره سريعاً، هذه المرة وهي تقرب وجهها من وجهه محدّقة بتركيز في عينيه.
- إذن لماذا لا تكون إجازتك تلك معنا في نيويورك، سيفرح زملاؤك العلماء بلا شك حين يجدونك بينهم.
ما الذي دهاه حتى يرتجل فجأة أمراً لم يشبعه تفكيراً من قبل؟ ها هي تسير به عكس اتجاه أمواجه ورياحه.
- سيكون لكل حادثة حديث في حينها. علينا الآن أن نعمل سوياً لإنجاز مهمتك بأسرع وقت ممكن.
تلاحظ بأنه مستمرٌ في الحديث معها بطريقة رسمية لم تعتدها منه، فتسأله:
- بروفيسور، هل بدر مني ما أغضبك؟ أنت تخاطبني اليوم وكأننا غرباء.
بماذا يمكن له أن يجيبها؟! هل يعترف لها الآن بأنه واقع في هواها، بل «غرقان» في حبها، وأن سفرته تلك ما هي إلا محاولة أخيرة للتخلص من حصارها بعد أن فشلت محاولاته السابقة؟ هل يقول لها ذلك ويطلب منها المساعدة لكي تشفيه منها ومن سُمّها الزُعاف الذي يجري في عروقه؟ هل يخبرها بأنه الآن يسعى جاهداً بما تبقى له من جهد وأمل للتصدي لها والخروج من براثنها منتصراً بعد أن خذلته جهوده السابقة؟
- أبداً أبداً آنسة مروة، لم يبدر منك إلا كل ما هو طيب. الأمر كله يتعلق أولاً بصديقي في جدّة، علي أن أساعده في أن يقدم نتائج البحث مع انتهاء الشهر، ثم بعد ذلك علي أن أجد متسعاً من الوقت لكتابة ما أُخطط له ولن أستطيع فعل ذلك إذا لم أتفرغ تماماً للكتابة.
- من الممكن أن أذهب معك إلى المدينة المنورة بروفيسور، قد أتمكن من مساعدتك أنت وصاحبك.
تصعّب عليه تلك الكلمات ما يوّد قوله بعد ذلك. لو كان في وضع آخر، مجرداً من كثير من الارتباطات

الاجتماعية الشائكة والمعقدة، ومن ذلك الثقل النفسي الذي يطوّه ويمنعه إلا من تفكير محدد؛ لما كان من داعٍ لأن تقترح عليه اقتراحها ذلك. كان سيسحبها معه برضاها أو بدونه، ليس إلى المدينة المنورةً، بل إلى مدينة يستطيع فيها ممارسة جنونه معها بلا خوف ولا عين رقيب. لكنه الآن يحاول محاولته الأخيرة الحاسمة للخروج من قضبانها وليعود حراً طليقاً كما كان قبل أن يلتقيها.

يتساءل كيف غربت شمس خضراء عن سمائه بتلك السرعة بمجرد بزوغ نجم مروة؟ هل كان سيعشق خضراء كما هو عشقه لمروة الآن لو لم تظهر له هذه الأمريكية فجأة؟ لا يصدق بأن ذلك ممكن. خضراء المسكينة فضّلت الاستسلام سريعاً والانسحاب من المشهد، ولم تعد تبتسم له ولا تتعقبه بنظراتها كلما مرّ من أمامها. مرّ من جانبها وهي تتوسط زميلاتها في نفس جلستها الخارجية بمقهى الجامعة، لكنها هذه المرة اكتفت بأن أرسلت إليه نظرة باردة باهتة لا تحمل في طيّاتها أدنى تعبير. لا ريب أنه سمع حينها وبوضوح جملة «هذا حبيب الأمريكية الصغيرة» وهي تخرج وسط لغط كلامهن الذي أثاره مروره بقربهن.

- أنا متأكد أنك قادرة على المساعدة، ولكن الأمر شبه منتهٍ الآن، ولا يحتاج سوى العمل على صياغة النتائج في ورقة علمية.

لم يترك لها من مجال. يحمّر وجهها غضباً، وقبل أن تُرجِع الباب خلفها، لم تنس أن تلقي عليه آخر كلماتها قبل سفره:

- بروفيسور اعلم بأنني لست راضية عن قرارك ذاك. كان الأحرى بك أن تناقشني فيه قبل أن تقرر.

كانت غاضبة فعلاً. لا يفهم هو كيف لطالبة أن تخاطب أستاذها بمثل تلك اللهجة. ولا يفهم أكثر كيف لأستاذها أن يسكت على ما قد سمعه منها.

يحرقه المنظر. ليس ذلك الغضب علامة على إعجاب طالبة بأُستاذها الذي سيغيب عنها بضعة أسابيع، بل علامات تيم، علامة غرام.

هي مفتونة به بكل جوانحها، مغرمة وتنتظر منه فقط تلك العلامة التي لا تتجاوز كلمة واحدة. لا يصدق أن لتلك النظرة المجبولة على الحزن وتلك الدمعة المغصوبة على النزول، وذلك الهمّ المرتسم على الوجه الملائكي من دلالة غير الحُبِّ والعشق والولع والهيام.

لماذا لم يُرِدْ أن يصدق أنها هنا بمحض إرادتها لأنها معجبة به وبكتاباته وبأفكاره كما ذكرت له في العديد من المناسبات. لماذا يسيء الظنّ في نواياها ويعزز في نفسه بالمقابل فكرة أن ثمة من بعثها إليه، وأن الأمر ليس إلا مؤامرة ضدّه. لماذا لا يريح نفسه ويطلب منها إجابات واضحة ومحددة لتلك الأسئلة الحائرة في جوفه، وينهي بذلك كل تلك الحيرة التي تسكنهُ؟

لا. لا يريد أن يعرف حقيقة الأمور. ليس وهو في وضعه الحالي. يُفضّل أن تبقى الأمور غامضة عليه. ليس مستعداً لمثل تلك المغامرات الآن، فما زال يملك الكثير من العاطفة لأولاده وأمهم. لا يريد لحياة من يعتمدون عليه أن تتحطّم بسببه. عليه أن يضحي كما وعد نفسه، فيكفي لسميرة ومحمد وزهراء ما ضحوا به طوال السنين التي مرّت، حان الوقت لأن يردّ لهم الجميل. لا يريد منها أن تُخبره بأنها تعنّت وقطعت كل تلك الأميال قاصدة إياه ولا أحد سواه. لا يريدها أن تعترف أمامه بحبها وعشقها له وهيامها الضارب في عظامه. لا يريد. حياته معقّدة وصعبة، ورأسه المثقل الذي لا يكلّ ولا يملّ يملي عليه ما يريد ليفرض سيطرته؛ يركل كل ما يخطر على قلبه من أمنيات.

لم يمضِ على الأمر سوى أيام معدودات حتى أقرّ بارتكابه حماقة لا تُغتفر مع نفسه حين ألزمها بتنفيذ ما قرره. كيف قام بذلك؟ وكيف وافق، بغباء واسع، عقله المعتوه على ما أشار عليه؟

كان بإمكانه بدلاً من الدمار الذي ألفى نفسه فيه أن يستمر معها إلى أن تنقضي الخمسة أشهر ونيف المتبقية على بعثتها. ذلك ما كان قد حسمه مع ذاته في السابق، فلماذا لم يمارس عليها مزيداً من الضغط إلى أن تنهي ما تبقى لها من أشهر في نزوى، وعندها لن يكون لديه من خيار سوى الصبر على اختفائها عنه. سيتعذب لفترة من الزمن، شهراً أو شهرين، وبالكثير ثلاثة. بعد ذلك ستبدأ صورتها بالاضمحلال تدريجياً من أمامه وسيبدأ دمه في التخلص من دمها السابح وسط خلاياه. ألم يسكنه التحنان إلى حبيبته البريطانية الأخيرة عندما رجع من دراسته، وظلّت ترافق مناماته وأوقات صحوه لأشهر؟ ألم يقرر مرة واثنتين وثلاثاً أن يعود إليها؟ ألم ينسها بعد ذلك؟ كم لزمه من الوقت ليتخلص من شوقه إليها؟ ليس أكثر من أربعة أشهر.

لو فعل ذلك وبقي في مكانه لكان الآن في وضع نفسي أفضل. فما عدا الأوقات التي يقضيها بصحبة ألمه وهي أمامه كل صباح في الجامعة، سيكون في بقية ساعات يومه مع أفراد عائلته الذين يُحبهم ويحبونه. أولئك سيلهونه قليلاً عنها.

لم يتوقع أن يصبح الهروب الذي تخيّله مفراً؛ جحيماً يتلظى.

لكن الوقت قد فاته للتراجع. حصل ما حصل، ووقع الفأس على الرأس. هو الآن يعيش مع همومه وآلامه في شقته الصغيرة المسكونة بالصمت الكثيف والجدران البيضاء النظيفة اللامعة في وسط المدينة المنورة. الجو بارد جداً والسنة تأكل ما تبقى لها من أيام قليلة لتفسح المجال لأختها القادمة.

عليه أن يتحكّم في نفسه ومشاعره من الآن فصاعداً، وأن يُنفّذ ما قرره مهما كانت النتيجة ومهما كان حجم العذاب. سيتعب في البداية ليس أكثر، يجب أن يتحلى بالصبر، فقد كان منتبهاً لمدى صعوبة الأيام الأولى عليه وعلى ابتعاده عنها منذ أن عزم على الرحيل. سيتحمّل قليلاً، سيضغط على مشاعره وأحاسيسه. لم يعد صغيراً ولا مراهقاً حتى تجرفه عواطف لا يمكن أن يُكتب لها النجاح.

- حكاية النبيذ الأبيض لا يمكن لها أن تكون صدفة؟

يقولها مساعد.

- لم لا؟

- حاول أن تخرج نفسك من داخل مكعب العاشق والمعشوق، انظر إلى الأمر من خارجه، ستكتشف الحقيقة.

- فعلت، لكنني لم أرَ منها ما يقنعني بذلك.

- إذن يجب أن تعترف بأنها ذكية جداً، ذكية بشكل لا تتصوره، كل خطواتها مدروسة بدقة.

- لا أنكر ذلك، بل أبصم عليه.

- في كل الأحوال هذا لا يهم، ما يهم أنها لم تقطع كل تلك المسافات وتأتِ إلى حيث مكانك صدفة!

- صحيح.

لا يصدق ما يتخيلونه عنها؛ مساعد ومن قبله خلفان وغيرهما. هي بكل تأكيد جاءت للحصول على معلومات ما تهمّ أولئك الذين أرسلوها، لكنها أبداً لم تُرسل إليه لتجعله يهيم به حباً فتتزوجه وتهرب به بعيداً! ليس الأمر مخططا له بتلك الطريقة كما يعتقدون. ببساطة، ما يحدث بينه وبينها ليس سوى إعجاب من الطرفين، انجذاب نفسي وذهني، وربما جسدي. المؤكد في الأمر أن ثمة كهرباء نشأت بينهما، كهرباء اشتعل فتيلها في العقل ثم انتشرت في سائر الحواس.

- هل قالت لك إنها تحبك مثلاً؟

- لا لم تقلها علانية.
- كيف لك إذن أن تجزم بحبها لك؟
- الأمر لا يحتاج إلى شطارة، شرحت لك كل شي. حركاتها، سكناتها، نظراتها. الأمر لا يمكن أن يُخفى حتى على مغفل.

طويلة هي الأوقات التي قضاها مع صاحبه، وكثيرة هي محاولات الأخير إقناع صديقه المتيّم بمحوها من تفكيره، وإكمال حياته الهادئة كما كان، لكنها كلها باءت بالفشل. استخدم خلالها كل ما كان يملكه من قدرات ومهارات وعلم وخبرة، لكنه رجع خائباً.

يقهقه مساعد وهو ينظر إليه مستغرباً من ردوده:

- هل قطعت كل تلك المسافات لتثبت لي أنها تحبك حباً عذرياً خالصاً.

ويردف حين لا يسمع تعليقاً من ضيفه:

- إذن اسمح لي أن أخبرك بأنك تضيّع وقتك على الفاضي، والأبرك لك أن تعود من حيث أتيت.

يبتسم سالم دون أن يقوى على قول شيء. يُكمل مساعد:

- إذا أنت هنا لكي تتجاوزها وتعود إلى ما كنت عليه كما طلبت مني أن أساعدك، فعليك أن تتعاون معي لكي ننقذك من جحيمك.

يهزّ رأسه موافقاً.

- أنت شخص واحد يا أبا محمد، إذا قدرت أن تنتصر على محنتك وتتخلص من الفتاة، فستكون أنت وحدك من يذوق العذاب. كرر عليه «وحدك» ثلاث مرات.

يستمر:

- ولكن تصوّر حجم الألم الذي ستقاسيه زوجتك وولديك إذا ما قررت الارتباط بطالبتك. ستعذبهم جداً. بالتأكيد لن يموتوا بسببها ولكن قد تختل عجلة حياتهم وقد تقضي على مستقبلهم.
- ذلك تحديداً سبب قدومي إليك وطلبي مساعدتك.

يقهقه باقتضاب، يهز رأسه متعجباً قبل أن يقول وعلامات الحيرة تملأ صوته:

- لكنك لا تساعدني في شيء. تعرف ما تريد ولا تريد أن تعرف ما تريد. تريد أن تتركها وتنساها ولا تريد. وتريدها أن تحبك وتتزوجها ولا تريد. فماذا بالضبط تريد حتى أستطيع مساعدتك؟

في جلسة أخرى أكد له بأن ما يمرّ به ليس إلا رغبة جنسية بحتة، محاولاً التفريق له بين الحواس والعواطف التي تختلط لدى العديد من الناس، فيعتقدون أنهم متعلقون «روحاً» بالطرف الآخر، وهم في الواقع منجذبون جنسياً إلى ذلك الآخر، لا أكثر.

- أنا متأكد بأنك في وسط مغامراتك السابقة تعرفت على فتاة ربما تشبه القمر واعتقدت أنك تُحبها، لكن لأنها لم تكن صاخبة فوق السرير كما كنت تتمنى، تركتها ونسيتها، على الرغم من جمالها ذاك.

تلك كانت «جوليان» الصربية التي قدمت إلى لندن لدراسة الأدب الإنجليزي. أحبها فعلاً، لكن برودها الجنسي «الثلجي» جعله يطفش منها ويهجرها بعد أقل من شهر على معرفته بها. لقد حكى لمساعد تلك القصة من قبل، ويبدو أنها لم تغادر ذاكرته.

حدّثه مطوَّلا عن ذلك العلم الجديد الذي بدأ يحتل مكاناً كبيراً من الاهتمام بين علماء النفس. قال له بأن الجيل الجديد في الكثير من الدول الغربية يعي تلك المسألة أكثر من الجيل السابق.

- ليس الفتى فقط في تلك الدول من يطلب أن ينام مع الفتاة لمرة واحدة، بل حتى الفتاة تستطيع طلب ذلك. ذلك يسمّى الجنس العرضي أو العابر. جنس للمتعة ولكنه كذلك لاكتشاف مدى إمكان تقبل الآخر جسديا في المستقبل.

يُضيف:

- هناك اليوم تبدّل في الكثير من القيم والأخلاق والمسَلّمات والمعتقدات، لكن الأهم أن الجيل الجديد، غير المثقف وغير العميق في التفكير، الجيل المسطح فكريا إذا صحّ التعبير، يؤمن بأن الأهم في البداية هو التجاذب الجسدي وليس الذهني كما كان جيلنا يعتقد في القديم. الجيل الجديد يؤمن، على عكسنا، بأن التقارب الذهني قد يحصل مستقبلاً، وحتى وإن لم يحصل فلن يكون سبباً لانفصال الواحد عن حبيبه أو حبيبته، يستطيعون التعايش حتى وإن كانت أفكارهم مختلفة.

يضحك وهو يقول:

- عموماً؛ نادراً أن تجد بين الجيل الجديد من تختلف أفكاره عمَّن هم من نفس جيله، هذا إذا كانت لديهم أفكار بالمعنى الذي نفهمه نحن.

ثم يستمر:

- أما التقارب الجنسي فهو أساس الحياة السعيدة عند هذا الجيل، لأنه لو لم يحصل ذلك الانجذاب فلن تكون لحياتهم مع بعض من معنى، واذا استمروا مرغمين فسيلجأون إلى الخيانة.

يضحك ثانية وهو يستطرد:

- طبعاً كلمة الخيانة ووقعها علي وعليك وعلى من هو من جيلنا تختلف تماماً عن وقعها على الأجيال الحالية. لا أريد أن أستطرد كثيراً هنا، فالعديد ممن يسكنون تحت سقف واحد يعلمون بأن شريكهم يخونهم مع شخص آخر، ولكن لا يعير الأمر اهتماماً إذا لم تكن العلاقة الجسدية بينهما على ذلك القدر من النجاح.

يتوقف عن الحديث لثوان قبل أن يردف:

- بكل تأكيد فإن مروة تفهم مثل تلك العلاقات، ولو كنت سألتها أن تطارحك الفراش فربما وافقت أو رفضت. الأمر منتشر في أمريكا أكثر من أي دولة أخرى، بمعنى أنه أصبح جزءًا من ثقافة مجتمعهم، بل الصحيح أنه أصبح جزءًا من أسلوب حياتهم.

لكنه في داخله يرفض أن يصدق ما سمعه. مروة ليست من ضمن أولئك، فهي عربية الدم ومسلمة في الأساس. قناعاته المترسخة عنها مختلفة.

يكمل مساعد محاولاته اليائسة:

- أفهم أنك تخشى أن تطلب منها أن تنام معك، فيصبح الأمر بينكما جاداً أو أنها ستستغله لتطلب منك الزواج بها. لكنها لا تفكر بمثل تفكير فتيات مجتمعنا. لو أخبرتها عن خوفك هذا لضحكت من اليوم إلى الغد. يضيف حين لا يرى ذلك التأثير في وجه صاحبه «دعنا من ذلك الآن، بإمكانك فعل شيءٍ آخر أثبتت التجارب عليه نسبة نجاح كبيرة».

يسكت لفترة وجيزة. يستأذن من صاحبه لإعداد فنجانين آخرين من قهوة ماكسويلز الأمريكية. دائماً ما تكون رائحة مكتب مساعد عبقة برائحة القهوة. يعشق القهوة منذ أن كانا معاً في بريطانيا. يتناول منها في اليوم الواحد ما يزيد عن الخمسة أكواب. كان يقول لزملائه بأن عقله لا يبدأ في العمل والدوران إلا بعد الكوب الثاني أو الثالث في بعض الأحيان.

يناوله كوبه ويواصل ما بدأه:

- سافر إلى دولة ما، انْسَ أي التزامات أخلاقية أو دينية أو زوجية. نَمْ مع اثنتين وثلاث وأربع وخمس. هذا من شأنه أن يؤثر فيك، على الأقل ستعرف وقتها هل أنك في الأصل كنت راغباً في الفتاة جنسياً ولكن غطى حضور عقلك على الوقوف على رغبتك الحقيقية معها.

- أنت جادّ يا أبا عبدالعزيز؟

يسأله مدهوشاً مما يسمعه.
- مائة في المائة.
يجيبه بكل ثقة قبل أن يضيف:
- إذا وصلت لديك الحالة بأنك تتخيلها مكان زوجتك على السرير فاعلم أنك ترغب فيها جنسياً ليس إلا.
تصدمه تلك العبارة، ومع ذلك لا يقتنع. الأمر بالنسبة إليه معقدٌ أكثر من اللازم. ليس سهلاً كما يتخيله صاحبه، فلن يصدق أحد ما الذي خلّفته جلسته تلك معها في الجبل من نتائج. هو ببساطة يريد أن يتملّكها. يريدها أن تصبح جزءًا من حياته. يريدها أن تشاركه مشوار عمره القادم كله.
- أحسّ أن عقلي يريدها أكثر من جسدي.
- قد يكون ذلك مجرد وهم، والطريقة الوحيدة لتثبت أنه كذلك أو ليس كذلك هيأن تنام معها.
ثمة ما يقول له في داخله بأن ما نصحه به صاحبه صحيح، خصوصاً وهو يتذكّر ما فعله بزوجته بعد أن نزل من الجبل. ليته يستطيع أن يُخبر صاحبه عن تلك الليلة. لقد تخيّلها هي أسفل منه.
- ولكن ألا يمكن أن أتعلق بها أكثر وأكثر لو حصل ونمت معها وأعجبتني؟
- بكل تأكيد، لكن الأمور ستكون واضحة لك أكثر حينها. ستستطيع أن تحدد بعدها اتجاهاتك.
- أنت تقول لي ببساطة أن مربط الفرس هو الجنس، وهو الذي سيفصل بين تعلقي بها أو تركي لها.
- بالضبط، ولكن لست وحدك من سيقرر، هي أيضاً ستقرر ما إذا كانت ستستمر معك أو تتركك بعدها. القرار لا يتعلق بك وحدك، لا تنسَ.
مرّ الأسبوع الأول في غربته الاختيارية فظيعاً عليه. مرّ أمرَّ مما كان يتوقع، فلم يحزر حجم الألم الذي سيمر به يوم قرر ترك نزوى وغياب مروة عنه. مرّ ببطء شديد لم يتوقعه. سبعة أيام مرّت كأنها دهر، عاش خلالها وسط أقسى عذاب وألم ممكن. لم يتوقعها وهو بعيد عنها كل تلك المسافة أن تفرض عليه وجودها أينما ولّى وجهه، وأن تصاحبه حتى في ساعات نومه.
كانت حاضرة معه أكثر من حضورها حين كانت بينه وحواليه في نزوى، والأدهى من ذلك أنها استولت في حضورها على المساحات المخصصة لغيرها؛ محمد وفاطمة وسميرة.
«كيف تمكنت من ذلك؟»
حتى حين اتصل بسميرة بعد مرور أكثر من أسبوع، كان طيف مروة أمامه.
- كيف محمد وزهراء؟
يسألها وهو يترجى أن تقول له بأن مروة زارتهم في البيت وسألت عنه. لكنها لم تهمس بما يشتهي سماعه.
- متى ترجع؟
تسأله وقد أشعره ذلك بأن أم أولاده قد اشتاقت إليه بشدّة رغم أنه لم يمضِ على غيابه عنها الكثير.
- هل سأل عني أحد؟
لكنها تُصّر على ألا تمنحهُ الإجابة التي ينتظرها والتي من شأنها أن تُبّرد الحرقة المشتعلة في صدره.
لا بد وأن مروة تقصد ذلك. تتعمّد اللعب بمشاعره دون شك. لقد أرسلت إليه كما طلب منها ما قامت بإنجازه من دراستها خلال ذلك الأسبوع عبر البريد الإلكتروني، لكنها لم تكتب له كلمة واحدة تدّل على افتقادها له. رسالتها تلك كانت جافة لا تحوي بين سطورها ما يشي بشوقها وافتقادها له. كما أنها لم تبادر حتى باتصال قصير للسؤال عن أحواله.
هي تحاول استفزازه إذن بطريقتها الخاصة. تبعث له بنفس تلك الرسالة الواضحة التي سبق وأن

بعثتها حين تركها وغادر إلى دبي: أنا لن أهتم بك طالما أنت، وحدك طواعية، دون أن تسألني عن رأيي، من قرر أن يغادر.

هي تقول له بصريح العبارة: طالما أنك لا تهتم بمشاعري فلن أهتم حتى بالسؤال عنك. الأمر واضح جداً له، هي غاضبة منه ومن تصرفه وقراره ذاك. ومع ذلك، فقد شعر في داخله بشيء من الراحة وهو يجزم بينه وبين نفسه بأن ما تقوم به ليس إلا دليلاً واضحاً على حبها له. إهمالها الواضح والمتعمد للسؤال عنه ليس إلا علامات حُب قوية.

تذكّر كلمات أغنية أصالة تلك وربطها بما حكى له صاحبه مساعد من أن كل ما تتمناه وتترجاه هي أن يُسكت في داخلها تلك الرغبة الجنسية الشبقة والمحمومة وهي الشابة الطافحة بالنشاط والرغبة والبعيدة عمن اعتاد أن يطفئ لها رغباتها في نيويورك.

هل تبحث الآن عن بديل عنه؟ يحرقه تخيلها كذلك.

هو أيضاً لم يسأل عنها ولم يتصل بها ولا بعث لها برسالة يبين فيها شوقه إليها. لن يستطيع إذن أن يعاتبها على تقصيرها. وحتى حين انقضى أسبوعه الثاني في جدّة، كانت سميرة من تترجاه أن يعود وليست هي.

- هل اتصلت بك حتى؟

- لا

- هي بكل تأكيد لا تحبك إن كنت ما زلت تتوهم هيامها بك.

- أنت لا تعرفها يا أبا عبدالعزيز، هذه فتاة ليست عادية، كل ما فيها مختلف عن البشر. تعبيرها عن زعلها وعن شوقها مختلف. هذه هي طُرقها.

- لن تقنعني بمثل هذه الحديث، لا يمكن أن أصدق ما تقوله، أنت توهم نفسك ليس إلا يا بروفيسور.

يقولها بنبرة ساخرة، ويضيف:

- أي قوة لدى من يُحب تجعله كالصخر لا يسأل عن حبيبه طوال تلك المدة. لماذا تحبّ أن تكذب على نفسك؟

- صدقني يا أبا عبد العزيز، أنا واثق من مشاعرها نحوي.

يضحك مساعد:

- الآن أقدر أقول أنك وصلت إلى مرحلة متأخرة من مرضك.

يقهقه بصوت عالٍ وهو ينهض من كرسيه ليعانق صاحبه وهو يطبطب على ظهره ويقول له:

- فعلاً حالتك متأخرة يا صديقي، أعتقد أنه ليس أمامك بعد الآن سوى العلاج «بالكيماوي» الذي تكرهه.

يفهم أنه يقصد بذلك الزواج بها وتحمّل ألم ما قد ينتج عن ذلك.

أجل، يعي هو المرحلة الحرجة التي أوصله إليها انجرافه نحوها.

- حتى أنا لم أتصل بها. هل هذا يعني أنني لا أحبها.

يسأل صاحبه.

- أنت لا تعلم بأنها تحبك أم لا، هي متأكدة بأنك ميت فيها، وهذا هو الفرق.

لا سبيل إليه سوى اللجوء إلى ربّه إذن. كان يعرف منذ البداية بأن الله ولا غيره من سيساعده في نهاية الأمر، لا عزيمته المترهلة ولا نصائح صاحبه مساعد المعروفة. لجوؤه إلى ربّه سيكون آخر محاولاته. لم يحن بعد أوان استسلامه وهو لم يكمل نصف الفترة التي قرر أن يغيبها عنها. سيصارعها حتى آخر نفس لديه، سيعتبر التخلص منها معركته الكبرى.

في اليوم التالي صلى الفجر في المسجد النبوي وغرق بعدها في صلوات وأدعية متتالية ربط فيها الليل بالنهار.

- هههههه

يضحك مساعد بسخرية مما يسمعه قبل أن يقول:

- يا بروفيسور، أنت مصدق أن الله سيستجيب لأدعيتك وقد نسيته طوال تلك المدة. ثم إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

لا شك أن صديقه مخطئ فيما قاله، فالله الغفور الرحيم أدخل شخصاً كافراً لم يُقم الصلاة يوما؛ لأنه «أطعم هِرّة». والله كذلك أدخل رجلاً غافلاً عن عبادته وشكره، شخصا لم يعرف ربّه ولم ينطق باسمه إلا عندما حانت ساعة مماته.

هو لم يرتكب الكثير من الخطايا منذ زواجه. فلم يمرّ عليه رمضان إلا وصامه. وفيه، في رمضان بالذات، لم يغفل عن صلاة دون أن يؤديها في أوقاتها، وكان فوق ذلك يحافظ على صلاة التراويح قدر ما أسعفه الوقت. قد يكون غفل عن أداء صلاة أو أكثر خارج رمضان بسبب انشغالاته وسفراته، وأيضا ربما نسي أن يُزكّي بشيءٍ من ماله بين الحين والآخر، لكنه لم يفعل ذلك عن قصد، كل ما في الأمر أنه لم يتذكّر في حينها.

لا يمكن لمثل ذلك القصور أن يكون سبباً في أن يغضب ربه عليه ويطرده من ظلال رحمته. حين يقارن الحسنات التي قام بها بالسيئات التي اقترفها؛ فغلّة حسناته دائماً ما ترجّح كفة الميزان لصالحها وبعشرات المرات، إن لم يكن بالمئات. لا يمكن مقارنته هو على سبيل المثال بذلك الرجل الذي دخل الجنة لمجرد أنه نطق بالشهادة في مرة يتيمة قبيل مماته!

ليومين متتاليين، كان يصلي الفجر في المسجد النبوي ولا يبرحه إلا بعد أن ينهي صلاة العشاء. ينتحي جانباً هادئاً ويغرق في صلاة عميقة وتلاوة غير منقطعة، ولا يخرج إلا لدقائق معدودات لتناول ما يمكّنه من البقاء أمام محراب الصلاة والعبادة. ليكتشف بعد ذلك أن صلواته تلك لم تشفع له في شيء، فلا هي منعت طيفها من ملاحقته، ولا مكّنته من طردها من قلبه وقد سخّر ثلثي وقته في الدعاء لأجل ذلك.

وبعد أن تيقن بأن توسلاته وأدعيته تلك باءت بالفشل، قرر الرحيل إلى مكة المكرمة. لن يترك من سبيلٍ إلى دفعها بعيداً عنه إلا وسيسلكه. سيزور بيت الله الحرام. هناك لا يردّ سبحانه وتعالى أحدا من عباده وضيوف بيته المقدّس حيث لن يكون بينه وبين خالقه والعالِم بما في قلبه أي حجاب. سيصبح صوته وهو يدعو ويبتهل ويتوسل ويرجو مسموعاً لدى الخالق. سيجلس في مجلس الرّب المقدّس ليسأله محوها من وجدانه.

سوف يسامحه كل من سيسمع بقصته بعد اليوم، فقد قطع كل تلك المسافة بين المدينة ومكة لأجل أن يسأل ربه أن ينسيه إياها وأن يعيد إليه حياته الهانئة الوديعة الخالية إلا من العِلم وزوجته وأولاده، لكن ذلك لم يحدث؛ فقد عاد بقرار مغاير تماماً لما تمناه. كان عائداً من مكة حينها والفرح يصهل في دمه بعد أن ساعده ربّه في الحصول على الإجابة التي ظلّ يهرب منها منذ أن خفق قلبه بحب مروة.

توقع هو ذلك. توقّع أن يعود بقراره الجديد، فمنذ الليلة الأولى له بمكة، وهو بداخل بيت الله الحرام، وهو يطوف بالكعبة المشرّفة؛ كانت حاضرة معه لا تفارقه. تضحك له، تهزُّ رأسها ساخرة من محاولاته المحمولة على الفشل، كان صوتها مسموعاً في أذنيه «ليس بإمكانك مهما حاولت أن تخرجني من جسدك، فأنا الآن دمك ونبضك وروحك». وحتى حين كان يأوي إلى فراشه، يجدها قد سبقته إليه وقد غرّقت جسدها برائحة عطرها الفرنسي الذي يهيّجه ويعيده إلى الجبل وإلى تلك اللحظات الصارخة بالرغبات التي لم تخفت، فظلت مشتعلة لا تهدأ.

هكذا قضى أيامه ولياليه في تلك البقعة الأكثر قُدسية على وجه الأرض، القريبة من الخالق، البقعة الصغيرة الوحيدة التي اختارها المولى ليحل بيته عليها. قضاها في سجود وخشوع عميقين، حضرت خلالها وعلى مدار الساعة مروة وغابت سميرة تماماً.

حين تأكد بأن الله عزّ وجلّ معه، مباركاً رغبات قلبه على حساب عقله، أدرك عدم الجدوى من البقاء أطول من ذلك فنكص عائداً من حيث أتى، وقد خطط في الأساس أن يبقى ليلتين إضافيتين.

قال مبتهلاً في ليلته الأخيرة وليزداد يقينا فوق يقينه «ربي أسألك في هذه الليلة أن تهلكني إن كنتُ مقدماً على أمر خاطئ». قال «اللهم أمتني هاهنا، في بيتك القدسي العظيم ولا تتركني أعبث بحياة عائلتي التي ليس لها ذنب».

بقي منتظراً أمر ربه لساعات طويلة امتدت من بدايات الفجر الأولى حتى انتصاف الليل. لا يتناول أو يشرب خلالها سوى حبات من التمر وماء زمزم. لكن الإشارة التي انتظرها لم تصله، فأدرك المغزى.

حين يعود سيكون لديه ما يلزم من ردّ لكي يُخرس الأفواه التي ستنحي عليه باللائمة. فليس الذنب ذنبه. لقد عاندته الأقدار ودفعته باتجاهها. سيقول لكل من يلومه بأنه لم يُقدم على الزواج بها إلا بعد أن فعل المستحيل ليخالف قدر ربّه المحتوم، وإن الله القادر على كل شيء، له حكمة في الأمر حين كتب له مروة. من يسمع لما قام به وفعله، للطرق التي سلكها وللدروب التي قطعها بغية نسيانها، من يسمع للمعاناة والألم التي مر بهما من أجل التخلص منها؛ سيرفع عنه اللوم، وسيتأكد بأن ما أقدم على فعله ليس سوى ما أراده الله له.

تخيّلها أمامه. تخيّل جلستهما في الجبل. في تلك الساعات القصيرة معها وجد بأن كل ما كان يحاول أن يبرهنه لها من اكتشاف خطير غدا غير ذي أهمية. قزّمت عن قصدٍ أو دونه كل ما كان يتصوّره عظيماً. عرّفته أن ثمة أمورا في الحياة أهم بكثير من كتابة الأوراق العلمية والبحث عن التميّز والشهرة «المخادعة». «في المرة القادمة» تقول له «يجب أن نخرج إلى دبي ونقضي فيها ليلتين من الأحاديث المشابهة». قالت «أمنيتي أن نقضي معاً أوقاتاً أطول وحدنا» وتكمل بعد أن تتنهد «سأعرفك على معنى الحياة الحقيقية».

حين ودّعته ليلتها كانت الشمس قد غطست كلها في الظلام، فبان القمر مكتملاً في السماء خلفها وهي تقف على الجانب الأيسر من السيارة. الجو مشبعٌ بنسمة هواء باردة من نسمات الجبل والتي يبدو أنها رافقتهم حتى لحظات الوداع تلك. منظرٌ ساحرٌ تجسّد أمامه وهي تواجهه؛ عينان ساحرتان وخدود لامعة وقدٌ يصعب وصفه، بينما الريح تُرسل إليه نسمات خفيفة حاملة معها رائحة عطرها البديع.

«ما الذي ستستفيد منه البشرية إن كان آدم قد نزل على الجبل الأخضر أو في جبال سيبيريا أو

كينيا؟»

«هل الجبل الأخضر يومذاك هو الجبل الأخضر اليوم؟ هل كان يقع في عُمان حينها أم في الأردن أو سوريا أو فرنسا مثلاً؟ وهل كانت هذه الدول موجودة وقتها؟»

كان واضحاً حينها تأثير الشراب فيها من دون أن تثمل. كانت أكثر انعتاقاً من قيود تحفّظها وترددها.

«أعتذر بروفيسور على ما سأقوله لك، لكنك بخرّت سنيّ عمرك في الجري وراء وهم، قد تكون رغبتك في الشهرة طغت على تفكيرك، فما تحاول أن تقوله قاله الكثيرون قبلك ولم يصلوا إلى شيء».

تصمت لثوان قبل أن تكمل حديثها راسمة على وجهها ابتسامة غامضة هذه المرة لتؤكد أسفها على الأشياء الثمينة التي أضاعها «بروفيسور، أنت أضعت أجمل سني عمرك التي لن تعود». ترسم ابتسامة صغيرة وهي تتمم «احذر أن تحرق ما تبقى من عمرك بنفس الطريقة، فالحياة الجميلة لا تزال تنتظرك»، تضحك مكملة «لكنها لن تنتظرك كثيراً».

كان ذلك آخر ما قالته له، وكان يستمع إليها بكل جوارحه. لم يشعر حينها سوى برغبة التمعن في وجهها المليح. لم يشأ التفكير حتى في الرد عليها.

بعد أن غادرته مساءها داهمه شعور بالخواء كمن فقد شيئاً مهماً فجأة. أحس بأنه طفلٌ صغير لا يفقه في أمور الحياة شيئا أمامها. مراهقٌ محدود التفكير أمام عمق أفكارها عن الحياة. شعر بأنه غُرر به، وأن تلك الفتاة التي كانت معه طوال تلك الساعات ليست طبيعية أو ليست من جنس البشر. كأنها نزلت من كوكب آخر غير كوكب الأرض. أحس أنها ساحرة.

كان يسمع لفيروز من جديد بعد أن توقف عن سماعها منذ وصوله لطيبة. شعر بحاجة ملحّة في أن يُذهبَ عن صدره ذلك القلق العنيف بعد أن حزم أمره وأذعن لقلبه. لقد اكتشف أنه طوال تلك الفترة إنما كان يصارع الريح العاتية ويناطح الجبال السامقة.

***

في مسبح الشقة ترتسم ابتسامة على وجهه والمياه الدافئة تتدفق على رأسه وجسده. سيكون له لقاءٌ أخير بصاحبه مساعد غداً أو بعد غد، وبعدها يكون في المطار في رحلة العودة. صوت فيروز الصادح بأغنية «حبيتك تَ نسيت النوم» كان عالياً فلم يتمكن معه من سماع نغمة هاتفه الخلوي وهو يرّن، لكن صوت «رنين» الهاتف الأرضي «المقرف» استطاع أن يصل أصماخه.

خفّض صوت فيروز حين لاحظ بأن مساعد كان قد حاول الاتصال به على هاتفه المحمول أكثر من عشر مرات. وحين أعاد الاتصال فاجأه قلق صاحبه الشديد عليه بعد سماعه خبر سقوط الرافعات وسط الحرم.

أغلق الهاتف بعد أن ضرب معه موعدا في الغد. مكث بعدها أمام شاشة التلفاز الذي كان يبث تلك المناظر المرعبة لحظات سقوط تلك الرافعات في صحن الحرم. ثمة دماء وجثث مقطّعة ومبعثرة في الأرجاء، والرعب والفزع يملآن الوجوه التائهة في المكان وهي تبحث عن المخرج وعن الأعزّاء الذين اختفوا من أمامهم فجأة. حالة من ذهول هائلة ورهبة عظيمة تملأ المكان المقدّس الطاهر.

سرعان ما استوقفه مشهد أوقف شعر رأسه وسائر جسده. محمد ابن الثانية عشرة وأخوه الأصغر محمود ابن العاشرة كانا يلعبان بجانبه بالأمس بينما كانت أمهما تؤدي مناسك العمرة. صافحاه وأخبراه أنهما من باكستان وأن أمهما أصرت على حملهما معها من أجل أن «تخلق فيهما قرباً من ربهما منذ الصغر». كانا ملاكين يتراكضان بفرح طفولي جميل في الساحات الواسعة داخل الحرم. فجأة، تحين من ابن العاشرة نظرة إلى الأعلى، فيدفع بأمه بعيداً وهو يرمق سقوط الرافعة عليهما في حين كان الأكبر يركض على مقربة منه. لم يمهله القدر حتى مجرد ثانية ليفر بجلده من الموت، فسرعان ما هوّت

الرافعة على رأسه الصغير فحطمته لتنجو أمه وأخوه الأكبر محمد.

لقد كان هناك البارحة، في ذات المكان الذي سقطت عليه الرافعة. لأربع ليالٍ متتالية كان في تلك البقعة معهما، يغدوان ويروحان حوله إلى حين يؤذن لصلاة المغرب فيفطران معه بعد أن يتأكدا أولاً أنهما قاما بتوزيع حبات التمر وعلب اللبن وزجاجات المياه على الصائمين أمثاله. يا الله، كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ يتساءل.

لكنه برغم بشاعة المشاهد أمامه، فقد عززت الواقعة في داخله أكثر وأكثر ما كُتِبَ له. ها هو ربّه مرة أخرى، يؤكد ما أراده له، وإلا لما تركه يغادر قبل أن يقع ما يقع!

تلك إذن هي العلامة الكُبرى التي لا بعدها علامة. ينتفض في جلسته. يشعر بقشعريرة هائلة تسري في جسده. كم كان أحمقَ حقاً وهو يضيع الوقت في محاولته «الغبية» للتخلص منها.

أحس براحة حينها، رغم الحزن الشديد الذي عصف بصدره على موت محمود الجميل حتى وإن كُتب له أن يصبح ملاكاً في الجنة الآن. حينها بعث لصاحبه رسالة بالبريد الإلكتروني يخطره فيها بقراره العودة إلى مسقط في الطائرة المغادرة عند الصباح الباكر.

لم يستطع بعدها أن ينام، بقي ساهراً يرتب أغراضه وكلماته التي سيتلوها على سميرة وأولاده. بعد ذلك سيُقابل حب عمره الجديد، وسيعترف لها بعشقه وهيامه بها. سيحكي لها عن كل ما قام به كي لا تكون من نصيبه. سيقص عليها بداية مشاعره نحوها وكيف نمت وترعرت سريعاً في داخله، وسينهي قصته بمحمد ومحمود وتلك الإشارة الرّبانية الواضحة.

لا يريد منها سوى أن تكون له بعقلها وجسدها، وسيفعل لأجلها المستحيل ليُقنعها بالعيش معه في عُمان. سيشتري لها بيتاً في مسقط، وسيعود أدراجه للعمل في جامعة السلطان. سيوفر لها كل ما تتمناه لتبقى سعيدة معه. سيعرف كيف سيعثر لها على قنينات النبيذ الأبيض، فقد تذكّر زملاءه هلال وناصر وخميس الذين يملكون عضويات في أندية الشرطة والجيش والطيران المدني ومحاولاتهم المستميتة في السابق لجرّه معهم إلى سهراتهم الطافحة بالشراب والجنون، في حين كان يعتذر إليهم بحجة أنه ترك الشراب. سيتكفل هؤلاء بكل تأكيد بتوفير ما تريده حبيبته من شراب. أما إذا رفضت البقاء معه في عُمان، فلن يتردد في الرحيل معها إلى حيث تشاء، مستعدٌ هو لأن يهجر لأجلها كل شيء في حياته بمن فيهم زوجته وولديه. ذلك قدره الذي اختاره له ربّه.

سيُغضب عليه سميرة وأهلها، وسيزعل منه محمد وزهراء. لكن الأمر لم يكن بيديه في الأساس. سيذكر لزوجته أن الله كان قادراً على أن يمنع آدم من الوصول إلى الثمرة المحرمة لكنه لم يشأ ذلك، لحكمة لا يعلمها سواه. سيذكر لها كذلك من أنه جل وعلا كان قادراً على منع قابيل من قتل هابيل لكنه لم يفعل، وكان قادراً على أن يُنزل آدم في مكان غير الجبل الأخضر لكنه لم يفعل. فللّه فيما يفعل أمرٌ وشأن لا تصل إليه أدمغتهم الصغيرة.

حين كانت فيروز تغني «أنا لحبيبي وحبيبي إلي» وكان الفرح قد انتشر في كل أرجاء جسده، رنّ الهاتف من جديد. كانت سميرة هذه المرة تطمئن عليه، لكنها كانت تبكي بشدة من هول ما شاهدته من مناظر وسط الحرم. ترجّته ساعتها بكل عزيز وغالٍ عليه أن يعود سريعاً إلى بيته وأولاده. قالت «أولادك ما قادرين على الحياة بدون حسك». أحس وكأنها قفزت من كرسيها فرحاً وهو يبلغها قراره بالعودة في الغد.

ستمر عليها لحظات مُرة خلال الغد وهي تستمع لما عزم القيام به، سيتعبه منظر الحزن الذي سيرتسم على وجهها وتدفق الدموع من عينيها. لكن عليها أن تتفهم موقفه وأن تتأقلم مع الأمر.

حضنهم واحداً واحداً، رغم أنه لم يغب عنهم سوى ثلاثة أسابيع. لم يشعر بشوقه لهم إلا حين قرر العودة. قبل ذلك كان يقبع في تيهه الذي أنساه بقية البشر.

كان يوم سبت، ومحمد الذي استقبله في المطار وقد أهداه وردة حمراء، قال إنها من عند أمه، قرر أن يقضي مسافة الطريق المؤدي إلى نزوى في الحديث عن سقوط الرافعات «أنت محظوظ بابا، ربنا يحبك وكتب لك عمراً جديداً إن شاء الله تعيشه بيننا بشكل أجمل».

«نعم، سأعيشه بشكل أفضل، لكن قد لا يكون بينكم ومعكم» يهمس في سرّه.

كانت الشمس، وهما يمرّان على اللوحة التي تشير إلى اتجاه جامعة السلطان، قد شرعت في النزوح التدريجي من السماء، تاركة خلفها ألوانها البرتقالية الحزينة، وكان وصوله إلى البيت قد تزامن مع أذان العشاء.

لاحظ مسحة الكآبة على وجه ابنه. لاحظ كذلك نبرة الحزن المصاحبة لصوته، لكنه أرجأ سؤاله عن أسباب ما يراه إلى حين.

أعدّت لزوجها حفل استقبال مميَّزا. بخّرت البيت بعد أن ملأت طاولة الطعام بأنواع عدّة من وجباته المفضّلة، ووضعت في وسط الطاولة باقة ورد كبيرة كتبت على بطاقة في وسطها وبخط عريض «اشتقنا لك كثيراً».

تذكّر حينها أيامه القديمة معها. كانت تلك حركاتها حين كان يعود من سفراته التي يغيب فيها أكثر من يوم. تُبّخر البيت بالعود الذي يهيّج جيوبه الأنفية ويسُدّ تنفسه من حدّته، بعد أن تكون قد بخّرت نفسها به قبل ذلك ومسحت كل بقعة من جلدها بدهن العود المخلّط بماء الورد.

أعاده المشهد إلى سيرته الأولى بعد أن اعتقد بأنه قد خرج من دوامة الضياع والتشتت تلك إلى الأبد.

- حمد لله على سلامتك يا أبو محمد، لا البيت ولا الأكل ولا أي شي آخر له طعم في غيابك.

تبادره فتبعثره.

- البيت ما حلو من دونك بابا.

تتمّم زهراء، فيزداد تشظياً.

يؤمن بالله، وبأنه واحد أحد، ويؤمن بأن الله الموجود في مكّة هو نفسه الموجود في نزوى، فلماذا بعد أن منحه الضوء الأخضر للمضي قدماً في اقترانه بمروة يقف الآن متفرجاً عليه وهو يراه مُجبراً على العودة ثانية إلى مناطق الألم تلك؟ لماذا لم يُكمل جميله ويهيء له مسبقاً الجو المناسب لكي يبوح لعائلته بما عزم القيام به دون أن يثيرهم أو يُزعلهم ما سيقوله؟! لماذا يُصعّب عليه الأمور من جديد وقد ترجّاه في بيته المقدّس أن ينفث في قلب زوجته ما يجعلها هادئة ومتفهمة لقراره؟!

ينتفض في الداخل. يرفض أن تزوره لحظات الحيرة تلك. سيخبرهم بسرّه حتى وإن لمح فيهم عمق الوحشة التي خلّفها غيابه القصير عنهم؟ لقد اتخذ قراره، وعليه ألا يأبه لتبعات ذلك عليهم أو على سعادتهم، فأمر الله يجب تنفيذه. لو عاد مرة أخرى إلى تلك الحلقة من التشتت فسيموت لا محالة.

سيضغط على أحاسيسه. لن يمنح ضعف فؤاده فرصة لمناورته حتى وإن فاجأه تدفق أنهار المحبة والشوق في نظراتهم، وحتى إن أبصر أسراب طيور الفرح وهي تتقافز من عيني زهراء التي يعرف بأنها لا تتحمل غيابه عن البيت ولو ليوم يتيم.

حوقل واستغفر كثيراً في سرّه وهو يطلب من ربّه أن يخفف على زوجته وولديه وقع قراره عليهم.

- أبو محمد، في غيابك حصلت بعض الأمور التي يجب أن تعرفها قبل أن تعود إلى عملك غداً.

بادرته فانتشلته من وسط أفكاره. ليس في مزاج يسمح له باستقبال الأخبار السيئة، لكن تقطيب وجهها أوحى إليه بأن الأمر مهم وغير قابل للتأجيل.

حانت منه التفاتة إلى ابنه محمد الذي كان يجلس بجانبه الأيمن منكّس الرأس، يحدق بلا معنى في قطعة السجادة أسفل منه. لا بد وأن الأمر يتعلق بمحمد، يقول في نفسه.

- صحيح؟؟ يقولها وهو يُنقّل نظراته بين محمد وأمه، ويُواصل «ما الذي حصل في الثلاثة أسابيع؟».

ساد الصمت في المكان. تجمّد كل شيء عدا النظرات المتنقلة بين الوجوه. أثار المشهد فضوله أكثر فأكثر، فأضاف متسائلاً وقد وضح في صوته القلق:

- إيش اللي صار في غيابي؟

- أولاً.. أوعدني بأنك لن تغضب أو تزعل مما ستسمع.

ترد عليه، بينما يحمى القلق في داخله.

- أوعدك.

يجيبها وخليط من توجس وتوتر يغزو نفسيته.

- أولاً يجب أن تعرف بأنني طلبت من طالبتك الأردنية ألا تزورنا أبداً في غيابك.

يتفاجأ بما يسمعه.

- وهل كانت تزوركم في غيابي؟!

قفز ذلك السؤال إلى فمه سريعاً ومن دون تحضير أو تفكير مسبق.

- يعني..

- لم تخبريني أنها كانت تزوركم؟

- ولماذا أخبرك؟ هي لم تأتِ إلى هنا من أجلك.

يستغرب مما يسمع.

- ماذا تقصدين؟

تشير بنظرتها باتجاه محمد قبل أن تردف:

- مروة «لعّابة» وأخلاقها لا تصلح لنا.

لم يصله بوضوح ما تتفوه به زوجته أو ما عنته بكلامها ذاك، لكنها بالتأكيد لا تتكلم عن مروة التي يعرفها، من تتحدّث عنها لا بد وأن تكون مروة أخرى.

- أنت جنيتي..

خرجت عنه لا شعورياً لحظتها.

- وعدتني بألا تغضب.

في لحظة قصيرة لا يتجاوز عمرها بضع ثوان، كرّ في عقله كل الاحتمالات الممكنة التي قد تكون السبب وراء ما أدعته زوجته عن مروة. لا بد وأن الأمر يتعلق به هو وليس محمد سوى جسر استخدمته لإيصال المعلومة التي أرادت أن تقولها له.

هل تجاسرت مروة وأخبرت زوجته عن إعجابها به أو عن رحلتهما إلى الجبل؟

- أعتذر، لم أقصد، ربما بسبب الإرهاق من السفر. يقولها ثم يُتمّم «لكن الأمر كله غريب علي، لماذا تأتي مروة إلى البيت وأنا غير موجود، وكيف فجأة أصبحت لعّابة؟».

قلبه يخفق بشدة. تبتسم سميرة. تهزّ رأسها وهي تشير له بطرف عينها اليمنى إلى أن وجود أولادهما بينهما يمنعها من الحديث الصريح في مثل تلك الأمور.

- سنتحدث عن ذلك لاحقاً يا أبا محمد.

هل تقول زوجته الحقيقة فعلاً؟ هل كانت تقصد محمد من وراء حديثها؟ لا يمكن له أن يُصدق ذلك؟

يعرف مروة جيداً، بل أكثر من جيد. لو كانت تبحث عن علاقة مع أحدهم لكانت اختارت شخصاً آخر غير محمد، غير ابنه. خلفان نفسه أصلح لها من محمد الذي قد يفشي سرّها معه. ليست غبية حتى ترتكب مثل تلك الحماقة الكبيرة. لا تقول سميرة الصدق، وأسباب منعها لمروة من القدوم إلى البيت لا ريب وأن له دوافع مختلفة عمّا ذكرته. بكل تأكيد وصلها خبرٌ ما، فلا يمكن بعد كل تلك القصص والحكايات التي صاغها الطلبة في الجامعة عنه وعنها ألا يكون قد وصلها شيءٌ منها!

- لماذا، ما الذي حصل بالضبط؟

هذه المرة يوجه سؤاله لمحمد. لكن سميرة كانت تريد أن تنهي الموضوع لحظتها. قالت:

- باختصار بعد رحيلك بدأت خطواتها للبيت تكثر، مرة ومرتين تطلب من محمد أن يأخذها إلى مسقط. أعتقد الأمر ما يحتاج لشرح أكثر. هذي بنت غير «مضبوطة» ومتحررة زيادة عن اللزوم.

مروة غير مضبوطة؟!!

يشعر بطعنة في الصدر، بألم يسري في شراييه. عن أي مروة تتحدث؟ إلا أنه سرعان ما استدرك الأمر، فما تثرثر به سميرة ليس إلا محاولة استباقية منها للنيل من مروة في داخله قبل أن يفاجئها بأمر تكرهه. لا بد وأنها تشعر بالخطر القادم نحوها بسرعة. لا ينقص سميرة الذكاء كذلك. تحاول بكل ما أوتيت من خبث ودهاء أن تدنّس سمعة تلك الفتاة كي يتراجع عمّا عزم عليه.

لن تقول له الآن أنها كشفت كل شيء. تعرف أنها لو قالت ذلك فربما سيقلب زوجها عليها الطاولة متهماً إياها بمحاولتها تلطيخ سمعة البنت بسبب غيرتها. لا يؤثر ذلك في شيءٍ فيه، فالقرار الذي اتخذه قرار حاسم قاطع لا رجعة فيه مهما قالت وادعت عن مروة. هي لا تدري بأنها بمعرفتها عنه وعنها إنما تختصر عليه الكثير من الجهد والوقت.

لقد استوعب الآن القصة، أدرك ما ترمي إليه زوجته من وراء ما تقوله. لكنها لا تدرك بأنها قد تأخرت كثيراً في محاولتها تلك.

قرر لوهلة أن يوقف الحديث في الأمر، لن يتحدث معها في أمر مروة أمام ولديه بعدما سمع منها ما سمع، لا تعرف بأن من أساءت لها قبل قليل ليست عدا زوجته القادمة، ضرّتها، مهما اخترعت من أكاذيب عنها، لكن صمت محمد وعدم تعليقه على ما قالته أمه أجبره على توجيه سؤاله هذه المرة إلى ابنه ريثما يستشف منه الحقيقة الضائعة. قال وقد طبع، مُرغماً، على وجهه ابتسامة صغيرة كي يوحي لسميرة بأن الأمر لا يهمه في كل الأحوال:

- ألهذا السبب أنت بائس وصامت؟

تحين من محمد شبه ابتسامة وهو يرفع حاجبيه مأخوذاً بسؤال أبيه قبل أن يُجيب:

- لا أبداً بابا، أنا قلق من أمر آخر.

ثمة أمر آخر إذن؟ هل اتفق هو وأمه عليه اليوم؟

- ما هو الأمر الآخر؟

يسأله وقد قرر توسيع الابتسامة على وجهه. يجب أن يستوعب الاثنان بأنه كشف لعبتهما.

- بابا، أنت أخبرتني بأنك ستغلق حساباتك في التويتر والفيس بوك، صحيح؟

تختفي الابتسامة من وجهه. أخطأ في سوء ظنه بابنه.

- كلام صحيح. ما الذي حصل؟

- حساباتك لا تزال حيّة وكأن من يديرها يريد بك شراً.

تحين منه تحديقة مطوّلة إلى وجه أبيه، فهم منها أن ابنه على دراية بمن يدير له حساباته طالما التقى بمروة أكثر من مرّة.

هل أخبر أمه بما يعرف؟ هل هذا دوره في المسرحية التي اتفقا على تمثيلها أمامه. وكمن شعر بما يدور في خلج أبيه، أكمل:

- الحرب على ما تكتب مستعرّة بابا وأنت لا تعلم عنها شيئاً.

هذه المرة حملت له نظرات ابنه كل عبارات اللوم والتأنيب.

- هل اخترق أحد حساباتي؟

يسأل ابنه وقد اعتراه هاجس من خوف.

- لا بابا، حسابك غير مخترق، وأمام المتابعين أنت من تقوم بالرد على ما يكتب عنك.

لا يمكن أن يكون لمروة يدٌ في الأمر، لقد طلب منها اغلاق حساباته في اليوم الذي أبلغها بنيته للسفر إلى السعودية. فهل نسيت هي الأمر أو أنها أعطت حساباته شخصاً آخر ليديرها بدلا عنها؟ لا، لا يمكن أن تكون مروة من تعمّدت أن تغرقه في ذلك الوحل.

التعاطي مع أنصاف المثقفين في هذا البلد وحل لا قاع له.

قال لها وهو يمهد لرغبته في إيقاف أنشطة حساباته.

- يجب ألا تهتم بذلك بروفيسور، في نهاية المطاف سيقر الجاهل بخطئه وستكون أنت البطل بعد أن يكتشفوا صحة ما تقول.

تجيبه في محاولة لإقناعه بالاستمرار. لكنه أخبرها بأنه يفتقد المتعة في قراءة ما يطرح من حديث لم يخرج منه بأي شيء مفيد بعد أن ابتعد النقاش عن الهدف العلمي المرجو منه فأصبح تراشقاً بين فريقين، فريق يكفّره وهو الأكثر والغالب وفريق لا يتجاوز عدد أصابع اليد يدافع عنه.

- بابا، الذين يطالبوا بسجنك وصل عددهم بالمئات ويمكن أكثر.

شعر مع ما سمعه بشيء من الإحباط.

ليس ذلك هو الجو الذي تمنى توفّره في البيت. كان يُمني نفسه بوجوه مبتسمة سعيدة، بليلة هانئة هادئة معهم قبل أن تبدأ لياليه الصاخبة بعد ذلك. حينها قرر أن يلوذ بالصمت مكتفياً بما سمعه. سينفرد بنفسه لاحقاً ليقرأ ما كتب في تلك الوسائل وليقرر بعدها ما ينبغي القيام به.

قرر كذلك أن يصمت كي لا يترك لسميرة فرصة للإبحار في مخططها الذي لا ترمي من ورائه سوى تحطيم صورة حبيبته وزرع الشك في قلبه عن أخلاقها ونواياها.

لكن زوجته كانت قد حضرت له مفاجأة أخرى أقوى من كل ما سبقها، حين أخبرته وهو يهمّ بالانصراف إلى غرفته بأن سامية جاءت بالأمس تسأل عن مروة بعد أن افتقدتها. استطردت وهي تتبعه إلى غرفة النوم:

- سامية تقول أن مروة صار لها أكثر من أسبوع مختفية، لا موجودة في السكن ولا في الجامعة.

لم ينم ليلتها جيداً، بقي ساهرا أمام جهاز الآيباد، يُنقّل بصره وفكره بين ما كُتب على لسانه وردود المتابعين. كانت الحرب بالفعل قد شنت عليه من أغلبية متابعيه. حتى أولئك الذين تعاطفوا معه في البداية عادوا لينقلبوا عليه فيما بعد. ثمة تيار أقوى من الآخر في الحوار، تيار قادر على التأثير باستخدام العبارات الدينية الحادة. من بين الأسماء التي كانت تهاجمه وبشدّة وبلا توقف يبرز من أطلق على نفسه اسم «منقذ الإسلام» والذي سبق وأن اتهمه بالكفر والإلحاد «لأنه إدّعى أن آدم ابن الله». كان يكتبُ عنه بلا انقطاع، لدرجة أن حلل في إحدى كتاباته شخصيته وكيف بنى اعتقاداته التي لا تصدر إلا عن «ملحد». كتب عن تاريخه العلمي و«مشاكله التي لا تُحصى» مع الطلبة والطالبات في جامعة السلطان، مدَّعيا بأن «البروفيسور الذي يصفه مناصروه بالعظيم» لم يترك الجامعة برغبته، وإنما طُرد منها «بتوجيهات عليا» بعد أن «فاحت رائحته» و«تمادى في كذبه وإلحاده وتعديه على الغيبيات التي لا ينبغي أن يمّسها أحدٌ بالشك».

لا يدري ما هي تلك «الغيبيات» التي تناولها في كتاباته وسمحت لهم بتكفيره. لا يذكر أنه تحدث عن أمور لا يجوز الحديث عنها أو أن كتاباته عرجت على ما يمكن أن يمسّ الدين في شيء، فهل ظهور آدم على سطح الجبل الأخضر يعد من الغيبيات؟ هل لأنه قال بأن الجنة الموصوفة في القرآن ليست إلا مكاناً مرتفعاً فوق سطح الأرض وأن آدم إنما أنزل منها وليس من السماء؟ لم يصل هو ولا من سبقه إلى دليل يشير إلى أن الجنة موجودة في السماء.

لكن ذلك ليس ما يهمه ويشغل باله الآن حتى وإن صدمه تهوّر مروة في الردّ على ما يُكتب ضده، وقد أحالت هي بردودها، العنيفة أحياناً، الكثير من الأمور الصغيرة إلى إشكالات جدلية لا ينتهي الحوار حولها، وكأنها تتعمّد إثارة المتابعين ضده. ليس ذلك ما يهمه حتى وهو يستشعر في كتاباتها وردودها غضباً وحنقاً عليه وكأنها تريد الانتقام منه. لا شك أنها تفعل ذلك بدافع الانتقام منه كأقرب احتمال بسبب غيابه المفاجئ عنها ولمرتين دون أن يستأذنها أو يُخطرها بنواياه بوقتٍ كافٍ. ما يهمه حقاً ويقلقه جداً هو خبر اختفائها المفاجئ الغريب، إن كان ما قالته زوجته صحيحاً.

ظلّ يقلب في أفكاره يمنة ويسرة دون أن يفلح في الوصول إلى قناعة ما تجعله قادراً على النوم. أعاد إلى سمعه حينها ما قاله صاحبه عن مروة، وربط ذلك بوصف سميرة لمروة، والتي كررت عليه قول مساعد بعد أن أصبحا وحدهما على السرير:

- الأمر الذي لم أستطع أن أقوله بصراحة أمام الولدين أن مروة شابة «حارة جداً» وتريد أحد ينام معاها. تكمل حديثها وهي تنام خلفه وتمسح على ذراعه «أعتقد أنها ما تتحمل تعيش بدون رجّال. إنت أكيد فاهم».

هل فعلاً هي كذلك؟ صاحبة الذكاء الكبير والحضور القوي والشخصية الصعبة تكون كما تصفها زوجته؟ صاحبة العطر المنتقى بعناية والذوق الرفيع في اختيار عدسات العين المتناسقة وطلاء الأظافر مع لون الملابس؛ يصبح هدفها الأهم الإيقاع بأي رجل أمامها من أجل ليلة من المتعة الصاخبة؟!

هل كان مغفلاً حتى لا ينتبه لذلك وهو صاحب الجولات والصولات مع العشرات من الجميلات؟ هل غيّبه علمه الذي على الورق عن الحقيقة التي على أرض الواقع؟

هل انشغل بالإنسان القديم الموجود في كتب التاريخ وعلوم الانسان ونسي الإنسان الطبيعي الذي يحيا معه وأمامه ونزعاته ورغباته البشرية المألوفة؟

هل خدعته مروة بعلمها وحديثها وعقلها أم أنه هو من خدع نفسه؟

يوم قرأ سيرتها ووقف على مستواها التعليمي ولاحقاً رآها في مكتب العميد أمامه مادة يدها تصافحة، والكلمات الأولى التي نطقت بها؛ جزم في اللحظة بأنها فتاة مختلفة عن كل الفتيات التي صادفهن من قبل. لا يمكن أن تكون مروة كما تصفها سميرة. مروة التي كانت برفقته في الجبل لا

يُصدق أنها في الأصل من البشر.

قرر أن يخلد إلى النوم ولو بالقوة. لن يستطيع تحمّل كل تلك التساؤلات الحارقة وهو يعي بأنه لن يجد لها إجابة وهو في وضعه ذاك على السرير. يجب عليه أن ينتظر للغد الباكر. لا بد وأن لغيابها عن الشقة والجامعة أسباب يجهلها من حولها. هو الوحيد الذي يعرف حقيقة مروة وهو الوحيد الذي يعرف متطلباتها واحتياجاتها والتي لا يمكنها أن تجاهر به لأحد. لن تُخبر مروة الكافرة بكل المسلمات جارتها سامية، التي لا يمكن أن تسمح لشعرة يتيمة أن تتحايل على حجاب رأسها وتبرحه، باحتياجاتها تلك. لقد كررت عليه بأنها لا تطيق الحياة في نزوى وأنها تنتهز الفرص للذهاب إلى مسقط كي تشعر بأنها «إنسانة حرّة» تفعل ما تريد.

قد تكون الآن في فندق ما في العاصمة تحتسي من كؤوس النبيذ هناك، وربما لأجل تحقيق رغبتها تلك كانت تطلب من محمد أن يوصلها إلى مسقط، ومحمد على ما يبدو قد عرف بذلك وأخبر أمه. هي لعّابة إذن لأنها تشرب.

يحسُّ بجسد زوجته المتوتر يقترب منه من الخلف ليرصّ على ظهره ويحضنه بحميمية. تلك هي إشارتها حين يتأخر هو في المبادرة. كان جسده جائعاً برغم الإحباط الذي غزا دمه، وكانت مروة هي الحاضرة حينها أسفل منه.

***

كان وصوله مبكراً لمكتبه وهو في قمة لهفته لرؤيتها وسماع الحقيقة الضائعة من فمها، لكنه صُدم بمكتبها الخاوي عدا الطاولة وجهاز الحاسب الآلي التابع للجامعة والقليل من الأوراق. أخبرته منسقته الهندية فيما بعد بأنها لم ترَ مروة خلال الأسبوع الماضي بأكمله. قالت إنها اختفت دون أن تترك رسالة لأحد.

لكن خلفان، الذي فوجئ بسالم وهو يدخل عليه غرفته في المختبر، قال ساخراً بأن مروة غابت «لأن البروفيسور غير موجود»، ليضيف وسالم يخطو خارجاً من الغرفة «بالتأكيد ستعود حالما تعرف بأنك عدت».

لكن مزاجه حينها كان متعكراً بشدّة ولم يمنحه النفس الكافي للتعاطي أكثر مع زميله.

لم يعرف ما يجري ويحدث، ولا يفهم لماذا لم تُخطره بغيابها طالما قررت الابتعاد عن الجامعة حتى وإن كان ذلك الغياب لفترة قصيرة، فما الذي كان يمنعها من أن تبعث له رسالة إلكترونية على أقل تقدير؟ ظنَّ حينها بأنها إنما تعمّدت أن تسقيه، بقرارها المفاجئ بالغياب، من نفس الكأس الذي سقاه منها.

«هل يدري خلفان عنها ولم يشأ أن يخبره؟» أحس وكأن ابتسامته أخفت وراءها أمراً ما.

حين عاد إلى مكتبه أخبرته منسقته بأن العميد يود رؤيته بشكل عاجل، والذي حين التقاه نصحه بضرورة «تهدئة اللعب» حول ما يكتبه على الفيس بوك بالذات لأنه يُحسُّ بأن الأمر «قد يخرج عن نطاق التحكم، وقد يتجه به إلى مشاكل هو في غِنى عنها». لم تواتيه حينها الشجاعة الكافية ليخبره بأنها، مروة، هي من تتحكم في حساباته تلك.

***

ما الذي حدث وتغيّر في غيابه القصير ذاك؟ ماذا يجري بالضبط؟ ولماذا كل تلك الألغاز التي تحيط به من كل حدب ولا يجد لها من إجابات؟ ثلاثة أسابيع ليست طويلة حتى يجد كل شيء في حياته وقد تغيّر تماماً.

أين مروة؟ أين اختفت وهي التي يفترض منها أن تُكرّس جهدها كما طلب منها لإنهاء رسالتها في

أقصر وقت ممكن كي تعود لبلدها سريعاً كما تمنت.

ليس ما يحصل من قبل تلك الفتاة التي قرر أن يتزوجها ويهجر بسبب حبه لها بلده وعائلته بأمر طبيعي. ما الذي تريد منه وما الذي تخطط له؟ وكيف لا تستأذنه في مخططاتها وهي ليست عدا طالبة، لديها مهمة محددة، وهو، لا سواه، من سيقرُّ بنجاح تلك المهمة أو فشلها، فكيف لا تضع لذلك من حساب؟

وما الذي بالتحديد تحاول أن تحققه من وراء غيابها ذلك؟ تنتقم؟ لماذا لم تصارحه يومها وتطلب منه عدم السفر. لماذا لم تقف أمامه وتزأر غاضبة «إن سافرت فلا تلومن إلا نفسك». لماذا لم تهدده وتتوعده آنذاك؟

حين حاول الاتصال بها وجد هاتفها خارج نطاق الخدمة. هل غادرت عُمان؟ هل اعتقدت أنه سيغيب أسبوعاً آخراً فسافرت إلى أمريكا وستعود؟

عاد مرة أخرى لقراءة ردودها على المشككين في علمه و«دينه». كتبت تردّ على من ذكر بأن البروفيسور «صبأ حين شكك في كتاباته بوجود الجنة والنار» بأنه «إذا كانت الجنة هي تلك التي ذكرتها الكتب السماوية فمكانها بلا شك في الأرض، ولا توجد جنّة في السماء». وكتبت ترّد على منقذ الإسلام الذي اتهمه بالإلحاد بأن استخدام العقل والتفكير والتدبر في الأمور لا يقود إلا إلى الإيمان بحقيقة الأشياء ولا يوجد في الحياة ما يسمّى إلحاداً، وأن هذه الكلمة لا تحمل أي معنى إلا لمن يريد أن يشوّه سمعة العقول ويوقفها عن التفكير. قالت تكمل كتابتها تلك «إذا أردتم للمجتمع أن ينمو وللعلم أن يتطوّر كما يتطور في الغرب فعليكم أن تمنحوا العقول الجديدة مطلق الحرية في التبحر في أصناف المعرفة والتحرر من كافة القيود التي وضعتها الأديان ورجال الدين».

تلك هي بكل تأكيد أفكاره التي لن يتملّص منها، والتي أباحها لها وهما يهبطان من الجبل، لكنه لم يشأ أن يطرحها على العلن بالطريقة التي طرحتها هي، بل إنه لم يشأ أن تتناول منابر الحوار تلك أموراً غير تلك التي يشتغل عليها؛ الإنسان وتاريخه وأصوله والقليل من الجيولوجيا. لم يرغب أن تبعده الحوارات إلى أمورٍ أخرى حتى وإن كانت تعكس قناعاته الخاصة. لقد ظلّ يمارس ما يريده المجتمع لا ما يعتقده هو خلال سنوات حياته الماضية فهل توقعت منه أن يفرح حين يجد قناعاته وقد نشرت على الملأ وعرف عنها القاصي والداني؟!

هي في طريقها لتوريطه في أمورٍ ظلّت حبيسة عقله فقط، غير مدركة للنهايات المحتملة لمثل تلك الكتابات. ليس هذا هو المكان المناسب لطرح مثل تلك الأفكار، وبالتأكيد ليس هؤلاء المتابعين من ينبغي التعاطي معهم في مثل تلك المواضيع.

اتصل بابنه ليطلب منه المساعدة.

- الحل الوحيد هو أن تفتح حساب جديد وتذكر فيه أن حسابك السابق مخترق منذ أسابيع وأنك لا تعرف من يقوم بالكتابة فيه نيابة عنك، وأن ما يُكتب في ذلك الحساب لا يمثلك.

- لكنه ليس مخترقاً.

- لكن ما يكتب فيه ليس آراءك.

يصمت. هل يقول له بأنه في واقع الأمر آراءه.

- بابا أنت لا تملك حلاً آخر.

يعود ثانية لقراءة ردود أفعال متابعيه. لا شك في أن من يسمّى «منقذ الإسلام» قريب منه، وكأنه يعرفه حق المعرفة. لا يدري لماذا ينتابه الشكّ في خلفان. هل يحاول توريطه حتى يصفى له الجو مع مروة؟ أم أن الأمر كله يتعلق بمروة التي تحاول الانتقام منه لسبب ما؟

«الكل يعرف عنه أنه لا يحفل بالصلاة، زملاؤه بالجامعة يقسمون بأنهم لم يروه يؤدي فرضاً واحداً في حياته»

«من مثله يستحق الموت شنقاً فالكثير من جيل اليوم قد تأثر بكتاباته الإلحادية فتبعه في الإلحاد».

«إنه يبني جيلاً من الشباب التائه المدمّر الذي لا يؤمن بوجود خالق ولا جنة ولا نار، فكيف سيبني وطنه؟»

ثلاثة أسابيع غاب فيها عن بلده لا أكثر، ثلاثة أسابيع كان في معظمها قريباً من ربّه؛ راكعاً خاشعاً مبتهلاً ومتوسلاً. ثلاثة أسابيع تغيّرت خلالها الكثير من الأمور. لا يستوعب ما يحدث، بل لا يصدق ما يجري من حوله. الأمور تتسارع بشكل تتجاوز قدرته على الاستيعاب. ربما يعيش وسط كابوس وسيستفيق منه.

عليه أن يفكّر ملياً فيما سيكتبه في حسابه الجديد. ليس جباناً كي ينفي كل قالته مروة على لسانه، عليه أن ينتقي تعابيره بحيث تشير بأن هناك من يدير حساباته وأن ذلك الشخص يتحدث بالفعل باسمه إلا أنه لم يوفق تماماً في التعاطي مع بعض الأمور. عليه ألا يُغضب مروة عند رجوعها وألا يترك لها مجالاً لاتهامه بالجبن أو التراجع.

لكن رنّة هاتف مكتبه قطعت عليه حبل أفكاره. أخبره المتصل وبصوتٍ جهوري جاف بأن عليه أن يترك كل ما يقوم به وأن يستقل سيارته ويتجه بها في الحال ناحية جهاز التحريات والتحقيقات في مسقط ومعه جواز سفره وبطاقته الشخصية.

توقع ذلك بعد ردود الأفعال التي قرأها، وخشي من حدوثها كذلك صديقه منصور.

- أنا البرفيسور سالم بن سعيد الكندي لا يمكن أن تدعوني للمجيء كما تريدون، لدي التزامات.

- كل ما أعرفه أنك المواطن سالم بن سعيد الكندي، وأنا هنا أُنفذّ الأوامر ليس إلا.

- لكن لا يمكنني القدوم الآن، يجب أن أنهي بعض الارتباطات.

لكن الصوت من الطرف الآخر يأتيه حازماً غير قابل للنقاش قبل أن يغلق سماعة الهاتف:

- لديك 6 ساعات حتى تكون معنا. أرجو أن تفهم ذلك. وإذا تأخرت سنكون نحن معك قبل انتهاء الساعة السابعة.

ما الذي جرى بالضبط؟! فوتيرة المشاهد التي مرّت عليه منذ خروجه من مكة كانت سريعة لدرجة أنه لم يقوى على استيعابها حتى اللحظة، بدءًا بسقوط الرافعات وقرار عودته السريع وما تلا ذلك من أحداث.

حتى حين يعيد على نفسه قراءة ما كتبته مروة على لسانه لا يجد فيه ما يستدعي جرّه بتلك الطريقة إلى غرفة الحبس هذه. لقد غفلوا تماماً كل ما قدّمه وساهم به كعالِم طوال كل تلك السنين. لم يشفع له كل ذلك كما لم يشفع لوالده من قبله عشقه لبلده وخوفه عليها.

ينتابه شعور بأنه لا بد اقترف ذنوباً كثيرة في حياته استحق عليه ما هو فيه، أخطاءً أقل ما توصف بأنها جسيمة. لكنه يجهل أيهما الذي تسبب فيما وصل إليه. هل حين لم يسمع كلام أبيه بأن يدرس الطب؟ فلو كان طبيباً لما انتهى به الحال في تلك الغرفة التي لا فرق بينها وبين تلك الحفرة التي هلك بداخلها أبوه قبل أكثر من ثلاثين عاماً شيئاً، فكلتاهما مسكونة بالوحشة الهائلة، وكلتاهما خالية من الأثاث عدا من سجادة ومصحف.

هل حين قرر أن يتعمق أكثر وأكثر في علم الإنسان والأنثروبولوجيا والجيولوجيا وأن يصبح أستاذاً مشهوراً في بلده وفي بلدان العالم أجمع، يشار إليه بالبنان، وأن يكون الأشهر في حقله، وأن يحوز على الجوائز العالمية؟ كان باستطاعته أن يقتنع بدور المحاضر العادي الذي ما إن ينهي محاضراته حتى يستمتع بما تبقى له من وقت في يومه، يحتسي كاساً أو يشرب شيشة ويتابع المباريات.

هل قراره السريع بالهروب إلى صاحبه بطيبة؟ فلو لم يهرب، لو لم يغب للثلاثة أسابيع تلك لم حصل ما حصل. ما كان ينبغي عليه أن يهرب.

لا ريب في أن أحد أخطائه التي لا تُغتفر هو استعجاله العودة من مكة المكرمة. كان عليه البقاء فقط لليلة أخرى في الحرم المكي الشريف. فقط ليلة إضافية لا أكثر. لو كان فعلها لأصبح الآن شهيداً، منعَّما، يرتع وسط الحور العين، وسط البديعات من النساء، الكواعب الأتراب، من هنّ بمثل جمال مروة وأكثر، ولدانت له قطوف الجنة كاملة، ولأمر فسيقت إليه من بنات الأرض وحوريات الجنة ما يشاء. كان بمقدوره حينها أن يطلب أياً من بنات الأرض اللواتي قيّده خوفه من الحصول عليهن في حياته؛ خضراء ومروة وتلك الفرنسية الباذخة، ولكان قد بكّر بطلب أنجلينا بصوتها وصدرها وشفتيها التي ستوقظ لديه كل الحوّاس الأخرى. كان سيكون في الجنة التي خرج منها آدم، وسط كل تلك الأنهار والملذات. كان سيجلس مع آدم ليسأله هل فعلاً نزل على صخور الجبل الأرض حين أخرجه الشيطان من الجنة. كان سيسأله عن مكان الجنة التي هما فيها بعد أن تأكد له بأن مكانها لم يكن أبداً في السماء. كان سيأتيه محمود الصغير اليافع في صورة ملاك ليقدم له حبات من جوز ولوز الجنة وأقداح النبيذ الأبيض بدلا من التمر واللبن.

هل تمادى، وبشكل صارخ، عن المباح من الحديث فيما كتبه وغرّد به؟ هل خانه جهله فاعتقد بأنه قادر على البوح بما في رأسه بحرية «أكثر من اللازم» وسط مجتمع من العقول التي لا تقبل سوى ما ورثته وما يُملى عليها؟ ربما كان ذلك السبب الأكبر في أن يرى نفسه معزولاً لا يقف بجانبه أحد، فمن يتجرأ ويغرد خارج السرب، لن ينال سوى العقاب. كان عليه أن يتبع القطيع مهما اختلف معهم في الرأي.

ستكون إحدى زلّاته، بلا شك، التي لا تضاهيها خطيئة؛ أنه تجرأ في الوصول إلى آدم وإلى تلك الرفات الراقدة بهدوء في تلك الغرفة الصخرية منذ ملايين السنين. ذلك الكهف المحاط بالأسرار والذي لم يكن جائزاً لأحد الأقتراب منه، فمن هو حتى يمنح نفسه حق الدخول وملامسة تلك العظام المقدّسة الطاهرة وهو الذي قضى سنيّ عمره في الغي والرذيلة؟ آدم ولا سواه هو سبب ما يقبع فيه من ضياع، هو السبب في كل تلك الأحداث التي وقعت عليه ولكل تلك النوائب التي ألمت به. هي لعنة ذلك الكهف

الذي عرف عنها سليمان قبله وحذر بقية البشر منه، لكنه بغباء صدّق نفسه وولج أسوار المحظور. أعماه غرور العالِم ولم يستمع بقلبه قبل أذنه إلى ما كان يهرف به ذلك الفقير المسكين الذي كان أول الضحايا. سليمان مات حتى قبل أن يحكي شيئاً، أبقى الأمر سراً بينه وبين نفسه لأيام وربما شهور. وحين لم يستطع تحمّل ثقل السرّ بنفسه وقرر البوح به لزوجته تردّى وسقط مهشماً. أما هو فقد تجاوز كل الحدود المسموحة له، ولم يكتفِ بما كتبه، بل كان قاب قوسين أو أدنى من أن يطلع على ذلك السرّ فتاة لا تعرف الله ولا تؤمن بالأنبياء ولا الأديان، فكان لزاماً أن ينال العقاب الذي يستحقه. ليته لم يزر آدم في قبره، ليته سمِع نصيحة سليمان ولم يقترب من ذلك الكهف المشؤوم.

كان قد افترش السجادة وشرع في تناول المصحف قبل أن يسبقه إلى ذلك حارس السجن وهو يأمره بالاستعداد لجلسة التحقيق القادمة وليبلسه الأصفاد من فوقه إلى أسفله.

لا يعرف عدد الأيام التي قضاها في تلك الغرفة، لكنه تذكّر دعوة منقذ الإسلام للسلطات بالقبض عليه وسجنه في الغرفة التي سُجن فيها أبوه. لو أنهم خيروه لكان اختار غرفة أبيه، فهناك سيتمكن، على الأقل، من متابعة تعاقب الليل والنهار من خلال الفتحة المعلقة في السقف.

يضحك في سرّه من ظرافة منظره وهو يجر خطاه المثقلة بالسلاسل خارج الغرفة، متذكراً حلمه «الساذج» في أن يُنحت له تمثالٌ يوضع في أحد الشوارع الهامة الذي ترتاده الناس بلا توقف تكريماً له ولعلمه ولجهده في رفع سمعة بلده.

هل هزّ رأسه أسفاً بعد أن أيقن أنه أحمق؟ نعم هزّ.

صدر للمؤلف:

- **النذير** ، قصص، المطابع العالمية، مسقط، 1992
- **حبس النورس** ، قصص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1996
- **حمّى آيار** ، قصص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999
- **نقوش** ، قصص، كتاب نزوى، مسقط، 2007
- **الصوت** ، رواية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2012
- **برّ الحكمان** ، رواية، الجزء الأول من ثلاثية بحر العرب، دار سؤال، بيروت، 2016

يونس الأخزمي

كهف آدم

رواية

مكث في صدمته وحيرته تلك طويلا. لا يعرف ما ينبغي قوله.

كانت لا تزال منكّسة رأسها، وكأنها قررت ألا ترفعه قبل أن تسمع رده. سمعها تهمس بصوت بالكاد يُسمع «أنا آسفة جداً على ذلك»، «يمكنك أن تنسى ما سمعته يا بروفيسور».

هي لا تصلي، فما العجب إذن إن رغبت في الشراب؟ هي لا تهتم كثيرا بما يهتم به الآخرون في طريقة لبسهم «المحتشم». لا تأبه بتغطية شعر رأسها وساقيها حتى لو وقفت مع رجل دين. لا يهمها أن تختلط بالرجال أو تخرج معهم وحدها دون «محرم». فتاة متحررة تماماً.

تذكّر حينها أنه قرأ ذات مرة أن النبيذ كان يصنع في عُمان قديماً، بل كان يصنع في الجبل الأخضر تحديداً، في المكان الذي يجلسون عليه الآن! وكان يضربُ به المثل لشدّة لذته.

ISBN: 978-1-78871-000-8
9 781788 710008
دار عرب للنشر والترجمة
DAR ARAB FOR PUBLISHING & TRANSLATION